



”الأمويون والبحر الأبيض المتوسط“

أ.د. عامر جاد الله أبو جبلة

أستاذ بقسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية

جامعة مؤت - الأردن

ملخص بحث:

يتناول هذا البحث كل ما له علاقة بالأمويين والبحر الأبيض المتوسط مع التركيز على الفترة من ٤١-١٣٢ هـ / ٦٦١-٧٥٠ م. من حيث صراع الأمويين البحري مع البيزنطيين والحروب البحرية التي حدثت خلال هذه الفترة بين الطرفين، فضلاً عن استعدادات الأمويين من حيث بناء أسطولهم البحري الحربي وما يتصل فيه من موانئ لصناعة السفن ومستلزماتها في سواحل الشام ومصر، إضافة إلى المصطلحات العسكرية البحرية المرتبطة بذلك التي سادت في ذلك العصر كأسماء السفن وأنواعها والتي استخدمت في المعارك البحرية في تلك الفترة، كما يشتمل البحث على إظهار دور أبرز الأسماء العسكرية والقادة العسكريين الذين كان لهم دور فعال في حماية سواحل كل من بلاد الشام ومصر من هجمات البيزنطيين البحرية.

Abstract

The Umayyads and the Mediterranean

Prof. Dr. Amer Jadallah Abu Jableh / Department of History / Mutah University / Jordan

This research deals with everything related to the Umayyads and the Mediterranean, with a focus on the period from 41 – 132 AH / 661-750 AD..



In terms of the Umayyad naval conflict with the Byzantines and the naval wars that took place during this period between the two parties, as well as the Umayyad preparations in terms of building their naval fleet and related ports for the manufacture of ships and their supplies in the coasts of Levant and Egypt, in addition to the naval military terms associated with that that prevailed in That era, such as the names of ships and their types, which were used in the naval battles in that period. The research also includes showing the role of the most prominent military names and military leaders who had an active role in protecting the coasts of both the Levant and Egypt from the Byzantine naval attacks.

” خطة البحث ”

أولاً : تمهيد

ثانياً : الغزوات البحرية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

ثالثاً : الموانئ ودور الصناعة

رابعاً : أنواع السفن .

خامسًا: القادة البحريون

سادسًا: الخاتمة

سابعاً : المصادر والمراجع

أولاً : تمهيد :

يقول ابن خلدون: " فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم ، وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا النواتية في حاجاتهم البحرية أمتاً وتكررت ممارساتهم للبحر وثقافته واستحدثوا بصراء به فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشوابي (المركب البحري الحربي) وشحذوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأ茅وها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وتغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقيا والمغرب والأندلس ".^(١)

إلا أنه منذ أن أصبحت السيادة للمسلمين على بلاد الشام ومصر ابتداءً انتهج الخليفة عمر بن الخطاب سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين، فاهتم بتحصين السواحل وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها، خاصة وقد ورث المسلمون مدنًا وموانئ ساحلية هامة مثل غزة وعسقلان، وعكا، وصور، وبيروت، وجبيل، واللاذقية، وجبلة، وانطروس، وقيسارية، وكذلك الإسكندرية.^(٢)

ويشار إلى أول أن من ركب البحر الأبيض المتوسط من المسلمين غازياً بأسطول بحري هو معاوية بن أبي سفيان، والي عثمان بن عفان على الشام، ويدرك أنه استعمل على البحر عبدالله بن قيس الحارثي، حليفبني فزارة، الذي غزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البحر ولم ينهزم .^(٣)

^(١) ابن خلدون (عبد الرحمن) ت ١٤٠٨هـ / ١٤٠٥م، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله درويش، ط١، دار العرب، دمشق، ٢٠٠٤، ج١، ص٤٣٧، وحسن شهاب الدين، فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء: دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٢، ص٢٠ .

^(٢) البلاذري (أحمد بن عيسى) ت ٢٧٩هـ / ١٩٦م، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ص١٥٢، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م ص ١٦ - ١٧ .

^(٣) الطبراني (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١١، دار المعرفة، ط٢، مصر، ١٩٦٧م، ج٥، ص٥١ - ٥٣، والبلاذري، (ت ٢٧٩هـ / ١٩٦٢م)، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله الطياب، مؤسسة المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٦١، ١٩٥ .

ويذكر أن معاوية بن أبي سفيان كان قد جاءه توجيه من الخليفة عثمان بن عفان سنة ٦٤٧ هـ / ٥٢٧ م "أن إذا: ركب البحر ومعك امرأتك فاركبها مأذونا لك وإنما فلا" فركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة، وحمل معه امرأته فاخته بنت قرظة، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصاري، وذلك سنة ٦٤٨ هـ / ٥٢٨ م، بعد انحسار الشتاء، فسار المسلمون إلى قبرص، وهي جزيرة في البحر، وتم الصلح مع حاكمها على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها كل عام، وشروط أخرى، ولكن في سنة ٦٥٢ هـ / ٥٣٢ م، قام أهل قبرص بإعانة الروم في البحر بمراكب، ولذلك قام معاوية بغزوهم في عام ٦٥٣ هـ / ٥٣٣ م، وكان معه خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى، ثم أقرهم على صلحهم، وبعث إليها من يستوطنها من المسلمين وغيرهم، ويذكر أن أسطول مصر بقيادة عبدالله بن أبي سرح قد اشتراك في غزو قبرص تحت لواء معاوية بن أبي سفيان. (٤) ولذلك فإن من الواضح أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من تولى إنشاء أسطول حري يواجه فيه القوة والأسطول البحري البيزنطي الذي كان يهدد سواحل بلاد الشام ومصر، فكان معاوية بن أبي سفيان والياً على جندي دمشق والأردن بداية، فأخذ الأسطول الإسلامي منذ ذلك الوقت زمام المبادرة والتلقي على الأسطول البيزنطي، فأخذ يهاجم الجزر ويرسل الحملات البحرية إلى سواحل بيزنطة. (٥) ثم تتبع غزوات معاوية في البحر ، فيذكر الطبرى أن معاوية قام في سنة ٦٣٢ هـ / ٥٣٢ م بغزو مضيق القسطنطينية، وكانت برفقته زوجته (٦).

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٤، ص ٢٦٢، وانظر ص ٢٥٨، ٢٦٠، والواقدى، فتوح البلدان، ص ١٥٧ وما بعدها، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٦٠، وأنظر : طاهر حبosh، أوائل العرب عبر العصور (العصر الأموي) ج ٣، بغداد ١٩٩١ م، ص ٢٩، ٣٠، وفتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ج ٢، ٢٨، ص ٤٥ .

(٥) انظر : أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٨٧ - ٩٠، ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول، مجذلاوي، ط ١، دار عمان، ٢٠٠٠ م، ص ١٨٦ .

(٦) الطبرى، تاريخ، ج ٤، ص ٣٠، وإبراهيم العدوى، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ص ٥٣ .

كما أحرز الأسطول الإسلامي انتصاراً باهراً في السيطرة على مياه البحر المتوسط الشرقي سنة ٥٣٤ هـ / ٦٥٥ م، بعد معركة ذات الصواري التي وقعت قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى، وانتصر فيها المسلمون.^(٧) ويذكر أن الأسطول المصري قد شارك مع الأسطول الشامي في معركة ذات الصواري بقيادة عبدالله بن أبي سرح حيث انطلق من الإسكندرية، فالتقى بالأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، ويشار إلى أن الأسطول البيزنطي كان قد تألف من ألف مركب أو سبعمائة مركب، وأسطول المسلمين كان قد مائتي مركب، كان النصر إلى جانب المسلمين في تلك المعركة المشهورة.^(٨)

ثانياً : الغزوات البحرية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) :

لا تذكر غزوات بحرية بين ٣٤ هـ - ٤٣ هـ، ويبدو أن مرد ذلك يرجع إلى مهادنة معاوية للبيزنطيين أثناء صراعه السياسي مع علي بن أبي طالب والتفاته ل لتحقيق الاستقرار الداخلي للدولة ، ويبدو أنه عندما استتب الأمن واطمأن للأحوال الداخلية ، استأنف معاوية نشاطه البحري ضد البيزنطيين، فيشار إلى أن بسر بن أرطأة كان قد غزا البحر زمن معاوية سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤ م .^(٩)

^(٧) الطبرى، تاريخ، ج٤، ص ٢٩٠ - ٢٩٢، وابن الأثير (ت ١٢٣٢ هـ / ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، ج ١١، تحقيق : أبي الفداء عبدالله القاضى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م، ج ٢، ص ٣٢٨، وابن عبد الحكم (٥٢٥٧ هـ / ١٨٧٠ م) فتوح مصر، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٥٥ .

^(٨) ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩ م ج ١، ص ٩١، والذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) تاريخ الإسلام، تحقيق عبد السلام تمرى، دار الناشر العربي، ط٢، ١٩٩٠ م، ج ٣، ص ٤٢٠، وأبو زرعة الدمشقى (عبد الرحمن بن عمر) ت ٢٨١ هـ / ١٩٤ م تاريخ أبي زرعة الدمشقى، وضع حواسىه خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص ٤١ .

^(٩) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٤ ، وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، دار الفكر ، ط ٣ ، دمشق ، ١٩٧٥ م ، ص ٨٥ .

كما أغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية، في مائتي مركب، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، ثم عاد معاوية بن حديج إلى مصر تاركاً مكانه في طرابلس الغرب سنة ٤٦ هـ / ٦٦٦ م رويفع بن ثابت الأنباري ، الذي غزا إفريقية ودخلها سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م، وفتح جزيرة جربة التي يسكنها البربر (١٠) وفي سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م، أمر معاوية بن أبي سفيان عقبة بن عامر بغزو رودس، ومعه مسلمة بن مخلد، وخرجا إلى الإسكندرية، ثم توجهوا في البحر، فلما سار عقبة في البحر استولى مسلمة على سرير إمرته . (١١)

ولما ولـي مسلمة مصر سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م، انتظمت غزواته في البر والبحر . (١٢) ، ويدرك أنه في سنة ٤٨ هـ / ٦٦٨ م، غزا مالك بن هبيرة السكوني البحر ، دون تحديد الوجهة البحريـة لهم، التي تم غزوـها، وكذلك غزا عقبة بن نافع الجـهـنـي بأـهـلـ مصر وبـأـهـلـ المـدـيـنـةـ الـبـحـرـ أـيـضاـ . (١٣)

وفي سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م، غزا عقبة بن نافع الجـهـنـيـ الـبـحـرـ ، فـشـتـأـهـلـ مـصـرـ (أـيـ غـزـوةـ فيـ الشـتـاءـ) ، وكـذـلـكـ غـزـاـ يـزـيدـ بنـ شـجـرةـ الـرـهـاوـيـ الـبـحـرـ فـشـتـأـهـلـ الشـامـ ، ثمـ غـزـاـ فـضـالـةـ بنـ عـبـيدـ جـزـيرـةـ جـرـبةـ وـشـتـأـ بـجـرـبةـ ، (١٤) ثمـ قـامـ فـضـالـةـ بنـ عـبـيدـ بـغـزـوةـ ضـدـ الـبـيـزـنـطـيـنـ فـيـ الـبـحـرـ وـذـلـكـ سنـةـ ٥٥٠ـ هـ / ٦٧٠ـ مـ . (١٥) فـضـلـاـ عـنـ أـنـ يـزـيدـ بنـ مـعـاوـيـةـ كـانـ قدـ غـزـاـ أـرـضـ الرـوـمـ فـيـ هـذـهـ السـنـةـ (١٦ـ) بـرـاـ وـبـحـرـاـ ، وـقـاتـلـوـ أـهـلـ الـقـسـطـنـطـنـيـيـنـ ، ثمـ قـفـلـ .

(١٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ، وعلي الصلاحي ، معاوية بن أبي سفيان ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، (د. ت) ص ٣٨٠ .

(١١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، وانظر الذهبي ، تاريخ الإسلام ج ٤ ، ص ٢٧٨ .

(١٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ١٣٧ .

(١٣) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣١ ، وانظر نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٨٦ .

(١٤) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ .

(١٦) الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، وانظر: أبو زرعة الدمشقي ، تاريخ أبي زرعة ، ص ٤٢ .

وقام جنادة بن أبي أمية الأزدي في سنة ٥٥٣ هـ / ٦٧٢ م بفتح جزيرة رودس في البحر المتوسط، فنزلها المسلمون، وزرعوا فيها ، واتخذوا بها أموالاً وحواشي يرعونها في أطراف الجزيرة ، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، ولهم مراقب يحذرهم من الأخطار المحيطة بالجزيرة من الروم ، وكان المسلمون يتعرضون في هذه الجزيرة لسفن الروم في البحر . (١٧)

ثم قام جنادة بن أبي أمية بفتح جزيرة أرواد سنة ٥٥٤ هـ / ٦٧٣ م، وهي قرية من القسطنطينية، وكان المسلمون قد أقاموا بجزيرة أرواد مدة سبع سنين، بعد فتحها على يد جنادة. (١٨) كما قام يزيد بن شجرة الراهوي سنة ٥٥٦ هـ / ٦٧٥ م بغزو بحرية ضد البيزنطيين، وقيل إنه قتل سنة ٥٥٨ هـ / ٦٧٧ م في إحدى غزواته البحريّة. (١٩) وينكر أن عمر بن يزيد الجهنمي كان قد

غزا في البحر ضد البيزنطيين وذلك سنة ٥٥٧ هـ / ٦٧٦ م (٢٠)

ويشار إلى جنادة بن أبي أمية ونشاطه في البحر سنة ٥٥٨ هـ / ٦٧٧ م ومواجهته للبيزنطيين، وكذلك في سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م، ومواجهة البيزنطيين عند جزيرة رودس، ومعه من القادة علامة بن جنادة الحجري، وعلامة بن الأختم . (٢١)

وكانت الإسكندرية كميناً لهم لمصر على البحر المتوسط آذاك، مقراً ومكاناً لإدارة الشؤون البحرية لولاتها، ففي سنة ٥٩٣ هـ / ٦٩٤ م، هبط عبد العزيز بن مروان إلى الإسكندرية، وفي سنة ٥٩٤ هـ / ٦٩٥ م، خرج عبد العزيز بن مروان إلى الشام، وهبطها مكانه خباب بن مرثد . (٢٢)

(١٧) الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٢٨٨، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٠، وانظر: علي الصلاي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ ، نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية، ص ٨٦ .

(١٨) الطبرى، تاريخ، ج ٥ ، ص ٥٩٣ ، و البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٣٠ ، وانظر نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٨٦ .

(١٩) الطبرى، تاريخ، ج ٥ ، ص ٣٠١ .

(٢٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢١) الطبرى، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٠٩ ، و خليفة بن خياط، تاريخ ، ص ٤٢٧ .

(٢٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٧٠ .

ويذكر أن عبد الواحد بن أبي الكنود كان قد قاد في سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م، حملة بحرية ضد الروم في البحر المتوسط حتى بلغ قبرص .^(٢٢) وفي سنة ٨٣ هـ / ٧٠٢ م، غزا عطاء بن رافع صقلية، كما خرج عمران بن شراحيل على البحر.^(٢٤)

ويذكر أن موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م، كان قد وجه المغيرة بن أبي بردة العبدي في مراكب فافتتح أوليه، وهي أول مدائن صقلية، ويبدو أن هذه آخر غزوة بحرية كانت زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.^(٢٥)

وفي زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، استؤنفت الغزوات البحرية الإسلامية في البحر المتوسط ، ذلك أن القائد موسى بن نصير كان قد وجه سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ م ابنه عبد الله بن موسى بن نصير لغزو سردينية، ثم وجه عبدالله بن حذيفة الأزدي لغزو سردينية أيضاً في السنة نفسها، فغنم وأصاب سبياً وغنائم^(٢٦) كما يشار إلى مسلمة بن عبد الملك بأنه كان في سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ م، قد افتح فيهم (قمق) وبحيرة الفرسان، حتى بلغ جيشه قلوزيميا تلس، فقتل وسبى.^(٢٧)

وقام موسى بن نصير في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م، بإرسال ابنه عبدالله ليغزو ميورقة، ومنورقة، وهما جزيرتان بين صقلية والأندلس وافتتحهما، وتدعى هذه الغزوة، بغزوة الأشراف، إذا كان معه في هذه الحملة أشراف الناس.^(٢٨)

^(٢٣) الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

^(٢٤) الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ١٨ .

^(٢٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٩٢ .

^(٢٦) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٠ .

^(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .

^(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، و الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٣٤ .

وفي سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م، أسرَّت الروم خالد بن كيسان "صاحب البحر" فذهبوا به إلى ملتهم (٢٩) البيزنطي فأرسله إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهذا دليل على رغبة الامبراطور البيزنطي في استرضاء خليفة دمشق ليثنيه عن غزو بحري للقسطنطينية، ولكن الخليفة الوليد كان يتبع تحركات البيزنطيين المعادية للأسطول البحري الإسلامي في البحر المتوسط، فأوكل المهمة لأخيه مسلمة بن عبد الملك للتحضير والتخطيط لمحاصرة القسطنطينية. إلا إن ذلك قد تم في زمن أخيه سليمان بن عبد الملك الذي تولى الخلافة من بعده. (٣٠) ويدرك الطبرى أن بداية غزو موسى بن نصیر لأندلس كان سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ م. (٣١)

وفي سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م، وجه موسى بن نصیر مولاه طارق بن زياد فأتاى طنجة وهي على ساحل البحر، وعبر إلى الأندلس، فلقيه ملكها، فقتل وسبى وأسر، فتم فتح جزيرة الأندلس في اثنى عشر ألفاً تم حملهم إلى الأندلس في السفن، وانتصر فيها جيش المسلمين على جيش لذريق حسب تقدير ابن خلدون (٣٢). ويشار كذلك إلى أن جيش موسى بن نصیر البحري قد سيطر أيضاً على جزيرة سردينية في سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م، وهي جزيرة في البحر المتوسط للبيزنطيين، وهي من أكبر جزر البحر، قال الذهبي: "فأخذوها وغنموا وغرقوا عن آخرهم" (٣٣).

(٢٩) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .

(٣٠) انظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٢٢ .

(٣١) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ .

(٣٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٤ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، والطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ ، والواقدي ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٣ ، وابن خلدون ، المقدمة ، ج ٤ ، ص ١١٧ ، ونبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢١٤ .

(٣٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، وانظر : الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

وقام العباس بن الوليد في سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م، بغزو أرض الروم فافتتح أنطالية، وقارطة على ساحل البحر، قال الذهبي: "افتتح مدینتين من الساحل".^(٣٤) وفي فترة الخليفة سليمان بن عبد الملك ، قام عمر بن هبيرة سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م، بغزو الروم في البحر، وذلك في فصل الشتاء.^(٣٥) ثم في سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م، حوصلت القسطنطينية من قبل الأسطول الإسلامي (فشتى مسلمة بن عبد الملك في ضواحي الروم، وشتى عمر بن هبيرة الفزارى في البحر في ألف مركب، فسار مسلمة من مشتاه حتى صار إلى القسطنطينية في البحر والبر، فجاوز الخليج، وافتتح مدينة الصقالبة ، وخرب مسلمة ما بين الخليج والقسطنطينية ، وفيها أصياب عبدالله بن شراحيل .)^(٣٦)

وكان الأسطول الإسلامي يتألف من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا عن السفن الصغيرة الأخرى، واحتل الأسطول الإسلامي مضيق البوسفور الجنوبي، لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجا وفي مطلع الربيع من حصار المسلمين للقسطنطينية وصلت لمسلمة بن عبد الملك القائد العام نجدة بحرية وبرية فقد جاء أسطول من مصر وأخر من شمال إفريقيا، واستخدم المسلمين النفط، وسلاحا يشبه المدفعية في حصار القسطنطينية.^(٣٧) وتوفي الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٥٩٩ هـ / ٧١٧ م، والأسطول البحري يحاصر القسطنطينية، ولما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز في سنة

(٤٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٦ ، و الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٦١ .

(٤١) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٤ ، و ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣١٥ - ٣١٦ ، و الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ ، وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٤٦ .

(٤٣) انظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٧١٧ هـ / ٥٩٩ م، الخلافة أذن للجيش البحري والبرى بالقفول ، وذلك بسبب تعرض الأسطول الإسلامي لخسارة كبيرة في البحر . (٣٨) وبلاحظ أن الروم بعد فشل المسلمين في فتح القسطنطينية أخذوا بمهاجمة ثغور المسلمين في الشام، فركزوا غاراتهم البحريّة على اللاذقية سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م، على الساحل الشامي . (٣٩) وفي زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م، أغزى يزيد بن أبي مسلم (والى إفريقية) محمد بن أوس الأنصاري في البحر، ليغزو جزيرة صقلية ، فغنم وسبى وسلم . (٤٠) كما قام بشر بن صفوان (والى إفريقية) بتوجيه يزيد بن مسروق اليحصبي سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م لغزو جزيرة سردينية، فغنم وسلم . (٤١) وقام بشر بن صفوان (والى إفريقية) بتوجيه عمرو بن فاتك الكلبي سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م لغزو البيزنطيين في البحر، فغنم وسلم . (٤٢) وبعد أن تسلم الخليفة هشام بن عبد الملك الخلافة في سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م، واصل الأسطول الإسلامي نشاطه في البحر ضد البيزنطيين فيذكر أن بشر بن صفوان (والى إفريقية) قد وجه محمد بن أبي بكر مولىبني جمح سنة ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م، لغزو جزيرتي كورسيكا، وسردينية . (٤٣) ويشار إلى غزو معاوية بن هشام في سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م، ومعه أهل الشام في البحر مع البيزنطيين، حيث عبر البحر إلى قبرص، ومعه ميمون بن مهران . (٤٤) وينذكر أن بشر بن صفوان (والى إفريقية) كان قد وجه قثم بن عوانه الكلبي لغزو

(٣٨) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٠ .

(٣٩) انظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافةبني أمية ، ص ٢٥١ .

(٤٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٦ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

(٤٤) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٠ ، و ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

البيزنطيين في البحر، فغنم وسلم، وذلك سنة ١٠٨ هـ / ٧٢٦ مـ. (٤٥) وفي سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ مـ، أغزى بشر بن صفوان من إفريقية القائد حسان بن محمد بن أبي بكر مولى بنى جمح، جزيرة سردينية ، فغنم وسلم. (٤٦) وفي السنة نفسها أي ١٠٩ هـ، تولى إفريقية عبدالله بن الحجاج لهشام بن عبد الملك ، فسيير جيشاً إلى صقلية فلقيتهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم الروم. (٤٧) ولعل عبدالله بن عقبة بن نافع الفهري كان على رأس هذه الحملة، وفي رواية أخرى كان على جيش البحر (الأسطول) عبد الرحمن بن معاوية بن حديج . (٤٨) وتولى إفريقية لهشام بن عبد الملك سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ مـ، عبيدة بن عبد الرحمن الذكوني من بنى سليم، فوجّه عثمان بن أبي عبيدة على سبعمائة، فقصد سراقوس ، مدينة صقلية ، فلقوه ، فأسر بطريق الروم، وهزمهم. (٤٩) وفي سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ مـ، كان على جيش البحر (الأسطول) عبدالله بن أبي مريم. (٥٠) كما أغزى عبيدة بن عبد الرحمن (والى إفريقية) في هذه السنة المستير بن الحارث في ثمانين ومائة مركباً ، فحاصر الروم في البحر ، فهاجم الشتاء، وجاءت ريح عاصف ، فغرقت مراكبهم، فلم يسلم منهم إلا سبعة عشر مركباً. (٥١) وقام والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ مـ، بتوجيه ثابت بن خثيم من أهل الأردن، لغزو صقلية، فأصاب سبايا وغنائم، وسلم، (٥٢) كما وجه أيضاً في سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ مـ، من إفريقية

(٤٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٣٨ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .

(٤٧) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٤٨) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٦ ، ٥٤ .

(٤٩) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤٠ .

(٥٠) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٦٧ ، و ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

(٥١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤١ ، و الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٧ ، ص ٣٠٣ .

(٥٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤٣ .

القائد البحري عبد الله بن قطن، فهاجم صقلية ، فغنم وسلم ، كما أغزى أيضاً عمراً الهذلي، فغنم وسلم . (٥٣) وكذلك في سنة ١٤١٤هـ / ٧٣٢م، قام والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن بتوجيه عبد الله بن قطن أيضاً لغزو صقلية، فغنم وسلم، كما وجه عبدالله بن زياد الأنصاري لغزو سردينية، فغنم وسلم.(٥٤) وفي سنة ١١٥٥هـ / ٧٣٣م، وجه والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن أيضاً بكر بن سويد ، فغزا صقلية ودريانة، فلقيه الروم فرموا مراكبه بالنار. (٥٥) ومع تسلم والي إفريقية الجديد عبيدة بن الحجاج قام في سنة ١١٦٤هـ / ٧٣٤م، بتوجيه عثمان بن أبي عبيدة لغزو صقلية، فأصاب منها وقتل، فلقيتهم مراكب الروم في البحر، فهزّهم الله، وأصابوا من المسلمين، وأسرّوا ابني عثمان عمرًا وسيطمان أباً الربيع، وعبد الرحمن بن زياد، وابن أنعم ، وأخاه المغيرة بن زياد ، فلم يزالوا في أيدي الروم حتى ولّ عبد الرحمن بن حبيب ، فدُنى ابني عمه وناساً من أسرى المسلمين، وعبد الله بن زياد، وذلك سنة ١٢١٤هـ / ٧٣٨م، بعد أن قضوا في الأسر خمس سنين. (٥٦) ثم أُرسل عبيد الله بن الحجاج (والي إفريقية) سنة ١١٧٥هـ / ٧٣٥م، حملة بحرية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة، لغزو جزيرة سردينية ، فأصاب قرية منها، وأثخن في القتل فيهم، وكذلك السبي. (٥٧) ثم قام عبيد الله بن الحجاج (والي إفريقية) سنة ١١٨٦هـ / ٧٣٦م، بتوجيه قثم بن عوانة الكلبي لغزو صقلية ، فأصاب أولية من صقلية، وأحاط به الروم ، ثم فكوا عنه الحصار. (٥٨) كما قام والي إفريقية عبيد الله بن الحجاج في

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

(٥٤) نفسه ، ص ٣٤٥ . المصدر

٣٤٧ ص ، نفسه ، المُصْدَر (٥٥)

^{٥٦} المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ ، وانظر : الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٧ ، ص ٣١١ .

^{٥٧} خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤٨.

المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ (٥٨)

سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م، بتوجيه قثم بن عوانة أيضاً ليعزو جزيرة سردينية في البحر، فأصاب قلعة من جزيرة سردينية، ولكنه غرق في مراكب من المسلمين، وسلم بعضهم. (٥٩) ويدرك خليفة بن خياط أن الغزو في البحر من إفريقيا كان قد توقف في سنة ٧٣٩ هـ / ١٢٢ م. (٦٠) ولكن الغزو في البحر من إفريقيا استئنف في سنة ٧٤٢ هـ / ١٢٥ م، إذ وجه والي إفريقيا عبيد الله بن الحباب، القائد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري لغزو صقلية، ويدرك أنه ظفر ظفراً ما سمع بمثله، وسار حتى نزل على أكبر مداين صقلية، وهي مدينة سرقوسة. (٦١) وفي سنة ٧٤٢ هـ / ١٢٥ م، أغزي الخليفة الوليد بن يزيد أخيه الغمر بن يزيد بن عبد الملك، فأمر على جيش البحر (الأسطول) الأسود بن بلال المحاري، وأمره أن يسير إلى قبرص. (٦٢) وفي أواخر العهد الأموي، ومع هروب واحتقاء آخر خليفة أموي، وهو مروان بن محمد سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٢ م، قام أبو العباس السفاح العباسي، بتوجيه صالح بن علي في طلب مروان بن محمد، والقبض عليه، فسار، فنزل الرملة، ثم سار فنزل البحر، وجمع صالح بن علي السفن، وتجهز بريد مروان وهو بالفرماء، فسار على الساحل والسفن بمحاذاته في البحر حتى نزل العريش. (٦٣)

(٥٩) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤٩ . وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهدة ، ج ١ ، ٢٨٣ .

(٦٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٥٠ .

(٦١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهدة ، ج ١ ، ص ٢٨٨ ، وانظر : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٥٣ ، والذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٨ ، ص ٨ .

(٦٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ ، وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٣١٨ .

(٦٣) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٤٠ .

ثالثاً: الموانئ ودور الصناعة: عندما افتتح المسلمون بلاد الشام ومصر كان لهذه البلاد موانئ حربية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فاعتمد العرب المسلمون على هذه الموانئ في نشاطهم البحري مثل موانئ : عكا وصور وصیدا وطرابلس وبيروت واللاذقية وجبيل وعسقلان وغزة على سواحل بلاد الشام، ثم الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وتيس وبرقة على سواحل مصر تلك الموانئ التي تم تحسينها وحمايتها وحراستها وشحنها بالمقاتلة، وذلك منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وواليه على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان. (٦٤) وأشار البلاذري إلى ذلك إذ قال: فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجندي، فإن حدث شيء فيها من قبل العدو سرّبوا إليها الإمداد (٦٥) أما دور صناعة السفن فيمكن الإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أمر بجمع الصناع من النجارين فتم جمعهم ، ورتبهم في السواحل الشامية، وجعل مقر دار صناعة السفن في بلاد الشام هي عكا (وهي المدينة ذات الحصانة زمن الأمويين) جعلها معاوية دار صناعة للسفن في بلاد الشام ، بدلاً من الاعتماد على دار الصناعة في مصر وحدها . (٦٦) ثم صور قال الواقدي: " لم تزل المراكب بعكا حتى ولـي مروان (بن الحكم) فنقلوها إلى صور" ، ولذلك كان ميناً صور

(٦٤) البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١٥٢ ، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٧ ، ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ص ٢٠٠ .

(٦٥) البلاذري، فتوح البلدان ، ص ص ٣٤ ، وانظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٦٨ .

(٦٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ ، ١٦١ ، : السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٩ .

دارا لصناعة السفن والتي استمرت إلى ما بعد العصر الأموي. (٦٧) ثم الإسكندرية وبها دار لصناعة السفن منذ عهد البطالمة والبيزنطيين ، فكانت تصنع سفناً تجارية وحربية، وتحمل المنجنيق وألات قذف الحجارة ، والنيران ، ثم بعد الفتح الإسلامي لمصر كانت الإسكندرية من الموانئ التي تصنع السفن الحربية ، وخاصة بعد أن تولاهَا والي مصر الثاني المعروف عبدالله بن سعد بن أبي سرح . ثم دار صناعة الروضة، إذ أمر معاوية بن أبي سفيان في سنة ٥٥٤هـ/١٢٣م بإنشاء دار صناعة للأساطيل وصناعة السفن الحربية، وذلك في عهد واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، فكان مقر دار الصناعة هذه في جزيرة الروضة التي عرفت باسم "صناعة الروضة" (٦٨) ثم برقة (وبها دار لصناعة السفن منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان). (٦٩) ثم تونس (كانت بها دار لصناعة السفن ، تمكنت فيما بعد من صناعة ما يكفيها من السفن لتغزو بها البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط وجزره صقلية وغيرها)، (٧٠) فكان والي إفريقية حسان بن النعمان قد تولى لعبد الملك بن مروان سنة ٦٩٧هـ/١٢٨م، قد أنشأ بفناه قرطاجنة دار

(٦٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٥ ، ١٦١ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ،
وانظر : محمد المناصير ، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص ٣٠٤ ، وعلى الصالabi
، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ .

(٦٨) انظر: سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣١٣ ، و: السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار
العابدي تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٤٤ – ٤٦ ، وجمال الدين الشيشاني ، تاريخ مدينة الإسكندرية، دار
المعارف ، القاهرة (د. ت) ص ٣٧ . و علي الصالabi ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ .

(٦٩) ابن خلدون، (العبر) تاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، والمقرizi ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، وانظر :
ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص ٢٠٧ .

(٧٠) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العابدي تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس،
ص ٤٤ – ٤٦ .

صناعة لبناء السفن والأساطيل، وجلب لها الصناع من مصر، وعدهم ألف صانع ماهر من بناء السفن مع عائلاتهم لبناء الأسطول في موضع مدينة تونس الحالية في شمال إفريقيا. (٧١) ويظهر أن أول أسطول عربي تم بناؤه كان في زمان الخليفة عثمان بن عفان، على يد واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، إذ أنشأ السفن والشواطيء ليغزو بها في البحر المتوسط ضد البيزنطيين، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر للخليفة معاوية بن أبي سفيان، هو الذي بدأ ببناء نواة الأسطول المصري في العصر الإسلامي، لأن مصر كما هو معروف كانت معروفة بمهرة صناع السفن، وكثرة دور الصناعة، إذ زود السواحل والتغور الشامي بالسفن ، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يستجلب الأخشاب من غابات الأرز من بلاد الشام لصناعة السفن الحربية للدفاع عن سواحل الشام ومصر، وظلت مصر تمد الأساطيل الإسلامية حتى سنة ٦٤٨هـ/٦٦٩م إلى أن كثرت غارات الروم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فتم إنشاء دور لصناعة السفن في سواحل الشام (لتوفير الأخشاب في بلاد الشام) إلى جانب دور الصناعة بمصر، زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان، فتم إنشاء السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤمن، والعتاد. (٧٢) ويشير أرشيبالد إلى أن هناك ثلاثة

(٧١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ ، وانظر : أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، وطاهر حبوش ، أوائل العرب عبر العصور (العصر الذهبي)، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(٧٢) البلاذري، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ ، وانظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٠٠ ، و: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٧ - ١٨ .

أساطيل قد تكونت وتشكلت في نهاية المطاف منذ بوادر العهد الأموي في صراعهم مع البيزنطيين، وهي: الأسطول الشامي، والأسطول المصري، والأسطول الإفريقي، ويدرك أن الأسطول المصري والأسطول الشامي كانوا أكثر تعاوناً وتشاركاً في النزاع ضد البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط، إلا إن الأسطول الإفريقي كان مستقلاً بعملياته عنهما في نزاعه مع البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط. (٧٣) أما أعداد السفن التي تم ذكرها واستخدامها في الحروب البحرية، فيشار إلى أن معاوية كان قد ركب البحر من عكا، ومعه مراكب كثيرة، عندما سار لفتح قبرص سنة ٦٤٨هـ / ٢٤٤م، (٧٤) وتذكر المصادر الأجنبية مثل سيببيوس، أن عدد السفن التي غزا بها معاوية بيزنطة (عدد السفن الكبرى ثلاثة، كل منها يحمل ألف رجل، وعدد الطرادات خمسة آلاف كل منها يحمل مائة رجل، وأن هذه السفن كانت مزودة بالآلات القذف التي تتكون من المجانيف والآلات رمي الحجارة وبالأبراج العالية التي تستعمل في تسور صرح الأسوار المحسنة) (٧٥) وكان عدد المراكب التي غزا بها معاوية بن حديج صقلية في حدود سنة ٦٤٦هـ / ٢٦٦م، حوالي مائتا مركب (٧٦).

(٧٣) أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٧٤) الواقدي ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ ، والبلازري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٠ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٧٥) سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣١٣ .

(٧٦) البلازري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ، وانظر: علي الصلايبي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٣٨٠ ، وشكري فيصل ، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري ، ص ١٦١ .

ويذكر أن عدد المراكب التي حاصرت القسطنطينية سنة ٩٦٧هـ / ١٦٧٦ م زمن الخليفة

سليمان بن عبد الملك بلغت ألف مركب.^(٧٧)

كما يذكر أنه في سنة ١١١هـ / ١٧٢٩ م، غزا القائد البحري المستير بن الحارث

الروم في البحر، وحاصرهم بثمانين ومائة مركب.^(٧٨)

وهكذا، فإن الأمثلة التي أورتها المصادر حول أعداد السفن التي حاربت الروم خلال العهد الأموي، ما هي إلا إشارات أولية للأعداد الكبيرة للسفن الحربية التي تم صنعها ليؤثروا بذلك هذا التأثير الكبير على سيادتهم للبحر الأبيض المتوسط، والسيطرة على عدد من الجزر فيه.

رابعاً : أنواع السفن:

أشار البلذري في كتابه "فتح البلدان" إلى ما استخدمه العرب في حروبهم البحرية إلى كلمة "مراكب" قال في معرض حديثه عن غزو معاوية لقبرص في المرة الأولى "فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة سنة ٢٨ هجرية"^(٧٩) وفي الغزوة الثانية سنة ٣٣هـ قال البلذري "غراهم معاوية في خمسمائة مركب"^(٨٠)، ولكن عندما غزا طارق بن زياد الأندلس سنة ٩٢هـ أشار البلذري إلى كلمة "السفن" إذ

^(٧٧) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣١٥ ، والذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ .

^(٧٨) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤١ .

^(٧٩) البلذري ، فتح البلدان ، ص ٢٠٨ . وانظر : محمد الحموي ، تاريخ الأسطول العربي ، ص ٤ .

^(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . وانظر خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤١ .

قال : حمله وأصحابه إلى الأندلس في السفن "(٨١)" ونقل البلاذري عن الواقدي قال "لم تزل المراكب بعكا حتى ولی بنو مروان فنقولوها إلى صور" (٨٢) .
ويُعرّف درویش النخلی فی كتابه السفن الإسلامية علی حروف المعجم "المركب" قال : "الجمع مراكب ویقال مركب للسفينة استعمله الناس" (٨٣) .
ويذكر أحمد الشامي فی بحثه : "العرب وصناعة السفن " أن العرب ركبوا البحر وعرفوا صناعة السفن منذ عصور موجلة في التاريخ عندما اهتمى الإنسان إلى شق مياه البحار باستخدام المركب ذي الصاري والشراع .. وأن العرب اقتصرت معرفتهم على المراكب المدنية منذ عصور ما قبل الإسلام أن معرفتهم مراكب الحرب والقتال (الأسطول) تمت في عصر صدر الإسلام في عهد الخليفة عثمان بن عفان" (٨٤) ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى أن العرب كانوا قد أنشئوا في البحر المتوسط " السفن والشوانی وشحنا الأساطيل بالرجال والسلاح" (٨٥) ، ولذلك كانت الشوانی هي أقدم أنواع السفن الحربية التي عرفها المسلمون والتي اهتموا بصناعتها وأكثروا من تعدادها فكانت أهم القطع لديهم في حروبهم في البحر المتوسط في القرون الأولى من الإسلام (٨٦) .

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٢٣

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١.

(٨٣) درویش النخلی ، السفن الإسلامية علی حروف المعجم ، ص ١٤٠ .

(٨٤) أحمد الشامي "العرب وصناعة السفن" ، كتاب الحضارة الإسلامية وعالم البحار ، اتحاد المرخين العرب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، م ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٨٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٨ .

(٨٦) انظر : محمد الحموي ، تاريخ الأسطول العربي ، ص ٥٦ .

ويشار إلى الشاني أو الشيني أو الشوني بأنها سفينه حربية كبيرة وهي أهم قطع الأسطول الحربي في الدولة الإسلامية وهي أصل للسفن الحربية الأخرى مثل الغراب والطريدة والجفنة والحرقة؛ لأن هذه السفن أصغر من الشيني التي تسير بمائة وأربعين مجدافاً وفيها ما يقرب من ١٥٠ مقاتلاً عدا من يعملون على المجاديف^(٨٧).

وبعد الاطلاع على ما كتبه الباحثون حول السفن الإسلامية والأسطول الإسلامي الحربي فلم نجد عندهم تحديداً لأسماء أنواع السفن الحربية في العصر الأموي إذ طالعنا في هذا الباب ما كتب عند: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ومحمد الحموي: تاريخ الأسطول العربي، وأحمد الشامي: بحث: "العرب وصناعة السفن" ، ودرويش النحيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، وغيرها .. ولذلك نشير إلى ما ذكره كل من البلذري وخليفة بن خياط اللذين ذكرا كلمة " مراكب " كثيراً في روایاتهم حول الأسطول البحري في زمن الأمويين ، وأحياناً تذكر كلمة " السفن " للدلالة على السفن الحربية في مواجهة أسطول الروم في البحر المتوسط .

خامساً: القادة البحريون:

اشتهر عدد من القادة البحريون الذين قادوا الحملات البحرية (الصوائف والشواتي) ضد الروم في البحر الأبيض المتوسط ، ابتداءً منذ أول تماس عسكري

^(٨٧) أحمد الشامي، بحث : "العرب وصناعة السفن" مرجع سابق ، ص ١٥٨.

بحري بين المسلمين والبيزنطيين ، فيذكر الطبرى أن قائد الحملة البحرية ، كان يحمل لقب "صاحب البحر" وذلك في الرواية الخاصة بأسر الروم للقائد البحري خالد بن كيسان (صاحب البحر) في حوادث سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م، (٨٨) وكان يطلق على المقاتلة في البحر "جيش البحر" كما ورد في رواية في حوادث سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م، بعبارة "وأمر على جيش البحر الأسود بن بلل المحاري" (٨٩).

ومن هؤلاء القادة البحريين: عبد الله بن قيس الحارثي، حليف بنى فزارة، الذى استعمله معاوية على البحر زمن الخليفة عثمان بن عفان (٩٠) وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، الذى كان على أسطول مصر ، زمن الخليفة عثمان ، وشارك فى معركة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م، (٩١) وبسر بن أبي أرطأة (٩٢) ومعاوية بن حدیج (٩٣) وعقبة بن عامر (٩٤) ومالك بن ومالك بن هبيرة السكوني (٩٥) وعقبة بن نافع الجهنمي . (٩٦) ويزيد بن شجرة الراهاوى (٩٧) وفضالة بن عبيد (٩٨) وجنادة بن

(٨٨) انظر: الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ .

(٨٩) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ ، وانظر : ص ٦٧ .

(٩٠) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٥١ - ٥٣ ، و البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٥٩ ، ١٦١ .

(٩١) انظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٩١ ، والذهبى ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٠ .

(٩٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٤ ، وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٨٥ .

(٩٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٩٤) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٩٥) الطبرى ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣١ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ٣٠١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

أبي أمية الأزدي (٩٩) ومسلمة بن مخلد، (١٠٠) وعمرو بن يزيد الجهنمي، (١٠١) وعلقمة بن جنادة الحجري، وعلقمة بن الأختم، (١٠٢) وعبد الرحمن بن أبي الكنود، (١٠٣) وعطاء بن رافع وعمران بن شراحيل، (١٠٤) والمغيرة بن أبي بردة العبدى، (١٠٥) وموسى بن نصیر وأبنته عبد الله بن موسى، (١٠٦) وعبد الله بن حذيفة الأزدي، (١٠٧) ومسلمة بن عبد الملك، (١٠٨) وخالد بن كيسان، (١٠٩) وطارق بن زياد، (١١٠) والعباس بن الوليد، (١١١) وعمر بن هبيرة الفزارى، (١١٢) ومحمد بن أوس الأنصارى، (١١٣) ويزيد بن مسروق اليحصبي، (١١٤) وعمر بن فاتك الكلبى، (١١٥) ومحمد بن أبي بكر مولى بنى جمح (١١٦) ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، (١١٧)

- (٩٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
- (١٠٠) بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ١٣٣ .
- (١٠١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
- (١٠٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٤٢٧ .
- (١٠٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
- (١٠٤) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ١٨ .
- (١٠٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٩٢ .
- (١٠٦) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ ، و خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٠ .
- (١٠٧) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٠ .
- (١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .
- (١٠٩) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .
- (١١٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٤ ، وانظر :ا بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- (١١١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٦ ، و الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ٢٦١ .
- (١١٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٤ .
- (١١٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٦ .
- (١١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .
- (١١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .
- (١١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

وقثم بن عوانة الكلبي،^(١١٨) وحسان بن محمد بن أبي بكر مولى بنى جمح،^(١١٩) وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج،^(١٢٠) وعثمان بن أبي عبيدة،^(١٢١) وعبد الله بن أبي مريم،^(١٢٢) والمستير بن الحارث،^(١٢٣) وثبت بن خثيم،^(١٢٤) وعبد الملك أو عبد الله بن قطن،^(١٢٥) وبكر بن سويد،^(١٢٦) وحبيب بن أبي عبيدة، بن عقبة الفهري،^(١٢٧) والغمر بن عبد الملك،^(١٢٨). وهكذا فإن المصادر تشير إلى ثلاثة وأربعين قائداً بحرياً (صاحب بحر) كانوا على رأس الحملات البحرية التي كانت موجهة ضد البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط وسواحله.

(١١٧) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٠ ، و ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(١١٨) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٩ .

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٦ ، ٥٤ .

(١٢١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

(١٢٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٢٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤١ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ .

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

(١٢٦) الطبرى ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .

(١٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، و ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

سادساً: الخاتمة: ناقش هذا البحث موضوع "الأمويون والبحر الأبيض المتوسط" وتبيّن أن هناك جملة من النتائج أهمها: - كان لفتح العرب لبلاد الشام ومصر ابتداءً تحدياً كبيراً لهم بسبب تفوق البيزنطيين في البحر، ولكن سرعان ما اتّخذ العرب المسلمون قرارهم بالتصدي لهذا الخطر، فأنشئوا الأسطول البحري من ذِرْعِ الخليفة عثمان بن عفان، وعلى يد واليه على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان .

تم بناء دور للصناعة منذ البدايات في الإسكندرية، وعكا، وصور، وجزيرة الروضة، وبرقة، وقرطاج، وتونس، حتى أصبح الأسطول الإسلامي منافساً قوياً و وسيطراً على معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط .

- تأسست ثلاثة أسطولات لل المسلمين في البحر الأبيض المتوسط في العصر الأموي وهي: الأسطول الشامي، والأسطول المصري، والأسطول الإفريقي، وكان الأسطولان الشامي والمصري متعاونين مع بعضهما البعض للتصدي للأسطول البيزنطي في سواحل بلاد الشام ومصر، وفي عرض البحر الأبيض المتوسط، أما الأسطول الإفريقي فكان يعمل ضد البحريّة البيزنطيّة في البحر المتوسط وجزره مستقلاً عن الأسطولين الشامي والمصري، وذلك بعد تاريخ ٧٠٥هـ/١٧٨م، زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية .

- هزم الأسطول الإسلامي الأسطول البيزنطي في أكثر من معركة بحرية منها على سبيل المثال: معركة ذات الصواري ٥٣٤هـ/١٦٥م، ومحاصرة القسطنطينية سنة ٩٦٥هـ/١١٦م، وغزو جزيرة قبرص ٦٤٨هـ/١٤٦م، وجزر سريلانكا، وصقلية، وأروداد، وغيرها من الجزر التي كانت تابعة للروم، وتوجت الحملات البحرية بفتح الأندلس سنة ٩٢٥هـ/١٧١٠م .

- إن الغزوات البحرية لم تتوقف طيلة العصر الأموي، فكانت سنوية ضد البيزنطيين في البحر المتوسط فيما كان يعرف ب (الشواطي والصوائف) أي الغارات البحرية الشتوية والصيفية ، وذلك من أجل إضعاف القوة البحرية البيزنطية، وحماية سواحل بلاد الشام ومصر والشمال الإفريقي ، التابع للدولة الأموية في ذلك الوقت.
- اشتهر عدد كبير من القادة البحريين الذين كانوا على رأس الحملات البحرية ضد البيزنطيين في البحر المتوسط، وقد أحصينا ٤٣ قائدا بحريا، قاموا بغزو الروم في العصر الأموي، ويطلق على الواحد منهم (صاحب البحر) وعلى المقاتلة (جيش البحر) كما ورد ذلك في كتاب تاريخ الطبرى ، في أكثر من رواية.
- أشار كل من خليفة بن خياط، والبلاذري إلى ذكر كلمة (مراكب) و(سفن) إلى القطع البحرية الإسلامية المشاركة في الحروب مع الروم في البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).
- كان الالتحاق بالبحرية الإسلامية اختيارياً وتطوعياً، وليس إجبارياً وتنظيمياً، في بداية الأمر، ثم أصبح فيما بعد منظماً، ويبدو أن (جيش البحر) كان زمن الأمويين يتبع إلى ديوان الجندي بعد التوسيع في تأسيس الأسطول، ودور صناعة السفن، لصد الخطر البيزنطي الماثل آنذاك في البحر الأبيض المتوسط .

سابعاً : المصادر والمراجع :

المصادر :

- ١ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، ١١ ج، تحقيق: أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ٢ - البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله الطباع، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.
- ٣ - ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩ م.
- ٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله الدرويش، ط١، دار العرب، دمشق، ٢٠٠٤ م.
- ٥ - ابن خلدون، (العبر) : تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣ م.
- ٦ - خليفة بن خياط، (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم العمري، ط٢، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٧ م.
- ٧ - الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) تاريخ الإسلام، تحقيق عبد السلام تدمري، ط٢، دار الناشر العربي، ١٩٩٠.
- ٨ - وأبو زرعة الدمشقي (عبد الرحمن بن عمر) : (ت ٩٤٥ هـ / ٥٢٨١ م) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- ٩ - الطبرى (محمد بن جرير) (ت ٩٢٣ هـ / ٥٣١ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١١ ج، دار المعرفة، ط٢، مصر، ١٩٦٧ م.
- ١٠ - ابن عبد الحكم (ت ٩٢٥ هـ / ٨٧٠ م) فتوح مصر، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١ م.

المراجع:

- ١ - إبراهيم العدوى، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، الفجالة

- ٢ - إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية)، مكتبة الانجلو المصرية، (د . ت) .
- ٣- أحمد الشامي: بحث: "العرب وصناعة السفن " كتاب : الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٤م.ص ١٣٥ - ١٦٢ .
- ٤ - أرشيبالد ب. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠م، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).
- ٥ - : أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٠ ..
- ٦ - جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة (د . ت) .
- ٧ - حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة ، ط ١ ، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٨ - سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقة، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، القاهرة ، ١٩٦٧ ، (المقدمة) .
- ٩ - سعد المؤمني ، القلاع الإسلامية في الأردن في العصور الأيوبي والمملوكي ، دار الشير ، ط ١ ، عمان ، ٢٠٠٨ م .
- ١٠ - السيد عبد العزيز سالم، واحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م .
- ١١ - شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري.
- ١٢ - طاهر حبوش، أوائل العرب عبر العصور (العصر الأموي)، بغداد، ١٩٩١م.
- ١٣ - علي الصلاي، معاوية بن أبي سفيان، مكتبة الإيمان، المنصورة، (د. ت).

- ١٤ - فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتلال العربي والاتصال الحضاري، (*الكتاب الثاني في التاريخ العربي*)، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ١٥ - محمد الحموي، *تاريخ الأسطول العربي*، نشر فؤاد هاشم الكتبى، دمشق، ١٩٤٥ م.
- ١٦ - محمد المناصير، *الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول*، مجذلوي، ط١، دار عمان، ٢٠٠٠ م.
- ١٧ - نبيه عاقل، *تاريخ خلافة بنى أمية*، دار الفكر، ط٣، دمشق ، ١٩٧٥ .



”أثر العواصف على نتائج المعارك بدول حوض البحر المتوسط الإسلامية منذ القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري“

د. عبدالله أحمد همام

باحث

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوعاً في غاية الخطورة، حيث أثرت العواصف في نتائج المعارك البرية والبحرية تأثيراً واضحاً سواء بالسلب أم بالإيجاب لما تحدثه تلك العواصف من تدمير مقومات الجيوش سواء البشرية أم المعدات والأسلحة والسفن؛ ف تكون بذلك العامل المسؤول عن الهزيمة أو الانتصار في المعارك.

وكانت العواصف تحول دون الإغارة على سواحل دول البحر المتوسط الإسلامية، بل وتنسب في تدمير الأسطول المعادي وتنفذه بعيداً عن السواحل، كما تسببت تلك العواصف في عرقلة ومنع الإمدادات العسكرية للوصول إلى السواحل خاصة في المعارك البحرية.

ومن ناحية أخرى، كانت العواصف أخطر من مواجهة الأعداء، لقدرتها على إلحاق الهزيمة بالجيوش في المعارك البرية، نتيجة لما تثيره من الأتربة الكثيفة التي تحجب الرؤية، وتتسبب في انهزام الجنود نتيجة انتشار الفوضى في الصفوف، وانعدام الرؤية.

وظهر من خلال الدراسة أنَّ العواصف من أشد العوامل قسوة، وأدت إلى استسلام المدن والمحصون، ولاسيما في حالات الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين المدافعين عن المدن على الاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع، وخاصة حين تزداد شدة تلك العواصف نتيجة ما يلحقها من هبوط الأمطار وغيرها.

ومثلت العواصف أحد المعوقات التي قبضت على جهود القادة في إعداد الأسطولين البحريين لما تحدثه من الدمار الشامل بالمرالك والسفن العسكرية أثناء استعداداتها للإقلاع مما يؤدي إلى إلحاق الهزيمة بالأسطول قبل إقلاعه.

الكلمات المفتاحية: أثر العواصف، المعارك البرية، المعارك البحرية.



ملخص البحث باللغة الإنجليزية

Abstract:

Storms had affected the results of naval and land battles whether positively or negatively due to the drastic impact of these storms on the resources and the fundamentals of armies such as human resources, equipment, weapons, and ships. Thus, it is considered as the responsible factor for loss or victory in battlefield.

Besides, it caused serious destruction to the fleets of enemies, storms were effective in preventing raiding the coasts of the Muslim Mediterranean countries. These storms, then, obstructed the arrival of military supplies to the concerned coasts during naval battles.

Moreover, storms were more dangerous than facing enemies for their ability to cause the defeat of certain armies in battlefield due to the dust they raise blurring vision and causing chaos among soldiers.

This study reveals that one of the factors that forced the defenders of sieged cities and forts to surrender was storms. Storms and rain that accompany them made it difficult for the solders to defend their cities or forts.

Storms undermined the commanders' efforts in preparing the naval fleets, as they caused massive damage to the military vessels and ships during their preparations for war, which would lead to the defeat of the fleet before it took off.



المقدمة:

يرصد البحث أثر العواصف على نتائج المعارك، حيث لعبت العواصف دوراً مهماً في نتائج المعارك البرية والبحرية سواء بالسلب أم الإيجاب، لما أحاثته من تدمير مقومات الجيوش، سواء البشرية أم المعدات والأسلحة والسفن، ف تكون بذلك العامل المسؤول عن الهزيمة أو الانتصار في المعارك.

وازداد خطر العواصف العاتية في أحداث المعارك البحرية بين المسلمين والصلبيين في بلاد الشام ومصر، حيث لعبت الرياح دوراً مهماً في حماية السواحل بالبلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط من الغارات المفاجئة التي كانت تشنها الأساطيل الصليبية من حين لآخر على السواحل الإسلامية، فكانت تتعرض لهزائم ساحقة دون تدخل من الجيوش الإسلامية لحماية سواحلها في بعض الأحيان؛ نتيجة تحطم سفن تلك الأساطيل بفعل الرياح ووقوعها طاقمها بين قتلى وأسرى.

كما أعطت تلك الرياح الفرصة في بعض الأحداث الأخرى للمدافعين عن المدن المحاصرة في اتخاذ كافة الاستعدادات الحربية لالتقاط أنفاسهم وتوحيد صفوفهم نتيجة انشغال المهاجمين بتداعيات وأثار العواصف وما تلحقه بهم من تدمير معداتهم، فيقهرونون أيامًا لحين هدوء الأجواء الجوية وتقديمًا لحدث أية خسائر فادحة سواء بشرية أم مادية.

وظهرت آثار العواصف في نتائج المعارك البرية والبحرية وانتصار أحد طرفي المعركة دون الآخر بفعل الرياح، وما أوقعته من تدمير في الطرف المنهزم، وعلى الجانب الآخر يحقق الطرف المنتصر مكاسب مادية ومعنوية دون عنااء يذكر في بعض الأحيان بمجرد جمع الغنائم وتتبع فلول المنهزمين الذين يقعون بين قتلى وأسرى في أيديهم.

أهداف البحث: يمكن تلخيص أهداف البحث فيما يلي:

- التعريف بالرياح العاتية من حيث: أثرها على شتى مناطق البحر المتوسط الشرقية، والجنوبية، والغربية.
- تسليط الضوء على العواصف التي كانت تتعرض لها بلاد حوض البحر المتوسط وأثرها على المعارك سواء البرية أو البحرية.
- توضيح الآثار التدميرية الناجمة عن العواصف في المعارك سواء الخسائر البشرية أم المادية.



أهمية البحث:-

يكتسب موضوع البحث أهمية متزايدة بسبب ما كانت تسببه العواصف من خسائر فادحة في أرواح الجنود والتدمير الكامل لمقومات الجيش، فيترتب عن هذه انتصار الجيش الإسلامي أو وهزائم الساحقة التي يتعرض لها جيش أعدائه بفعل الآثار الناجمة عن العواصف من تدمير الأسطول البحري أو إثارة الأتربة في المعارك البرية.

فقد كانت الكوارث الناجمة عن العواصف أكبر الأسباب التي تحكمت في بعض المعارك البرية والبحرية خاصة في حماية سواحل البلاد الإسلامية في حوض البحر المتوسط من الغارات المباغطة من الأسطول البحري العدائي، وكانت العواصف تؤدي إلى تحطم السفن ووقوع طاقمها من الرجال بين قتل أو أسرى في أيدي جنود البلاد الإسلامية وغيرها من الخسائر المادية الفادحة التي تكبّتها الجيوش المعادية في المعدات والسفين.

مشكلة البحث:-

من خلال ما سبق ذكره من أهمية البحث، وحتى نتمكن من تحقيق أهداف البحث، تتضح مشكلة البحث من خلال السؤال الرئيس التالي: ما هي آثار العواصف على المعارك البرية والبحرية وكيفية استفادة الجيوش الإسلامية منها في بلاد حوض البحر المتوسط وأثرها في خط سير الأحداث بعد تلك المعارك؟

منهج البحث:-

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي في هذه الدراسة، حيث قام بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بشكل يخدم موضوع الدراسة في حرصه حتى لا يخلط من أحداثها المتشابهة والمتباعدة، وإبراز الآثار التدميرية الناجمة عن العواصف، وما تلّحّقه من خسائر بشرية ومادية، ومدى أثر ذلك في نتائج المعارك البرية والبحرية.

أقسام البحث: للإمام بمختلف جوانب الموضوع، تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور:

أولاً: أثر العواصف على نتائج المعارك شرق البحر المتوسط بمصر والشام.

ثانياً: أثر العواصف على نتائج المعارك جنوب البحر المتوسط (شمال إفريقيا).

ثالثاً: أثر العواصف على نتائج المعارك غرب البحر المتوسط (شرق سواحل الأندلس).



وفيما يلي، تناول محاور البحث بالتفصيل:

المحور الأول: أثر العواصف على نتائج المعارك شرق البحر المتوسط بمصر

والشام:-

في الحقيقة، ساعدت العواصف الشديدة بسواحل البحر المتوسط في حمايتها من الإغارات المباغضة التي كانت تعزز لها منذ الخلافة الراشدة وصراعها مع الإمبراطورية البيزنطية، فمثلت العواصف درعاً طبيعياً لردع الأخطار الخارجية التي كانت تحدّق بالدولة الإسلامية منذ الخلافة الراشدة، ومن أشهر الأحداث التي لعبت فيه العواصف هذا الدور حين خرج الإمبراطور قسطنطين^(١) بن هرقل فاقداً الإسكندرية في ألف مركب مجهزة بالمقاتلة والسلاح، فأعترضت تلك الحملة رياح عاصفة أغرت معظمها ونجا قسطنطين بمركبه، فاتجه إلى صقلية^(٢) وقتل بها سنة ٥٣٥ هـ/٦٥٦ م^(٣).

وكان للرياح العاصفة أثر مهم في أحداث المعارك بين المسلمين والصلبيين ولاسيما البحرية منها، فكانت في بعض الحملات العسكرية تمثل ألد الأعداء للحملة أكثر من أعدائها لما تحققه تلك العواصف من خسائر بشرية ومادية للأسطول الإسلامية المقلعة دفاعاً عن سواحل بلاد الشام من هجوم الفرنج، فتصبح عاجزة عن مجابهة الفرنج؛ نتيجة لما لحق بها من دمار ووقوع بحارتها وجنودها بين غرقى أو قتلى وأسرى في أيدي أعدائها، كما حدث حين أرسل الوزير الفاطمي عيسى^(٤) بن نسطورس أسطولاً مكوناً من أربعة وعشرين مركباً تدعى لبني جونتين^(٥) وإلى دمشق لمجابهة الفرنج، وكان منازلاً لأنطرسوس^(٦)، إلا إن الأسطول تعرض لرياح شديدة عاصفة حطمت سفنه، ووقع البحارة والجنود بين غرقى، ومن نجا منهم إلى الساحل، أنقض عليهم أهل أنطرسوس وغنموا ما سلم من المراكب وأسرموا بحارتها وجنودها، وكان ذلك في عهد الخليفة العزيز بالله^(٧) الفاطمي سنة ٩٩٦ هـ/٨٣٨ م^(٨).

أما عن تأخر وصول الإمدادات العسكرية عن الأسطول المهاجمة على السواحل بسبب العواصف الشديدة، فقد كان من أخطر العوامل التي تؤدي إلى الهزيمة والانكسار في المعركة وبما مثلته من ناحية أخرى إتاحة الفرصة للطرف الثاني من المعركة في اتخاذ التدابير والاستعدادات اللازمة لمواجهة أعدائه، ومن أهم الأحداث التي كانت الرياح العاصفة ذات أثر



خطير في تأخر الإمدادات العسكرية حين اجتمعت القوات الرومية والصلبیة على شواطئ الشام في ٢٢ محرم ٥٦٥هـ/١٦٩٥م، وكان الأسطول الرومي قد أبحر قبل ذلك بعده أيام للهجوم على مصر^(١) التي كانت تمثل بوءة الخطر على الوجود الصلبیي في ذلك الوقت، بقيادة صلاح الدين^(٢) وزير مصر أواخر العصر الفاطمی، فاستطاع الجيش البری الوصول إلى دمیاط^(٣) في ٤ صفر ٥٦٥هـ/١٦٩٥م^(٤).

وفي أوائل صفر ٥٦٥هـ/أكتوبر ١٦٩٥م، بدأ حصار المدينة بينما لم يبدأ الهجوم^(٥)؛ نظراً لتأخر وصول إمداد الأسطول الرومية ثلاثة أيام، بسبب "هبوط رياح عاتية" عاقت حركتها، واضطر الأسطول الفرنجي الانتظار لحين استقرار الأمواج إلى أن وصل الأسطول بعد عدة أيام عند مدخل النهر^(٦)، هذا إلى جانب هطول الأمطار بشدة؛ بسبب هبوط الرياح العاتية، مما زاد من القلق والاضطراب في صفوف المعسكر الصلبیي، وأغرقت جميع خيام الصليبيين^(٧)، ومن ناحية أخرى، كان لتأخر الأسطول الرومي إتاحة الفرصة للمعسكر الإسلامی في اتخاذ التدابیر والاستعدادات العسكرية اللازمة لمواجهة الخطر الصلبیي الرومی، حيث أرسى إلیهـ صلاح الدين الجنود عبر النيل وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر إلى أن انتهت المعركة بهزيمة التحالف الصلبیي الرومی وانتصار المصريين^(٨).

وتوالت الهزائم على التحالف الصلبیي الرومی بفعل العواصف مجدداً؛ وبعد انتهاء المعركة بعقد معاهدة للسلام بين الجانبين الصلبیي والمصري بعد حصار الصليبيين والروم لمیاط لحوالي شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١٦٩٥م، تعرضت القوات الرومية لضربة قاسمة من الرياح العاتية التي هبت عند إبحار القوات أثناء العودة إلى بلادهم أدت إلى تحطم معظم قطع الأسطول، وقدرت بحطامها على الشاطئ حتى غرق كل شيء^(٩).

وكانت عواصف البحر المتوسط من أشد العرائيل التي كبدت الفرنج خسائر فادحة سواء البشرية أو المادية، من ذلك حين نقض الفرنج عهدهم بتعريضهم لسفن تجار بالبحر، هبت رياح عاتية لبطة^(١٠) عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من مدينة بوليه^(١١) قاصدة زيارة بيت المقدس، وكان على متها ألفان وخمسمائة نفس من وجهائهم وأبطالهم وأتباعهم، وألقتها العاصفة إلى ثغر لمیاط بعد أغرقـت معظم من عليها، وما تبقى منهم، وقعـوا أسرى في أيدي المسلمين، وكانوا زهاء ألف وستمائة وسبعين وأسيراً سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م^(١٢).



وبيدو أن العواصف والرياح العاتية كانت مصدراً من مصادر سوق الغنائم للمعسكر الإسلامي دون قتال أو عناء، من خلال سوقها للمراتب الفرنجية رغمَ عنها إلى السواحل الإسلامية والتي كانت قاصدة مدن الفرنج، فغمَ المسلمين غنائم كثيرة منها حين أُلقت الرياح بسفينتين خرجتا من عكا^(١) الفرنجية نحو بلاد الفرنج، فألقتها الرياح بساحل زيب^(٢) وكانتا محملتين بالرجال والصبيان والنساء وميرة عظيمة وغيرها من الغنائم الأخرى، فغمَ المسلمين بفضل الرياح دون عناء في رمضان سنة ٥٨٦هـ/أكتوبر ١١٩٠م^(٣).

وكدت العواصف الدول الإسلامية خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وصارت عائقاً حال دون وصول الإمدادات العسكرية المتمثلة في السفن المحملة بالمؤن للمدن الإسلامية المنكوبة بحصار الفرنج، وحاول المسلمين من خلالها إغاثة إخوانهم المحاصرين في يحيى يستطيعوا مواجهة أعدائهم أثناء الحصار، وهو ما حدث أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا؛ إذ أرسل السلطان صلاح الدين الأيوبى سبع سفن محملة بالإمدادات تعين أهل المدينة من مشقة الحصار، إلا أن شاء القدر عند اقتراب تلك السفن من الميناء، هبت ريح عاصف أدت إلى اصطدام بعضها البعض حتى دمرت وغرق ما كان فيها من الميرة^(٤) والبحارة، ووصف المؤرخون أن الميرة التي كانت بها تكفي أهل المدينة سنة كاملة، وذلك في الثاني من ذي الحجة ٥٨٦هـ/ديسمبر ١١٩٠م^(٥).

ولما علم الصليبيون ما حدث من انقلاب السفن، وغرق بحارتها، زحفوا نحو المدينة من جانب البر حتى قاربوا الأسوار وحاولوا التسلل عبر أجزاء الشقوق بالسور إلا إن أهل البلد أدركوهم وردوهم دون تحقيق أهدافهم من اختراق الأسوار^(٦).

وكما ألحقت العواصف الهزائم بالأساطيل الإسلامية أثناء الصراع مع الفرنج، فقد كدت الفرنج أيضاً خسائر بشرية ومادية فادحة، وكانت سبباً في إضعاف الفرنج المهاجمين على مدن السواحل الشامية وهزيمة بعض حملاتهم البحرية، نتيجة الدمار الذي تلحقه سفنهم ورجالهم كما فعلت بأسطول ابن ملك الألمان^(٧) الذي قصد مهاجمة عكا، إلا إنه حال بيته وبين تحقيق هدف حملته هبوب رياح عاصفة أهلكت من قوة حملته ثلاثة مركب بكلمة عدتها ورجالها مما كان له الأثر البالغ في تقليل قوة حملته البحرية، ولم يصل إلى عكا إلا بجمع يسير منها حتى مات بعكا في ١٢ ذي الحجة ٥٨٦هـ/٩ يناير ١١٩١م^(٨).



ولعبت الرياح العاصفة دوراً مهماً في أحداث المعارك بين المسلمين والصلبيين، ومثلت في بعض الأحيان درع حماية طبيعياً لمدن السواحل الإسلامية ضد غارات السفن الصليبية؛ إذ كانت هذه الرياح العاتية تجبر الصليبيين إلى إنفاذ سفنهم إلى الجزر القريبة بعيداً عن سواحل المدن الإسلامية التي تحاصرها أثناء العواصف حفاظاً عليها من الدمار وقتل بحارتها، واضطروا إلى الانسحاب والانتظار لحين توقفها وعادوا الكرة مرة أخرى في الحصار، كما حدث حين هبت الرياح العاصفة وهاج البحر على سفن الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا حتى دمرت بعضها بفعل تلك العواصف، فاضطروا إلى الانسحاب وإنفاذها إلى الجزر القريبة لحمايتها، وخلا البحر من مراكبهم بعد أن ضجر أهل البلد من طول الحصار سنة ١١٩٠هـ/٥٨٦م^(٢٩).

ومن المهاجمات التي ألحقتها العواصف العاتية بالحملات الصليبية الرامية إلى الإغارة على سواحل البلاد الشامية ما حدث للحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد التي تعرضت لهبوب رياح عاصفة أدت إلى تدمير معظم سفن الأسطول الذي كان مكوناً من خمس وعشرين سفينة، وأجبرته تلك العواصف وما أسفر عنها من دمار لحملته إلى الجنوح نحو قبرص^(٣٠) في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ١١٩١م/٥٨٧هـ^(٣١).

ومن الكوارث والخسائر الفادحة التي ألحقتها العواصف بالأساطيل الإسلامية أنها كانت تتسبب في إغراق وتدمير السفن وغرق عدد كبير من بحارتها حتى وصل الأمر إلى سقوط بعضهم أسري في أيدي أعدائهم كما هو الحال حين أعدّ السلطان الملك العادل^(٣٢) (ت: ١٢١٤هـ/٦١٤م) أسطولاً مكوناً من خمسة عشر شيئاً^(٣٣) فهبت رياح عاصفة على هذا الأسطول رمى بهم إلى طرف الصليبيين قرب مدينة طرابلس^(٣٤) فتسببت في إغراق تسعه سفن من الأسطول الإسلامي وألحق بسيبهما الهزيمة ووقوع الجند بين غرق وأسرى، ولم يسلم منه سوى ست سفن، وذلك سنة ١٢٠٥هـ/٦٠٢م^(٣٥).

وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس^(٣٦) (١٢٦٠هـ-١٢٧٦هـ) أثناء صراعه مع الفرنج ببلاد الشام، نجد أن العواصف أخفقت إحدى حملاته البحرية التي كانت تهدف للاستيلاء على جزيرة قبرص حين بلغه وهو مخيّم بحصن الأكراد خروج ملكها هيتو الثالث لوزجان بجيشه قاصداً عكا، فأراد السلطان بيبرس اغتنام الفرصة وأرسل حملة بحرية



كبيرة مكونة من سبعة عشر شيئاً لغزو جزيرة قبرس في غيبة ملوكها، ولما قاربت السفن سواحل المدينة، تعرضت لرياح عاصفة أدت إلى اصطدام بعضها ببعض حتى حطمت أحد عشر شيئاً وسقط بحارتها والجنود ما بين عرقى وأسرى في أيدي الفرنج ما بلغ عددهم ألف وثمانمائة سنة ١٢٧٠ هـ / م ٦٦٨ (٣٦).

ومن ناحية أخرى، كان لحدث العواصف أثر كبير في رد وحر الغزا عن بلاد الشام، بعد تدميرها لسفنهم بما فيها من الجنود والبحارة، ومن ذلك حين خرج جماعة الفرنج من الغرب، بعد تواصليهم مع المغول للتحالف والاستعداد لمهاجمة بلاد الشام واجتمعا بجهة سيس (٣٧) بسفن كثيرة، فهبت عليهم ريح عاصفة كبدتهم بخسائر فادحة، فأغرقت العديد من سفنهم بما فيها من الجنود والبحارة ومن نجا منهم عاد أدراجه إلى بلاده مهزوماً مدحوراً سنة ١٢٧٠ هـ / م ٦٦٨ (٣٨).

ومن الحملات الصليبية التي لعبت العواصف دوراً مهماً في هزيمتها وفشلها في مهاجمة سواحل بلاد الشام وحماية السواحل من شر هجمات الفرنج المتالية وردهم إلى بلادهم مهزومين مدحورين نتيجة ما ألحقهه تلك الرياح العاتية من دمار لسفنهم، وقتل ما فيها من الجنود والبحارة، كما حدث حين هاجم ملك قبرس سواحل بلاد الشام، فهبت ريح عاصفة رده عن هجومه واضطرته نتيجة شدتها وآثارها الدمرة النزول في بيروت (٣٩)، فاشتبك مع المسلمين الذين كانوا على أهبة الاستعداد لمقاومته، فهزموه وغنموا كثيراً من حيوانات النقل وغيرها من المعدات الحربية، فاضطر الانسحاب بحراً إلى صور (٤٠) بعد أن تكبد بخسائر فادحة خسر فيها كثيراً من جيشه حتى وقع من جنوده في الأسر ثمانون رجلاً سنة ١٢٨٣ هـ / م ٦٨٤ (٤١).

ويبدو أن العواصف مثلت لسواحل بلاد الشام درع حماية طبيعي في بعض الأحيان ضد ما تتعرض له من إغارات الفرنج المتالية على سواحلها وهو ما نلمسه من خلال ما فعلته العواصف بالفرنج من إحباط لمخططاتهم في الهجوم على السواحل الشامية الإسلامية واضطراهم للعودة إلى بلادهم مهزومين دون تحقيق أهدافهم، من ذلك ما حدث أيضاً حين وصل إلى ساحل بيروت سفن كثيرة للفرنج مجهزة بكمال العدة والعتاد، وبلغت ثلاثة



بطسة^(٤٢)، وحملت كل بطة منها نحو سبعمائة مقاول، قصدوا الإغارة على السواحل الشامية والنزول إلى الساحل إلا إن الرياح الشديدة أغرت معظم مراكبهم باصطدام بعضها البعض حتى دمرت، ورجع من سلم منهم إلى بلاده مهزومين سنة ١٢٩٩هـ/٦٩٨ م^(٤٣).

ومن الغنائم التي غنمها المسلمون بفضل الرياح وسوقها للسفن الفرنجية المحملة بالغنائم كالتمبرة والبضائع ما حدث حين جهز صاحب مدينة سيس مراكب نحو قبرس فيها بضائع ما بلغ قيمتها نحو مائة ألف دينار، فألقتها الرياح على ميناء دمياط، فغنمتها المسلمون سنة ١٣٠٢هـ/٧٠٢ م^(٤٤).

ولم يقتصر أثر العواصف على نتائج المعارك البحرية فحسب، بل شمل أيضاً المعارك البرية، حيث كانت الرياح العاصفة من أشد العوامل التي أدت إلى إسقاط القلاع والحسون ولاسيما أثناء الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين إلى اللجوء للاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع في ظل ظروف العواصف الشديدة وما تبعها من عصف الرياح وشدة الأمطار، كما حدث حين ضيق الجيش الإسلامي بقيادة الأمير صلاح الدين الأيوبى الحصار على قلعة كوكب^(٤٥) إلا إن العواصف الشديدة من الرياح العاتية والأمطار الغزيرة أجبرتهم إلى الاستسلام وطلب الأمان بعد أن أيقنوا من الهزيمة، فأجابهم صلاح الدين للصلح وتسلّمها في سنة ١١٨٩هـ/٥٨٤ م^(٤٦).

وكان هبوب الرياح العاصفة من أنساب الأوقات التي استغلها الفرنج المحاصرون في هاجمة معسكرات الجيش الإسلامي، فيتسللون في ظل ظروف هبوب الرياح العاتية وبهجمون على معسكرات الجيوش الإسلامية مما أسفّر عن ذلك وقوع قتلٍ بين صفوف الجيش الإسلامي نتيجة تلك الهجمات التي يتعرض لها أثناء العواصف كما حدث أثناء حصار السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون لمدينة عكا الصليبية، فهبت ريح عاصفة استغلها الفرنج المحاصرون من الإسبانية والداوية بعكا في توجيه ضربات قاسية في الهجوم على المعسكر الإسلامي ترك أثراً سلبياً على الجيش الإسلامي لما أسفّر عن تلك الهجمات من وقوع قتلٍ بين صفوف الجيش الإسلامي سنة ١٢٩١هـ/٦٩٠ م^(٤٧).



المحور الثاني: أثر العواصف على نتائج المعارك جنوب البحر المتوسط (شمال إفريقيا):
أما الفتوحات الإسلامية البحرية، فيبدو أن العواصف كانت السبب المباشر لعدم تحقيق أهداف بعض حملاتها البحرية لما أحبطه من إغراق سفن الأسطول وبحارتها، فيضطر قائدتها إلى الرجوع، ويعود بما تبقى منها دون تحقيق الأهداف المرسلة من أجلها تلك الأسطول، من ذلك بعد أن قام الوالي حسان^(٤٨) بن النعمان بتأسيس القاعدة البحرية الإسلامية المعروفة باسم تونس^(٤٩)، أغارت بأسطول مصرى على جزيرة صقلية إلا إن محاولته باعت بالفشل نتيجة هبوب رياح عاصفة شديدة هدمت أسطوله بالدمار، فاضطررت سفنه من العودة والرجوع إلى قواعدها الآمنة في تونس تقادياً للآثار المدمرة للعواصف سنة ٢٠٣ هـ/٧٠٣ م^(٥٠).

ومن الحملات التي أخفقت في فتح جزيرة صقلية بسبب العواصف أيضاً حين أرسل وإلى إفريقيا الأمير عبيدة^(٥١) بن عبد الرحمن القائد المستير ابن الحارث الحرشي لغزو جزيرة صقلية، إلا إن الحملة لم تحقق نجاحاً ل تعرضها لرياح عاصفة شديدة تسببت في إغراق السفن حتى نزحت سفينه أميرها إلى ساحل طرابلس^(٥٢) وتعرض المستير للتكميل من الوالي عبيدة وذلك لتقاعسه وأقامته بأرض الروم حتى نزول الشتاء واشتداد أمواج البحر وعواصفه حتى حدوث الكارثة وبلغت سفن ذلك الأسطول مائة وثمانين مركباً، فغرقت معظمها ومن فيها ولم يسلم منها إلا سبعة عشر مركباً سنة ١١١ هـ/٧٢٩ م^(٥٣).

ولم تسلم الإمدادات العسكرية والأسطول الإسلامية من آثار العواصف المدمرة التي كانت تدمر أهداف القادة لحماية ممتلكات الدولة الإسلامية وخاصة الجزر الخاضعة لحكمها، والتي كانت تتعرض لهجمات معادية، فعجزوا عن الدفاع عنها بسبب تدمير العواصف للأسطول الإسلامي التي أدعواها لنجدة الجزر المنكوبة بالحصار، ونتج عن ذلك سقوط الجزر التابعة لها في أيدي أعدائها، وهو ما حدث حين بلغ الأمير المعز^(٥٤) بن باديس خروج الروم في جمع كثير لاستيلاء على جزيرة صقلية، واستطاعوا الاستيلاء على ما كان للMuslimين في جزيرة قلرية^(٥٥)، فجهز أسطولاً كبيراً بلغ أربعين ألف قطعة، وحشد فيها عدد كبير من الرجال والمجاهدين، إلا إن هذا الأسطول تعرض قرب سواحل إفريقيا لرياح عاصفة تسببت في إغراق معظمها ولم ينج منه سوى القليل وذلك سنة ١٦٤ هـ/٢٥١٠ م^(٥٦).



ويبدو أن العواصف الشديدة مثلت في بعض الأحيان سداً منيعاً لحماية سواحل البلاد الإسلامية من إغارات الفرنج المفاجئة، وإن كان المنع مؤقتاً لبضعة أيام وإتاحة تلك الفترة الفرصة لأهل البلاد من اتخاذ التدابير اللازمة لحماية بلادهم سواء في الدفاع عنها أو استطاعت الهرب والفرار قبل هجوم الأسطول، وهو ما حدث حين أراد قائد الأسطول الفرنسي جرجي من الهجوم على مدينة المهدية^(٥٧) بغية في غفلة من أهلها فخرج من صقلية بأسطول مكون من مائتين وخمسين شيئاً محملة بالرجال والسلاح، إلا إن الرياح العاتية أبطلت خطته الهجومية في المباغنة ومفاجأة أهل مدينة المهدية ولم يستطع المسير إلا بالمقاذيف، فاستطاع الأمير الحسن^(٥٨) بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية من انتهاز فرصة هبوب الرياح على الأسطول والرحيل بأهل مدينة المهدية لعدم قدرته في مواجهة الأسطول الفرنسي، وظل الأسطول في البحر تمنعه الرياح من الوصول إلى المهدية، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد أن هدأت الرياح ودخل القصر والبلاد خاوية على عروشها لا يوجد بها أحد من أهلها سنة ١١٤٨/٥٤٣ م^(٥٩).

ومن الآثار المترتبة عن العواصف هو تأخر هجوم الأسطول على المدن المحاصرة لحين انتهاء العاصفة لخوف قادة الأسطول من الدمار الذي تحدثه تلك العواصف من خسائر فادحة في السفن وبحارتها، مما يتيح الفرصة أثناء تلك الفترة من تفاوض أهل المدينة المحاصرة مع قائد الأسطول لتسليم المدينة وتتأمين أهلها على أرواحهم وأموالهم وهو ما حدث حين قام الملك عبد المؤمن أمير إفريقية بحصار مدينة تونس، فراسل أهلها لطاعته، وكان على رأس أسطول مكون من سبعين شيئاً وطريدة^(٦٠) وشلندي^(٦١) فامتنعوا، فقاتلهم قتالاً شديداً ولم يحل دون الدخول إليها سوى هبوب ريح عاصفة منعت الموحدين الدخول إلى البلد، فتراجعوا لحين انتهاء العاصفة، مما أتاح ذلك الوقت لسبعة عشر رجلاً من أعيان المدينة للتفاوض مع عبد المؤمن لاستسلام المدينة " فأجلبهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة، وأما ما عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهاليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين" وأن يخرج أميرها عبد بن خراسان وتم الصلح واستسلم المدينة بالأمان سنة ١١٥٩/٥٥٤ م^(٦٢).



وبيدو أن آثار الدمار الذي أحدثه العواصف تدخل في حسم المعارك البرية لما تسببه من إثارة الأتربة والرماد، فيصعب معه الرؤية أثناء القتال حتى يكاد لا يبصر الرجل صاحبه في المعركة ولا سيما في حالة حصار المدن فقلب العاصفة ميزان الغلبة في المعركة فتحول النصر إلى هزيمة، وهو ما حدث أثناء حصار أبي يزيد الخارجي للمهدية وبها عسكر القائم، حتى قتل جماعة من أعون أبي يزيد فهبت رياح عاتية مظلمة أثناء القتال تسببت في حجب الرؤية، فكان الرجل لا يرى مبارزه فانهزم عسكر القائم وقتل منهم جماعة وعاد الحصار على ما كان عليه، وقد هرب كثير من أهل المهدية إلى جزيرة صقلية وطرابلس ومصر وبلاط الروم وذلك سنة ٩٤٥/٥٣٣ هـ^(٦٣).

المحور الثاني: أثر العواصف على نتائج المعارك غرب البحر المتوسط (شرق سواحل الأندلس):

كان للموقع الجغرافي للأندلس الأثر البالغ في تعرض البلاد إلى الكثير من الكوارث، فوقوعها بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي جعلها عرضة للتأثيرات المناخية وهبوب الرياح القوية وتأثيرات البحار من حيث العواصف والأمطار المختلفة المواسم^(٦٤).

والملاحظ أن العواصف عرقلت مهام الأسطول الإسلامية في الإغارة على سواحل الفرنج لما تحدثه من خسائر فادحة تلحق بالأساطول الإسلامي سواء في تدمير السفن وغرق القوات البحرية أو قذف الأسطول بعيداً عن السواحل، مما يتسبب في إلحاق الهزيمة بالأساطول الإسلامي قبل لقاء أسطول خصمه، كما حدث مع الأسطول الأندلسي الكبير الذي كان بقيادة القادة الأمير محمد بن رماحس وغالب بن عبد الرحمن وسهل بن أبيد حين خرج الأسطول من المرية^(٦٥) فاصداً الإغارة على سواحل إفرنجية إلا إن عاصفة شديدة قدفت بأسطوله بعيداً عن تلك السواحل وhaltت العاصفة دون تحقيق هدف الحملة وهي معاونة قاعدة جبل القلال^(٦٦) سنة ٩٤٢/٥٣١ هـ^(٦٧).

وكما كانت العواصف تلحق الهزائم بالأسطولين البحريتين وتحول دون تحقيق أهدافها، فكانت أيضاً عائقاً أدى إلى تأخر وصول الإمدادات العسكرية البحرية ومما أدى ذلك إلى تأخير حسم المعركة لحين استقرار الأحوال الجوية وانتهاء العاصفة، كما هو الحال حين



نقض الحسن^(٦٨) بن كنون عهد الخليفة الحكم^(٦٩) المستنصر بالله (٩٦١/٥٣٦٦-٣٥٠) ، فأرسل الخليفة قائد البحر الأمير عبدالله بن رماحس دعماً لقائد محمد بن القاسم، إلا إن ابن قاسم قتل واستدعى الحكم قائد التغور الأمير غالب بن عبد الرحمن الناصري وكتب إلى قائد الأسطول ابن رماحس اتباع أوامر قائد الجديد، إلا إن العواصف الشديدة حالت دون إبحار الأمير غالب بجيشه من الجزيرة الخضراء، واضطرب إلى الرجوع والمكوث أياماً بساحل الجزيرة لحين تحسن الأحوال الجوية وانتهاء العاصفة مما أدى إلى تأخر الإمدادات العسكرية، وبعدها تمكن من الإبحار والاتصال مع قائد الأسطول ابن رماحس وتمكننا من إجبار الحسن بن كنون للدخول في طاعة الحكم سنة ٩٧٣هـ^(٧٠).

ووقفت العواصف المدمرة حجر عثرة أمام الفتوحات الإسلامية خاصة في فتح جزر البحر المتوسط، وذلك نتيجة ما تلعقه تلك العواصف من دمار وتحطم السفن والأساطيل فترهق أرواح البحارة والجنود بين غرقى وقتلى أو وقوعهم أسرى في أيدي أعدائهم، وهي الأهوال التي لحقت بالأسطول الإسلامي التي خرجت من قرطبة بقيادة الأمير مجاهد^(٧١) بن عبدالله الذي قصد غزو جزيرة سردينيا^(٧٢) وكانت جزيرة كبيرة تابعة للروم فالرغم ما حققه من انتصارات بها من فتح معاقلها واستيلائه على معظمها، ونتيجة لعدم اهتمامه بتحذير أحد الملائين له من مخاطر العواصف في إحدى موانئ بسواحل الجزيرة، فتعرض أسطوله لرياح عنيفة عاتية أدت إلى قنف مراكب المسلمين لشدة ارتجاج البحر وأسفر عنها وقوع الجنود والبحارة بين غرقى وقتلى أو أسرى في أيدي الروم، فاضطرر الأمير مجاهد الرجوع بما تبقى معه من المراكب إلى الأندلس دون تحقيق هدفه بفتح جزيرة سردينيا وسميت بجزيرة الشهداء وذلك سنة ١٠١٦هـ^(٧٣).

وأجبرت العواصف أيضاً تراجع الجيوش الإسلامية وعدم مواصلة الفتوحات الإسلامية نتيجة ما تسببه من خسائر فادحة في الأرواح والأموال، فيفضل القائد التراجع وعدم المواصلة حفاظاً على مقدرات الجيش الإسلامية من الدمار، كما فعل القائد عبدالملك^(٧٤) المظفر بالله حين خرج في غزوه الرابعة التي عرفت بغزوة "بنبلونة" عاصمة نافار فالرغم مما حققه من انتصارات بأرض العدو إلا إن الجيش الإسلامي انقضت عليه



عواصف شديدة صحبها الرعد والبرق والأمطار الغزيرة وتخللها البرد القارس مما اضطر القائد عبد الملك من الانسحاب بالجيش الإسلامي خشية من تأثير تلك العواصف من إلحاق الضرر بالجيش في الأرواح والمعدات فرجع بجيشه إلى قرطبة، دون أن تتحقق هذه الغزوة أهدافها سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م^(٧٥).

ولعل أوقات العواصف الشديدة كانت من أنساب الظروف التي استهدف المهاجمون استغلالها في اقتحام المدن، نظراً لأنشغال المدافعين عن المدينة بما تحدثه العواصف من دمار وخراب وما ينتج عنها من اضطرابات، فيتسلل المهاجمون في أثنائها ليتمكنوا من دخول المدينة بسهولة وبدون مقاومة كما نجح الأمير جرير بن عكاش في الاستيلاء على مدينة قرطبة حين أرسله ملك طليطلة يحيى بن ذي النون للاستيلاء على مدينة قرطبة، وكان بها الأمير الظاهر بالله بن الملك المعتمد بالله أبو القاسم محمد بن عباد، فسار جرير إلى قرطبة وأقام محاصراً لها مدة ينتهز اللحظة المناسبة للهجوم عليها حتى ساحت تلك الفرصة عند هبوب رياح شديدة عاصفة تتبعها الرعد والبرق والأمطار الغزيرة، فتمكن الأمير جرير في تلك الظروف من التسلل داخل المدينة حتى وصل إلى قصر الإمارة بدون مقاومة واستولى عليها وقتل الظاهر سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م^(٧٦).

ومن الأخطار الجسيمة التي ألحقتها العواصف بالمعسكرات الحربية المحاصرة للمدن والحسون هو إيقاع الاضطرابات في صفوف الجيش نتيجة ما أحدثته من اقلاع الأخبية، مما أجبه القائد من اتخاذ التدابير الازمة لمواجتها والتخفيف من آثارها، كما حدث حين حاصر جيش الموحدين مدينة وبذلة^(٧٧) في حرير ضد القشتاليين إلا إنهم تعرضوا في أثناء حصار المدينة إلى ريح صيفية عاصفة تسببت في وقوع الاضطرابات في صفوف معسكر الموحدين حتى اقلعت الأخبية وفاقت الدور، واضطر الجندي من الانشغال عن الحصار في الاحتياز واتخاذ التدابير الازمة للوقاية من تلك العواصف في يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ١١٧٢هـ/٥٦٧م^(٧٨).

وفي اليوم التالي، تعرض جيش الموحدين ل العاصفة أخرى أشد من سابقتها ألحقت بالجيش خسائر فادحة حتى اقلعت خيام الموحدين ومزقتها وازداد الأمر سوءاً حين عقبها وابل من الأمطار والرعد والبرق، فكان على الجانب الآخر فرصة للقشتاليين من الارتواء



من ماء الأمطار لخفيف وطأة الحصار، وعندما عاود الموحدون في يوم ٢٢ ذي القعدة الهجوم على القشتاليين، ازداد الأمر سوءاً؛ نتيجة هبوب عاصفة شديدة حتى أظلمت السماء تخلها الرعد والبرق وتبعها سيل غزير أضرت بجيش الموحدين وعجزوا عنمواصلة القتال، واضطر الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى التراجع إدراجه خاصة عن اكتساح السيول، وكان لهذه العواصف والأهوال الجسم الدافع الأقوى لانسحاب جيش الموحدين وتوقف حصار المدينة، وذلك في غزوة وبذة سنة ١١٧٢ هـ / ٥٦٧ م^(٧٩).

الخاتمة :

بعدما نقدم من عرض لموضوع "أثر العواصف على نتائج المعارك بدول حوض البحر المتوسط الإسلامية منذ القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري"، فإن من المفيد والمتمم لذلك أن نذكر أبرز النتائج وهي:

- ١- أن العواصف كانت تحول دون الإغارة على سواحل دول البحر المتوسط الإسلامية، بل تتسبب في تدمير الأساطيل المعادية وقدفتها بعيداً عن السواحل مما يؤدي إلى عرقلة تحقيق الأهداف التي خرجت من أجله تلك الأساطيل من الإغارة على سواحل البحر المتوسط وتكون كدرع حماية طبيعي لدول حوض البحر المتوسط الإسلامية.
- ٢- وسببت تلك العواصف عرقلة ومنع الإمدادات العسكرية للوصول إلى السواحل خاصة في المعارك البحرية مما يؤدي إلى تأخير خروج الأساطيل لحين تحسن الجو لمساعدة المدن الساحلية المنكوبة بالإغارة على سواحلها.
- ٣- وبينت الدراسة أن العواصف كانت أخطر من مواجهة الأعداء لقدرتها على إلحاق الهزيمة بالجيوش في المعارك البرية نتيجة لما تثيره من الأتربة الكثيفة التي تحجب الرؤية وتتسبب في انهزام الجنود نتيجة انتشار الفوضى في الصفوف وانعدام الرؤية.
- ٤- وظهر من خلال الدراسة أن العواصف من أشد العوامل قسوة، وأدت إلى استسلام المدن والحسون ولاسيما في حالات الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين المدافعين عن المدن إلى الاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع وخاصة حين تزداد شدة تلك العواصف نتيجة ما يلحقها من هبوط الأمطار وغيرها.



٥- ومثلت العواصف أحد المعوقات التي قبضت على جهود القيادة في إعداد الأسطول البحرية لما تحدثه من الدمار الشامل بالمراكل والسفن العسكرية أثناء استعداداتها للإلاعاع مما يؤدي إلى إلهاق الهزيمة بالأسطول قبل إقلاعه.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأثير: (ت: ١٤٣٠ هـ / ٢٣٣ م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزي: ١- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط. ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧ م.
- الأنطاكي: (ت: ٤٥٨ هـ / ٦٦ م) يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي: ٢- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (البنان)، ١٩٩٠ م.
- ابن أبيك: (ت: ١٣٢٥ هـ / ٢٥ م) أبي بكر بن عبدالله بن أبيك الدواداري: ٣- كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أبيك، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢ م.
- البكري: (ت: ٤٨٧ هـ / ٩٤ م) أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري: الأندلسي: ٤- المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ابن الجزي: (ت: ١٣٣٨ هـ / ٣٨ م) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزي القرشي: ٥- تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزي)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط. ١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨ م.
- ابن الجوزي: (ت: ٥٩٧ هـ / ٢٠١ م) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي:



- ٦- المنتظم في تاريخ الأمم والملوک، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- **الجوهري:**(ت:١٠٣/٥٣٩٣م) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابي:
- ٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط.٤، دار العلم للملائين، بيروت، ١٩٨٧م.
- **الحميري:**(ت:٤٩٥/٥٩٠٠م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري:
- ٨- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، مؤسسة ناصر للنقاقة، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٩- صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: إ. لافي برفنصال، ط.٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- **ابن خلدون:**(ت:٤٠٦/٥٨٠٨م) ولی الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي:
- ١٠- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي شأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- **ابن خلكان:**(ت:١٢٨٢/٥٦٨١م) شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان:
- ١١- وفيات الأعيان وأئماء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس دار صادر، بيروت، ج ١٩٩٤، ١٩٩٥م.
- **الذهبي:**(ت:١٣٤٧/٥٧٤٨م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي:
- ١٢- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط.٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٣- سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- **الزرکلی:**(ت:١٣٩٦/٥١٩٧٦م) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي:



- ١٤ - الأعلام، ط.١٥، دار العلم للملائين، بيروت، ٢٠٠٢ م.
- السيوطي: (ت: ١١١/٥٩٦ م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي:
- ١٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م.
- أبو شامة: (ت: ٤٦٥/١٤٨ م) أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي:
- ١٦ - عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.١، ١٩٩٧ م.
- ابن شاهين: (ت: ٩٣/٤٨٧ م) غرس الدين خليل، ابن شاهين:
- ١٧ - زيدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ابن شداد: (ت: ٣٢/٦٣٤ م) أبو المحسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدية الموصلي، بهاء الدين ابن شداد:
- ١٨ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط.٢، مكتبة الخارجي، القاهرة، ١٩٩٤ م.
- الصفدي: (ت: ٦٤/٧٦٤ م) صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبدالله صلاح الدين الصفدي:
- ١٩ - الوفي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- الطبرى: (ت: ١٠/٥٣١ م) أبو جعفر محمد بن يزيد بن كثير بن غالب الاملى الطبرى:
- ٢٠ - تاريخ الرسل والملوك، ط.٢، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧ م.
- ابن عبدالحق: (ت: ٣٩/٥٧٣ م) عبد المؤمن بن عبدالحق ابن شمائل القطيعى البغدادي:
- ٢١ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاء، ط.١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١ م.



- ابن عبد الحكم: (ت: ٤٧١ هـ / ١٧١ م) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري:
 - ٢٢ - فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤ م.
- العصفري: (ت: ٤٠٥ هـ / ٨٥٤ م) أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري:
- ٢٣ - طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- العليمي: (ت: ٢٨٦ هـ / ١٥٢٢ م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، مجير الدين:
- ٢٤ - التاريخ المعتبر في أنباء من غير، تحقيق: نور الدين طالب، ط. ١، دار النواير، سوريا، ٢٠١١.
- العيني: (ت: ٤٥١ هـ / ١٤٥٥ م) بدر الدين محمود العيني:
- ٢٥ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠.
- القرزي: (ت: ٢٨٣ هـ / ١٢٨٣ م) زكريا بن محمد بن محمود القرزي:
- ٢٦ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت.).
- الفقشندى: (ت: ١٧٤ هـ / ٢٠٨٢ م) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري الفقشندى:
- ٢٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.).
- ابن كثير: (ت: ٢٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الفرشي البصري ثم الدمشقي:
- ٢٨ - البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط. ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨.
- أبو المحسن: (ت: ٤٧٠ هـ / ١٤٧٤ م) أبو المحسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي:
- ٢٩ - مورد الطافحة في من ولی السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد،



- دار الكتب المصرية، القاهرة (د.ت).
- ابن المظفر: (ت: ١٢٢٠ هـ / ١٢٦٧ م) محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور ابن المظفر:
 - ٣٠ - مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن جبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ت.
 - المقريزي: (ت: ٤١٤٤ هـ / ١٥٨٤ م) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي:
 - ٣١ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
 - ٣٢ - اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ط.١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
 - النويري: (ت: ٣٣٣ هـ / ١٣٣٣ م) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري:
 - ٣٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثامن والعشرون، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢ م.
 - عبد الواحد المراكشي (ت: ٥٤٧ هـ / ١٢٥٠ م) محيي الدين عبد الواحد بن علي التميي المراكشي:
 - ٣٤ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهماري، ط.١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦ م.
 - ابن واصل: (ت: ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميي الحموي، جمال الدين:
 - ٣٥ - مفرج الكروب في أخباربني أبوب، ج ١، ٢، ٣، تحقيق: جمال الدين الشيال؛ ج ٤ ، ٥ تحقيق: حسين بن محمد ربيع - سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧ م.
 - ابن الوردي: (ت: ٤٩٦ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي:



- ٣٦ - تاريخ ابن الوردي، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م.
- اليافعي: (ت: ١٣٦٨ هـ / ٧٦٨ م) أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسد بن علي بن سليمان اليافعي:
- ٣٧ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ياقوت الحموي: (ت: ١٢٢٦ هـ / ٩٦٢ م) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي:
- ٣٨ - معجم البلدان، ط. ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥ م.
- اليعقوبي: (ت: ٩٠٥ هـ / بعد ٢٩٢ م) أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي:
- ٣٩ - البلدان، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.
- ثانياً: المراجع العربية:-
- أحمد مختار العبادي:
- ١ - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- سعدون عباس نصر الله:
- ٢ - رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥ م.
- محمد عبدالله عنان:
- ٣ - دولة الإسلام في الأندلس، (ج ٤)، ط. ٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧ م (ج ٤) ط. ٢، ١٩٩٠ م.
- ثالثاً: المراجع العربية (المترجمة):
- دوزي:
- ١ - رينهارت بيتر آن دوزي، (ت: ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م)، تكميلة المعاجم العربية (مترجم)، ترجمة وتعليق: ج ١- ج ٨ محمد سليم الغنيمي؛ ج ٩- ج ١٠ جمال الخياط، ط. ١، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ٢٠٠٠ م.



■ ولیم الصوری:

- ٢- الحروب الصليبية، ترجمة وتحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

رابعاً: الدوريات العربية:

■ عبدالله عبدالعزيز التقاز:

- ١- البحرية الإسلامية في عهد الخليفة الناصر ودعم نفوذ الدولة الأموية بالأندلس، فكر وإبداع، القاهرة، ع٨١، ديسمبر ٢٠١٣.

■ خرعل ياسين مصطفى:

- ٢- الكوارث والظواهر الطبيعية بالأندلس وآثارها على المجتمع في عصر الإمارة والخلافة (١٣٨-١٤٢٢/٧٥٥-١٠٣٠هـ)، جامعة الموصل، كلية الآداب، ع٥٤، ٢٠٠٩.

■ عبدالرازق الطنطاوى:

- ٣- مع الأساطيل الإسلامية في قبرص، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، ع٤، مايو ١٩٨٤.

■ عبدالعظيم رمضان:

- ٤- تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٢٢-٢٣ ابريل ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

■ محمد ضيف بطانية:

- ٥- الأسطول الإسلامي: نشأته وتطوره، الدار، السعودية، ديسمبر ٢٠١٣.

خامساً: الرسائل الجامعية:

■ نافذ محمد عبد رب:

- ١- الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٢/١٢٥٠م)، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٢م.

■ نصر الدين عبدالحفيظ محمد على:



٢- البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع
الهجري، رسالة ماجستير، جامعة النيلين، كلية الآداب، الخرطوم، ٢٠١٨.
سادساً: المراجع الأجنبية:

- 1- Setton (k.M.): A history of the crusades Volume (1) (the first hundred years), Edited by Marshall w. Baldwin the university of Wisconsin press madison, London, 1969.



الهؤامش

(١) هو الإمبراطور قسطنطين الثالث ابن هرقل تولى الإمبراطورية خلفاً لوالده ولم يحكم سوى بعض شهور.. مات سنة ٦٥٦ م.. انظر ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٢) جزيرة صقليه: جزيرة عظيمة من جزائر أهل المغرب مقابلة لإفريقيا، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام، وهي حصينة كثيرة البلدان والقرى، كثيرة الماشي جداً من الخيل والبغال، والحمير والبقر والغنم والحيوانات الوحشية، وبها معدن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، ومعدن الزئبق، وكانت قليلة العمارة خاملة الذكر إلى أن فتح المسلمون بلاد إفريقيا، فهرب أهل إفريقيا إليها وعمروها حتى فتحت في أيامبني الأغلب في ولاية المؤمنون.. البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢ م، ج ١، ص ٤٨٥-٤٨٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط.٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥ م، ج ٣، ص ٤١٨-٤١٦؛ الفزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٢١٦؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠ م، ص ٣٦٦.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤ م، ص ٢١٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط.٢، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧ م، ج ٤، ص ٤٤١؛ ابن الجوزي: المتنظم في تاريخ الأمم والملوک، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م، ج ٥، ص ٧٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط.١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧ م، ج ٢، ص ٥٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨ م، ج ٧، ص ٢٥٦؛ الحميري: الروض المعطار، ج ١، ص ٣٦٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م، ج ١، ص ١٦٢.

(٤) هو الوزير عيسى بن نسطورس تولى الوزارة لل الخليفة العزيز بأمر الله وسلم سائر الدواوين، ونظر في جميعها وأمر ونهى، وخطاب سائر الكتاب عن العزيز، وخطابه سائر الأولياء وكافة الناس في مهماتهم وتوقعاتهم... المقريزي: اتعاظ الحفقاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: د.جمال الدين الشيال، ط.١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (د.ت)، ج ١، ص ٢٨٣.

(٥) هو أمير دمشق بن جونكين التركي العزيزي مولى العزيز ولد إمرة دمشق سنة ٣٨١ هـ ونُوفِي سنة ٣٨٧ هـ وَتَقِيَ على ذلك مدة إلى أن عزله الحاكم وأرسل عوضه سليمان بن جعفر بن فلاح... الصفدي: الوفي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م، ج ٢٩، ص ٢٩.

(٦) طرسوس: "مدينة بين انطاكية وحلب.... عليها سوران بينهما فصيل وخندق، ويجري الماء حوالياها، وفي سنة سبعين ومائة بني سور طرسوس على يد أبي مُسلم فرج الخصي التركي، وجّهه مولاه هارون الرشيد لذلك، وأنزلها الناس عام ولـي الخلافة، في جيش كثيف وعسكر ضخم إلى التغور، وأمره أن يبني مدينة طرسوس في المرج الذي في سفح الجبل، ولم يكن هناك بناء قط، وأن يجعل النهر يشق وسطها، فابتداً بناؤها في جمادى سنة سبعين ومائة...." (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨٠؛ القزويني: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٩؛ ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ج ٢، ص ٨٨٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٨٨).

(٧) الخليفة العزيز بالله (٣٤٤/٩٥٥-٩٦٨٣) هو نزار العزيز بالله بن معذ المعز لبين الله بن منصور العبيدي الفاطمي أبو منصور: صاحب مصر والمغرب ولد في المهدية وبويغ بعد وفاة أبيه(سنة ٩٣٥هـ) وكانت في أيامه فتن وقلائل وكان كريم الأخلاق حليما يكره سفك الدماء..... وهو الذي اخترط أساس الجامع فيها، مما يلي باب الفتوح، وبدأ بعمارته(سنة ٣٨٠) وخطب له بمكة وطالت منته، إلى أن خرج يريد غزو الروم، فلما كان في مدينة بلبيس أدركته الوفاة" (ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٣٧١-٣٧٢؛ الذبهي: سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج ١١، ص ٤٣١؛ أبو المحاسن: مورد الطاقة في من ولـى السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة (د.ت)، ج ١، ص ٣٧٢؛ الزركلى: الأعلام، ط.١٥، دار العلم للملائين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٨، ص ١٥-١٦).

(٨) الأنطاكى: تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أونتيخاء، تحقيق: عمر عبد السلام تتمري، جروس برس، طرابلس(البنان)، ١٩٩٠م، ص ٢٣٥.

(٩) ولیم الصوری: *الحروب الصلیبیّة*, ترجمة وتحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ج٤، ص ١١٨.

(١٠) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-١١٣٧/٥٨٩-١١٩٣م) أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب بن شاذى، من أشهر ملوك الإسلام، ولد بتكريت وأبوه واليها سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة وأقام في الملك أربعاً وعشرين سنة، وتوفي بقلعة دمشق سنة ٥٨٩/١١٩٣م.. انظر ترجمته في الصدفي: المصدر السابق، ج ٢٩، ص ٤٨-٤٩؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٤٩-١٤٨؛ الزركلي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٢٠.



- (١١) دمياط: "مدينة قديمة بين تنيس ومصر وهي من ثغور الإسلام" القزويني: المصدر السابق، ص ١٩٣؛ وهي على ساحل البحر وإليها ينتهي ماء النيل، ثم يفترق من دمياط فيخرج بعضه إلى بحيرة تنيس" انظر اليعقوبي: البلدان، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٧٦.
- (١٢) ابن شداد: التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط.٢، مكتبة الخارجي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨٢-٨١؛ عبدالعظيم رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٢٢-٢٣ أبريل ١٩٨٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٠٠١.
- (١٣) أبي شامة: أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط.١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧، م ١٣٩، ج ٢، ص ١٣٩؛ عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ١٩٩.
- (١٤) وليم الصوري: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٢٠.
- (4) Setton : A history of the crusades E, Edited by Marshall w. Baldwin the university of Wisconsin press madison, London, 1969, v.1, p. 557.
- (١٥) أبي شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٠؛ عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ١٩٩.
- (١٦) وليم الصوري: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٢٧.
- (١٧) البطسة: "سفينة بحرية كبيرة يصل شراعها إلى أربعين شراعاً وتحمل المجنحات والمقالنة والأسلحة والذخيرة والمؤن وتستعمل لخدمة عامة الناس في أيام السلم..." محمد ضيف بطانية: الأسطول الإسلامي: نشأته وتطوره، الدار، السعودية، ديسمبر ٢٠١٣، ص ٢٦.
- (١٨) "مدينة على البحر الشمالي، أما مملكة بوليه ويقال لها أنبولي وهى مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقه من غربه" انظر الفقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج ٣، ص ٢٤٥؛ الحميري: المصدر السابق، ص ١١٦.
- (١٩) ابن المظفر: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ت، ص ٦٧؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٥٧، م ٢، ج ٣، ص ١١٤.
- (٢٠) عكا: "مدينة كبيرة، من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان.." الحميري: الروض المعطار، ص ٤١٠.
- (٢١) "قرية بين يافا وحيفا.." انظر دوزي: تكملة المعاجم العربية (مترجم)، ترجمة: محمد سليم الغنيمي، ط.١، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠، ج ٥، ص ٣٩٣.



- (٢٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٧؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج ٢٨، ص ٤٢٩.
- (٢٤) الميرية: "الطعام يمتلك الإنسان.." الجوهري: الصحاح ناج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط.٤، دار العلم للملاتين، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٨٢١.
- (٢٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج ١٢، ص ٤١٥.
- (٢٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٢-٢٣٣.
- (٢٧) يقال له "كند بنيلان" انظر أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٥.
- (٢٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢١؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ١٥٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٠؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٤٢٥.
- (٢٩) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٣-٢٣٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٥؛ ابن الوردي: تاريخه، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٢، ص ١٠٠.
- (٣٠) قبرس: "جزيرة على البحر المتوسط كبيرة القطر مقدارها عشر يوماً، وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواشن، وبها معدن الزاج المنسوب إليها، ويتجهز به منها إلى سائر الأقطار وبها ثلاثة مدن...)" انظر البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٥؛ ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٦؛ الحميري: الروض المعطار، ج ١، ص ٤٥٣."
- (٣١) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٤٤؛ عبدالرازق الطنطاوي: مع الأساطيل الإسلامية في قبرص، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، ع ٤، مايو ١٩٨٤م، ص ٢٢٩.
- (٣٢) الملك العادل (٥٤٠-٥٦١٥/١١٤٥-١٢١٨م): هو الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر سيف الإسلام، أخو السلطان صلاح الدين: من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، كان نائب السلطنة بمصر عن أخيه صلاح الدين أثناء غيابه في الشام. ثم ولاه أخيه حلب سنة ٥٧٩هـ فرحل إليها وأقام قليلاً، وانتقل إلى (الكرك) وتنتقل في الولايات إلى أن استقل بملك الديار المصرية (سنة ٥٩٦) وضم إليها الديار الشامية.. انظر ترجمته في الزركلي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٤.
- (٣٣) شيني وشينية، وجمعها شوان وشوانى: سفينة شراعية حربية.. دوزي: المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٩٩؛ محمد ضيف بطانية: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (٣٤) طرابلس: "مدينة مشهورة على ساحل الشام بين اللاذقية وعكا، وزعم بعضهم أنها بغير همز..." ياقوت: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٦؛ وهي تختلف عن طرابلس العرب" ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج ١، ص ٩١.



- (٣٥) ابن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٧، ص ١٥٩.
- (٣٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التميمي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤٩، ص ٥٩؛ النويري: المصدر السابق، ج٣٠، ص ١٧٨؛ ونكر ابن كثير أن الحملة كانت مكونة من اثني عشر شيئاً وتحطم من الحملة أربعة عشر مرکباً، انظر ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، ص ٣٠١؛ المقريزي: المصدر السابق، ج٢، ص ٧١؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٢٩.
- (٣٧) سيس: "سيسيه وعامة أهلها يقولون سيس: بلد أعظم من ثغور الإسلامية بين أنطاكية وطرسوس على عين ذرية وبها مسكن ابن لبون سلطان تلك الناحية الأرمن" انظر ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن شاهين: زيدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٥.
- (٣٨) النويري: المصدر السابق، ج٣٠، ص ٣٢٢؛ المقريзи: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤؛ نافذ محمد عبد ربه: الكوارث الطبيعية وأثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (١٢٥٠/٩٢٢-٦٤٨)، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٢م، ص ١٥١٧.
- (٣٩) بيروت: "مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق، بينها وبين صيادة ثلاثة فراسخ.." ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص ٥٢٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٢.
- (٤٠) صور: "كانت من ثغور المسلمين، وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً.." ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٣٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٩.
- (٤١) النويري: المصدر السابق، ج٣١، ص ٣٢٢؛ المقريзи: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٤؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج٢، ص ٣٠٢؛ سعدون عباس نصر الله: رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٢٧.
- (٤٢) بُطْسَة: "ضرب من السفن" دوزي: المرجع السابق، ج١، ص ٣٧٠.
- (٤٣) النويري: المصدر السابق، ج٣١، ص ٣٧٦؛ ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تميري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص ٤٤١-٤٤٠؛ نافذ محمد عبد ربه: المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٤٤) المقريзи: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦٣.



(٤٥) قلعة كوكب: "اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتحه من البلاد ثم خربت بعد.." ياقوت: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٩٤.

(٤٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٣؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة ما يعتبر من حواشٍ الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص ٣٤٦؛ العليمي: التاريخ المعتبر في أنباء من غرب، تحقيق: نور الدين طالب، ط١، دار النادر، سوريا، ٢٠١١، ج٢، ص ٩٦.

(٤٧) التوبيري: المصدر السابق، ج٣١، ص ١٩٨؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ نافذ محمد عبد ربه: المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤٨) حَسَانُ بْنُ الْعُمَانِ(ت: بعده ٧٠٥هـ/١٧٠م): "هو الأمير حسان بن النعمان بن عدي الأردي الغساني، من أولاد ملوك ولد إفريقي في زمن معاوية بن أبي سفيان، ثم كان عاملًا على مصر في أيام عبد الملك بن مروان. وأضطربت إفريقياً بعد مقتل زهير البلوي سنة ٧٢٦هـ فأمره عبد الملك بالتجهيز إليها.. وبعد أن عم الإسلام إفريقياً، أقام بالقيروان وتوفي بعد سنة ٨٦٥هـ/١٧٧م". الزركلي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٧-١٧٦.

(٤٩) تونس: "مدينة كبيرة محشّة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش...". ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠.

(٥٠) نصر الدين عبدالحفيظ محمد على: البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة النيلين، كلية الآداب، الخرطوم، ٢٠١٨، ص ٢٨.

(٥١) عُبَيْدَةُ السُّلْمَى(ت: بعده ١١٤هـ/٧٣٢م): عبيدة ابن عبد الرحمن بن أبي الأغر السلمي من بني ثعلبة بن بهة بن سليم والمي إفريقي والأندلس. وهو ابن أخي "أبي الأعرور السلمي" صاحب خيل معاوية بصفين، ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب، بعد وفاة بشر بن صفوان، فدخل القيروان سنة ١١٠هـ ونظر في أمر المغرب والأندلس معاً، واستمر أربع سنين وستة أشهر.....". الزركلي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٨-١٩٩.

(٥٢) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٥٣) العصفرى: طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣٤١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٧، ص ٣٠٣.



- (٥٤) المُعَز بن باديس (٣٩٨ - ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٠٨ م) هو الأمير المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية، ولد بالمنصورية (من أعمال إفريقية) وولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٠٤ هـ وأقره الحاكم الفاطمي (صاحب مصر والمغرب) لقبه بشرف الدولة، وكانت خطبته للفاطميين، فقطعها سنة ٤٤٥ هـ وجعلها للعباسيين... وتوفى سنة ١٠٦٢ هـ / ٤٥٤ م الزركلي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٦٩-٢٧٠.
- (٥٥) قِلْوَرِيَّة: "وهي جزيرة في شرقى صقلية وأهلها أفرنج ولها مدن كثيرة وبلاط واسعة" ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٩٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٧٠.
- (٥٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٨٩-٦٩٠.
- (٥٧) المهدية: "مدينة بإفريقية بقرب القيروان، احتطها المهدى المتغلب على تلك البلاد في سنة ٣٠٠ هـ، قيل: إنه كان يرتاد موضعًا يبني فيه مدينة حصينة، خوفاً من خارجي يخرج عليه، حتى ظفر بهذا الموضع.." (البكري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٨١؛ ياقوت: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٢٩؛ الفزوي: المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦١).
- (٥٨) ابن باديس الصنهاجي (٥٦٣-١١٦٨ هـ / ١٠٣-١١٦٨ م): هو الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي، آخر ملوك الدولة الصنهاجية في إفريقية الشمالية، ولد بالمهدية وولي بعد وفاة أبيه سنة ٥١٥ هـ وعمره آنذا عشر عاماً، فقام بأمره أعيان الدولة، فاضطربت، وهاجمه روجار II ملك صقلية، فأخرجه من المهدية سنة ٥٤٣ هـ... توفي سنة ١٦٨ هـ / ٥٦٣ م.. انظر ترجمته في الصفي: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٤-٧٥؛ الزركلي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٣.
- (٥٩) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٥-١٥٦؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦.
- (٦٠) شلندي: "مركب حربى كبير مسطح، كان مخصصاً لنقل المقاتلة والسلاح" دوزي: المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٤٩؛ محمد ضيف بطانية: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (٦١) طريدة: "هي مخصصة لحمل الخيول وتنسق لأربعين فارساً، وهي تفتح من الخلف، كما إنها تحمل المقاتلين والذخائر والمؤمن و تستعمل لخدمة عامة الناس في أيام السلم..." عبدالله عبدالعزيز القاز: البحرية الإسلامية في عهد الخليفة الناصر ودعم نفوذ الدولة الأموية بالأندلس، فكر وبداع، القاهرة، ديسمبر ٢٠١٣ م، ع ٨١، ص ٣١٤.
- (٦٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٥٧.
- (٦٣) المُظْفَرُ العَامِريُّ (ت: ١٠٠٨ هـ / ٣٩٩ م): "عبد الملك (المظفر) بن محمد (المنصور) بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، أبو مروان ثانى أمراء الأندلس من الأسرة العاميرية. كان في أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه في الحجابة للمؤيد الأموي (هشام بن الحكم) بقرطبة فخلع عليه بولية الحجابة مكان أبيه



- سنة ٣٩٢ هـ ققام بأمور الدولة كبیرها وصغرها، وأسقط عن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة "الملك المظفر بالله" الزركلى: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٤.
- (٦٤) خرعل ياسين مصطفى: الكوارث والظواهر الطبيعية بالأندلس وآثارها على المجتمع في عصرى الإمارة والخلافة (١٣٨-١٤٢٢ هـ / ٧٥٥-١٠٣٠ م)، جامعة الموصل، كلية الآداب، ع ٥٤، ٢٠٠٩، ص ٣١٥.
- (٦٥) المرية: "بالأندلس مدينة محدثة، أمر ببنائها أمير المؤمنين، الناصر لدين الله عبد الرحمن ابن محمد سنة ٣٤٤" الحميري: صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: إ. لافى برفنصال، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٨٣.
- (٦٦) جبل القلال: "قريب من مدينة رومية في المغرب، وهو جبل يقال إنه لم يستطع أحد الوصول إلى قمته لشدة ارتفاعه، وفيه الصيد والخشب والحطب.." مجھول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ترجمة: السيد يوسف الهاדי، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ص ٣٩.
- (٦٧) خليل إبراهيم السامرائي & عبدالواحد نون & ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط ١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤١١.
- (٦٨) الحَسَنُ الْإِدْرِيسِيُّ (ت: ٩٨٥ هـ / ٥٣٧٥ م): هو الأمير الحسن بن القاسم كنون الإدريسي، آخر أمراء الدولة الإدريسية الثانية في الريف المغربي وبعض أطراف فاس، ولد بعد أخيه (أحمد) سنة ٣٤٨ هـ وكان يدعو للناصر الأموي (ال الخليفة بالأندلس) فوجه إليه المعز الفاطمي (صاحب مصر) جيشاً، فجعل الدعوة للفاطميين سنة ٣٤٩ هـ ثم خاف انتقام المروانيين منه، فخلع بيعة الفاطميين، وأعاد الدولة لهم فزحف عليه بلکین بن زيري من إفريقية (وكان من أشياع الفاطميين)، فخضع له الحسن، ولما عاد بلکين إلى إفريقية وجه الحكم المستنصر (صاحب الأندلس) جيشاً لقتال الحسن، فقاتلته الحسن وقتله، فغضب المستنصر وجده جيشاً آخر لإخضاعه، فاستسلم الحسن بعد وقائع ... توفى سنة ٩٨٥ هـ / ٥٣٧٥ م.. انظر ترجمته في الزركلى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٩-٢١٠.
- (٦٩) الْمُسْتَنْصَرُ الْأَمْوَيُ (ت: ٩٧٦ هـ / ٣٦٦ م): هو الخليفة الأموي الأندلسي الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠ هـ قوي وكثير فتوحاته وخطب بدعوه ملوك زناتة من مغاربة ومكناسة... انظر ترجمته الصفدي: المصدر السابق، ج ١٣، ص ٧٤، الزركلى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٧.
- (٧٠) خليل إبراهيم السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٤١٣.
- (٧١) مُجَاهِدُ الْعَامِرِيِّ (ت: ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) مجاهد بن يوسف (أو عبد الله) بن علي العامري، بالولاء، أبو الجيش: مؤسس الدولة العامرية في دانيا Denia وميورقة Majorque وأطرافهم، رومي الأصل ولد بقرطبة ورباه المنصور بن أبي عامر مع مواليه، فنسب إليه، ولما كانت فتنة "البرير" خرج مجاهد من قرطبة، وتبعه جمع من موالى ابن أبي عامر، وبعض جيش الأندلس، فدخل بهم



طرطوشة، وانقل إلى دانية (على ساحل البحر الرومي) فاستقل بها سنة ٤١٢ هـ واستولى على الجزائر القريبة منها، وتلقب بالموفق بالله، وغزا الإقونج بالأساطيل في جزيرة سردانية، فغلب على كثير منها ودامت له الإمارة إلى أن توفي...". انظر ترجمته في الزركلي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٨-٢٧٧.

(٧٢) جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصفية وأقربها منها، وقد غزاها المسلمون وملكوها في سنة ٩٦٢ هـ في عسكر موسى بن نصیر.. ثم صارت في يد الفرنج .. ياقوت: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤.

(٧٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٩، ص ٤٣٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤؛ خرعل ياسين مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٧٤) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ط.٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٦١٢.

(٧٥) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ج ١، ص ٦١٢.

(٧٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٣١.

(٧٧) ويدة: "مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس" ياقوت: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٩؛ ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢٤.

(٧٨) محمد عبدالله عنان المرجع السابق، ج ٤، ص ٨٠-٧٦؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط. ١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ١٨٤-١٨٥.

(٧٩) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ج ٤، ص ٨٠-٧٦.



القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري. الفايكنج (النورمان)

أنموذجاً (١٧٣—٧٨٩ هـ ١١٩٤ م).

د. يوسف عبدالحميد بن ناجي

أستاذ مساعد(تاريخ الحضارة العربية الإسلامية)

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب-

كلية التربية الأساسية-قسم الدراسات الاجتماعية

الملخص:

تأتي أهمية هذه الدراسة في كون القرصنة إحدى مظاهر العلاقات بين الدول وبعضاها البعض، وفي كونها أيضاً إحدى معابر التواصل بين الحضارات، ففي الوقت التي كانت فيه القرصنة قائمة على السرقة والنهب وقطع الطرق البحرية، والأعمال العدائية، ومن أبرز المشكلات التي واجهت البلدان، وكانت سبباً في قيام الحروب بينها، وقيام بعض الدول، وسقوط أخرى، كانت أيضاً معبراً من معابر الحضارات بين نفس الدول، لذا تأتي أهمية هذا الموضوع في التعرف على كافة جوانبه كأحد الموضوعات الهامة التي لم تلق اهتماماً من الباحثين على حد علمي.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على جمع المعلومات وتحليلها، ثم استخلاص النتائج.

أهداف الدراسة:

- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها، والدافع المختلفة لها.

- إبراز أثر القرصنة في التواصل الحضاري بين الدول.

خطة الدراسة:

سوف أتناول هذا البحث من خلال الآتي:

- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها.



- الفايكنج (النورمان) أنموذجًا لقرصنة والتواصل الحضاري.
- أولاً: نبذة تاريخية مختصرة عن الفايكنج (النورمان) من حيث الآتي:
 - أصلهم، موطنهم، الأسباب التي دفعتهم إلى الخروج من بلادهم.
 - الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنج بأوروبا.
- ثانيًا: الفايكنج وغاراتهم على أوروبا (فرنسا، إنجلترا، أيرلندا، الأندلس، صقلية).
 - التواصل الحضاري للفايكنج (النورمان).
 - 1- مع أوروبا المسيحية.
 - 2- مع المسلمين في الأندلس وصقلية.
- نتائج البحث.

Research summary

1-Study Title

Piracy and its impact on civilizational communication during the Middle Ages. Vikings (Normans) as a model

2-Study problem

The importance of this study lies in the fact that piracy is one of the manifestations of relations between states and each other. Also one of the crossing points of communication between civilizations, at a time when piracy was based on theft, looting, cutting off sea routes and hostilities. It was the most prominent problems that faced countries, which was caused of the outbreak of wars between them, and the rise of some countries, and the fall of others, was a crossing point of civilizations between the countries themselves. The importance of this topic comes to identify all its aspects as one of the important topics that did not receive attention from researchers to the best of my knowledge..



3-Study Approach:

The study relied on the analytical inductive approach based on collecting and analyzing information, and then drawing conclusions.

4-Objectives of the study:

Learn about the concept of piracy, its origins, the evolution of its concept, and the different motives behind it.

Highlighting the impact of piracy on cultural communication between countries.

Study plan:- 5-

I will address this research through the following:

Learn the concept of piracy, its origins and the evolution of its concept.

• Vikings (Normans) as a model for piracy and civilized communication.

First: A brief history of the Vikings (Normans) in terms of the following:

- Their origin, their homeland, the reasons that led them to leave their country.

- Roles in the relationship of the Vikings to Europe.

Second: The Vikings and their raids on Europe (France, England, Ireland, Andalusia, Sicily).

- Civilizational Communication of the Vikings (Normans).
- Christian Europe
- the Muslims in Andalusia and Sicily



- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها.

أولاً: مفهوم القرصنة.

القرصنة في اللغة:

القرصان لص البحر، والقرصنة لغة: السطو على سفن البحار^(١).

وأصطلاحاً: هي اعتداء مسلح يقوم به طاقم سفينة في أعلى البحار على سفينة أخرى بقصد النهب والسلب^(٢).

يقصد بالقرصنة في هذه الدراسة: قيام مجموعة من البحارة الفايكنج (النورمان) بأعمال العنف غير المشروع الموجه ضد بعض الدول الإسلامية وغير الإسلامية في أوروبا خلال العصور الوسطى، لتحقيق منفعة اقتصادية أو سياسية.

ثانياً: نشأة القرصنة البحرية.

مرت نشأة القرصنة بعده مراحل:

المرحلة الأولى: تشير بعض الوثائق إلى أن استخدام اسم القرصنة لأول مرة كان منذ حوالي (٤٠) سنة قبل الميلاد^(٣).

وقد تزايدت أعمال القرصنة البحرية، وحدثت غارات متكررة من القرصنة على السفن التجارية اليونانية في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وأصبحت تدفع فدية مقابل إطلاق سراح بعض التجار اليونانيين، وفي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد لجأ بعض حكام المدن الساحلية على البحر الأبيض

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: تحقيق المجمع اللغوي - تركيا - المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية ٢١٣٩ هـ ج ٢ ص ٧٢٦.

(٢) أحمد عطيه الله: القاموس السياسي: دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨ م ص ٩١٨.

(٣) كرزسيتوف ويلزينسكي: تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان

<http://www.Pitatesinf.com/detaif-phparliele-id>



المتوسط إلى التعاون مع القراصنة اتفاءً لشرهم ولتوفير شيء من الحماية لسفنه وموانئهم، ولم يكن هناك نية جادة للتخلص من القراصنة؛ لأنهم كانوا يمدون الأسواق بالعبيد وتجري التعاملات التجارية بما يغتصبونه من البضائع التي توفر لهم الملاذ، ويمكن أن تعتبر تلك الفترات مرحلة أولى من تاريخ القرصنة البحرية^(١).

المرحلة الثانية:

مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد ظهرت مرحلة أخرى وهي مرحلة انتشار هجمات القراصنة بشكل واسع، وظهر لهم نمط وأعراف، وملابس تميزهم عن غيرهم، نتيجة لرضا روما عن هذه الأعمال حيث سمع للقراصنة بالانتشار؛ لأنها تحقق مصالح وأهداف حكومتها في ذلك الوقت وأصبح للقراصنة قوة كبيرة تهدد التجارة في مناطق مختلفة^(٢).

المرحلة الثالثة: بعد الميلاد:

استمرت أعمال القرصنة بعد الميلاد على نحو قريب من أوضاعها قبله من حيث الانتشار في البحر الأبيض المتوسط رغم استمرار الحملات الرومانية التي تعمل على محاربة القراصنة، وفي هذه الفترة وجد أقدم تعريف للقرصنة البحرية من المؤرخ الروماني (بلوتارش) والذي كتب تعريف القرصنة في العام (١٠٠) ميلادي حيث وصف القرصنة "بأنهم أولئك الذين يهاجمون دون وضع قانوني ليس فقط السفن، ولكن أيضاً المدن البحرية"^(٣).

(1) Souza, Philip De, Ancient Rome and the Pirates (2000). P.105.

(2) ويلزيński: تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان:
<http://www.Pitatesinf.com/detaif-phparliele-id>

(3) ويلزيński: نفس المرجع. نفلاً عن بلوتارش



المرحلة الرابعة:

بدأت هذه المرحلة الرابعة حوالي عام (١٧٣ هـ / ٧٨٩ م)، حيث ظهر في شمال أوروبا أشهر القرصنة في هذه الحقبة، وهم من يسمون بالفايكنج من شعوب شمال أوروبا دول الدانمارك والسويد والنرويج حالياً والذين اكتسحوا معظم دول أوروبا وأسسوا مدنًا بين عام (٨٠٠ هـ / ١٨٣ م) و (١١٠٠ هـ / ٤٩٣ م)، وقد اشتهروا بالعنف، والقسوة، والنهب، والاغتصاب، وبحلول القرن الحادي عشر أسسوا إمبراطورية في بحر الشمال مكونة من السويد والدانمارك والنرويج^(١).

ثالثاً: تطور مفهوم القرصنة:

تطور مفهوم القرصنة عبر العصور إلى نوعين متباينين: أولهما القرصنة القائمة على السلب والنهب. والثاني: القرصنة التي تعتبر نوعاً من الحروب البحريّة سواءً أكانت دفاعية أم هجومية وهدفها ضرب اقتصاديات العدو أو الاستيلاء على بعض المدن الساحلية، أو محاولة إقامة دول لهؤلاء القرصنة، وقد شهدت الحروب الصليبية في المشرق النوعين معاً^(٢).

• الفايكنج (النورمان) أنموذجاً للقرصنة والتواصل الحضاري.

أولاً: نبذة تاريخية مختصرة عن الفايكنج (النورمان):

١- اسم الفايكنج (النورمان) وأصلهم وموطنهم.

(١) كافين رايلي: العنف والانتقام: ترجمة/ عبد الوهاب محمد وآخرون - بحث منشور بمجلة عالم المعرفة - مجلس الثقافة والفنون والأدب - الكويت ١٤٠٥ هـ ١٩٨٨-١٩٩١، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٧٦ م ص ١٧٥ وما بعدها.

(٢) بسام العسلي: سلسلة جهاد شعب الجزائر : دار النفائس - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ج ١ ص ٧٧.



يعرف الفايكنج (النورمان) في بعض المصادر العربية باسم الأردمانيين أو المجروس^(١).

أما في المراجع الأوربية فيعرفون باسم الفايكنج (vikings) وقد اختلفت الآراء حول أصل كلمة فايكنج (Viking)، وأيضاً المسميات التي أطلقت على هؤلاء الغزاة؛ فأصلها مجهول غير أنه ظهرت اتجهادات من الباحثين حول مصدر الكلمة؛ فهناك من يرى أنها كلمة مشتقة من لفظ (vik) أي الخليج أو

(١) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محسن أهل الجزيرة: تحقيق/ إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - ليبيا ، تونس الطبعة: الأولى ١٩٨١ م ج ٥ ص ١٨١، ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. نحو ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الثالثة ١٩٨٣ م ج ٢ ص ٢٤١، ولا يقصد بهم عبده النار في إيران، فاما التسمية الأولى فواضحة الدلالة فالأندمانيون هم النورمانانيين أي أهل الشمال، وقلب النون إلى همزة في أوائل أسماء الأعلام ليس بغريب في لسان أهل الأندلس، فهم يقولون مثلاً أربونة في نربونة، وأما تسميتهم بالمجوس؛ فلم يكن ذلك لأنهم كانوا مجوساً، وإن كان معظمهم في ذلك الحين وثنين فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة، ولعل العرب قد أطلقوا عليهم هذه التسمية؛ لأنهم كانوا يشعرون النار في كل مكان يمرون به، وكانوا إذا نزلوا بمكان وعسكروا فيه أشعلوا ناراً ضخمة في معسكرهم، وإذا فاجئوا بدأ، أشعلوا النار في مبانيه، ونهبوا ما فيه (ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧هـ): تاريخ افتتاح الأندلس: تحقيق/ إبراهيم الإبياري - دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٩/١٤١٠ م ص ٧٨، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٧٤، عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي: دار القلم - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨١/١٤٠٢ م ص ٢٢٧).



"الفيورد أو مر بحري، ويراد بذلك عادة أولئك القراءن الملاحين الذين يؤدون إلى الخجان ويستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها^(١). وهناك من يرى أنها اشتقت من الكلمة الأيسندية القديمة vika وتعني رجال المجداف^(٢).

ويرجع أصل الفايكنج إلى العنصر الجermanي: وهو قوم من البدو الرحل الذين كانوا يعشرون الحرب ويزدادون شغفًا بالصيد وي Gorsون خلال الغابات والمستنقعات وهم دائمًا على أهبة الرحيل من مكان إلى مكان وليس لهم دخل سوى ما يمكن أن يحصلوا عليه بطريق الحرب والعنف وجermania الموطن الأصلي للعناصر الجermanية والتي يرجع إليهم النورمان كما وصفها تاكيتوس: كانت منطقة يكتنفها الغابات وتغطيها المستنقعات انعكست وحشتها، وما كان يكتنفها من غموض على طباع سكانها^(٣)، والموطن الأصلي للجرمان: هو المناطق المحيطة بالبحر البلطيق^(٤) لكنهم انتشروا في القرنين الأول والثاني الميلاديين في أوسط أوروبا وشرقيها، وأصبحوا أقرب الشعوب المتبريرة إلى حدود الإمبراطورية الرومانية^(٥).

(١) Allen Mawer : The Vikings .cam. med hist . iii p - 306

(٢) عمر عبد المنعم إبراهيم: الفايكنج والإمبراطورية الكارولنجية: رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس . (٢٠٠٩) م ص ١٠ .

(٣) محمد مرسي الشيخ : الممالك الجermanية : دار الكتب الجامعية . الإسكندرية . ١٩٧٥ م ص ٦ ، ٢٥٨، ٧. نقلًا عن تاكيتوس.

(٤) البحر البلطيق، بحر البلطيق، بحر البلطيق: هو بحر في أوروبا الشمالية محاط بالدانمرك والسويد وفنلندا وروسيا وبولندا وألمانيا، ويصب فيه عدد كبير من الأنهر (أينهارد: سيرة شارلمان : ترجمة / عادل زيتون - دار حسان - دمشق - الطبعة الأولى ١٩٨٩ هـ ١٤١٠).

(٥) محمد مرسي الشيخ : الممالك الجermanية : ص ٦.



أما بالنسبة لموطن الفايكنج (النورمان): فهو شبه الجزيرة الإسكندنافية، حيث البيئة القاسية، والظروف المعيشية الفقيرة، وصراع القوى بين الحكام المتنافسين على السلطة، واليوم تضم إسكندنافية كل من: الدانمارك Denmark، والنرويج Norway، والسويد Sweden، كما تضم فنلندا Finland، كما إن الطبيعة الجغرافية للممالك الإسكندنافية كان لها تأثير كبير على اتجاهات حركة الفايكنج (النورمان)، فقد اتجه النرويجيون إلى الغرب، بينما اتجه الدانمركيون صوب الجنوب الغربي، في حين اتجه السويديون ناحية الشرق^(١).

وقد بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوروبي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنج هم الذين استكشفوا أوروبا وليسوا هي التي كشفت عن الفايكنج، ولم يختلف الفايكنج عن غيرهم من العناصر البربرية герمانية في نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم، إلا إن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات لم تترك لهم مجالاً يعيشون فيه سوى السهول الساحلية، وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنج نحو البحر، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجداف أو الشراع وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطي حتى البحر المتوسط، بل قاموا برحلات في المحيط الأطلسي حتى أصبحوا أعظم شعوب البحريّة التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، لذلك اتخذت غاراتهم شكلاً بحرياً أقرب إلى القرصنة منه إلى الرزف البري الذي اتصف به هجمات بقية الشعوب الـيتونية^(٢).

٢- الأسباب التي دفعت الفايكنج للخروج من بلادهم:

يمكن تقسيم الأسباب التي دفعت الفايكنج (النورمان) إلى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية إلى نفسية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية:

(١) عمر إبراهيم : مرجع سابق : ص ١٥.

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق: ص ١٧٥



١- الناحية النفسية:

أثبت التاريخ دائماً أن بعض الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع في البلاد المتحضرة القريبة منها، والرغبة في الإغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها في حضارتها، وهذا الشعور كان أحد العوامل التي حركت القبائل المتبريرة كالفايكنج نحو أوروبا والجرمان نحو أراضي الإمبراطورية الرومانية من قبل^(١).

٢- الناحية الاقتصادية:

فقد اهتر الفايكنج (النورمان) عندما قام الفرنجة بغزو فريزيا (frisia)^(٢); نظراً لما ترب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجاري وبالتالي مضائقتهم اقتصادياً^(٣); وذلك لأن الفايكنج أو النورمان كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا. كما إن الفريزيين كانوا يمثلون قوة بحرية، وتجارية عظيمة في شمال أوروبا، بل كانوا بمثابة حاجز بين الفايكنج والقارة الأوربية، فلما تحطمته هذه القوة أصبح الطريق ممهداً^(٤) أمام الفايكنج لغزو أوروبا^(٥)، وكان قضاء الفرنجة على قوة الفريزيين الذين مارس الفايكنج معهم بعض التجارة أثره في تعرض تجارة الفايكنج لأضرار جسيمة؛ فأدى هذا بالفايكنج إلى محاولة الحصول على أسواق جديدة وعملاء جدد لاستمرار تجارتهم^(٦).

(١) سعيد عاشور: مرجع سابق: ص ١٧٥

(٢) فريزيا منطقة تقع في غرب أوسفالدية بين نهري أيمز والراين والاسم الحديث لمنطقة فريزيا هو نورتلاندس الواقعة في شمال ألمانيا الاتحادية، ونسب إلى منطقة فريزيا القبائل المعروفة باسم الفريزيين الذين ينتمون إلى الجerman والمعرفون أن هذه القبائل كانت قد شكلت خطراً على الفرنجة وكان رؤساء البلاط الفرنجي قد تصدوا للفريزيين (أينهارد : سيرة شارلمان : ص ١١٤).

(٣) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٧٥

(٤) محمد مرسي الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٠ م ص ٢٩٦.

(٥) محمد مرسي الشيخ: الممالك germanية: ص ٢١٦ .

(6) Oman : the Dark eges : London 1962 , P . 45 .



٣- الناحية الاجتماعية:

يقال إن أعداد الفايكنج تزايدت في القرن التاسع حتى صارت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ إسكندنافيا ودانمارك، مما دفعهم إلى الهجرة والإغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يسد رمقهم ويكتفي حاجتهم، ويقول بعض الباحثين: "هذا وإن كانت لا توجد في الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سبباً أساسياً لهجرة الفايكنج في القرن التاسع" ^(١).

٤- ومن الناحية السياسية :

حاول المؤرخ هاسكنز Haskins تفسير غزو الفايكنج لأوروبا في ظل مفاهيم العصر، وكذلك المفاهيم الحديثة، فذهب إلى القول بأنه حين ظهرت ملكيات مستقلة وحكومات مركبة اتجهت إلى محاولة جمع الفايكنج على فكرة الولاء لنظام الحكم الجديد، وربطهم بقوانين وقوالب مستحدثة ^(٢) حين بزغت الملكية في النرويج في القرن التاسع، وحينما ظهرت أيضاً هذه الملكيات في كل من السويد والدانمارك في القرن التاسع ^(٣).

غير أن طبيعة هذه الشعوب وانطلاقها وحبها للمغامرة لم يترك فرصة للاستجابة لهذه الأمور فاندفع أغلبهم في إغارات متتالية على سواحل أوروبا لإشباع نهمهم للحرب والقرصنة والمغامرة ^(٤).

ويقول محمد مرسي الشيخ: " والأرجح ما ذهب إليه هاسكنز من أن التغييرات السياسية التي طرأت على المجتمع الفيكتوري كان لها دخل كبير في تلك الهجرة التوسعية الكبرى" ^(٥).

(١) سعيد عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : ص ١٧٦ .

(2) The Normans in European History , New York 1959 , P. 29

(٣) محمد مرسي الشيخ : الملوك الجermanية: ص ٢٦٠

(4) Haskins: The Normans in European History: P. 29 - 30 .

(٥) تاريخ أوروبا: ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الممالك الجermanية: ص ٢٦١



غير أن المؤرخ فيشر: يرى أن أسباب حركة الشماليين هو حب الغنيمة والاسترشاد بالنجوم في الرحلات الطويلة إلى غير ذلك من المغريات يضاف إلى ذلك ما أظهره الفايكنج من تعصب ديني شديد تجلى في هجومهم على الأديرة واستباحتها ونهب ما حوتها الكنائس من تحف ونفائس^(١).

ولا شك أن هذه الأسباب مجتمعة كانت الدافع لخروج الفايكنج من بلادهم متوجهين إلى أوروبا لتحقيق أهدافهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٣- الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنج بأوروبا.

مرت غزوات الفايكنج (النورمان) في أوروبا بعدة أدوار يمكن تقسيمها على النحو التالي:

الدور الأول: دور الهجوم:

بدأ هذا الدور في أواخر القرن الثامن أي منذ سنة (٧٨٩/٥١٧٣) عندما أخذ الفايكنج يهددون شواطئ إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، وفي ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض إمبراطوريته لهجمات الفايكنج، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلًا خطيرًا إلا بعد وفاة شارلمان، وقد تميزت غارات الفايكنج في دورها الأول بأنها كانت تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة، وتم في فصل الصيف، وتنتهي بالعودة قبل حلول فصل الشتاء كما كانت تضم جماعات صغيرة نسبيًا تعمل غالباً لحساب أحد الأمراء^(٢).

الدور الثاني: دور الاستقرار:

لم تثبت الحركة التوسعية للفايكنج أن دخلت دور جديد عند منتصف القرن التاسع عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطئ البلاد التي يغيرون عليها أو عند مصبات

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة / محمد مصطفى زيادة . السيد الباز العربي - دار المعارف . القاهرة - الطبعة السادسة - ج ١ ص ١١٨ وما بعدها، محمد مرسي الشيخ : الممالك герمانية: ص ٢٦٢

(2) Oman : The Dark Ages : P . 415



أنهارها، وبعد أن كانوا في الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور يغدون على بلاد غرب أوروبا في هيئة جموع ضخمة فتطورت حركتهم إلى حركة توسعية استيطانية تتم بجماعات كبيرة أو جيوش تعمل لحساب أمير أو مجموعة من الأمراء، حيث كان الفايكنج يحملون معهم نسائهم، وأطفالهم يتبعون الاستقرار بالبلاد التي يغدونها أو بقرب مصبات أنهارها أو في الجزر القريبة من شواطئ تلك البلاد^(١).

وقد استطاع الفايكنج أن يقيموا مستعمرة قصيرة العمر في أيرلندا عام (٨٤٣م) كما قضوا الشتاء لأول مرة في إنجلترا سنة (٨٥١م)، وكذلك أخذوا يستقرون ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد باسم نورمنديا، ولكنهم أخذوا يتغلبون تدريجياً داخل البلاد وكلما هجر الأهالي الأجزاء القريبة إلى الداخل تتبعهم الفايكنج^(٢).

الدور الثالث: دور الدفاع:

ويتميز بمقاومة أهل البلاد للفايكنج ونحاجهم في طردتهم من أجزاء كثيرة^(٣) ويبدو أن قسوة الفايكنج المتزايدة والمذابح البشرية الرهيبة فضلاً عن الإغارة على الكنائس والأديرة، واستباحتها ونهب ثرواتها قد أوجد شعوراً طافحاً ضد هؤلاء الغزاة تبلور في مقاومة عنيفة قادها بعض أمراء القارة والجزر البريطانية؛ فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لجانب كبير من عبث هذه الشعوب المتبررة، وليس هناك شك في أن غارات الفايكنج على أوروبا، إنما جاءت من أجل الهدم، وأنها كانت تؤدي بكل معالم الحضارة في غرب أوروبا إلى الهاوية^(٤).

(١) محمد مرسي الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٩٩.

(٢) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٧٨.

(٣) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ج ١ ص ١٢١.

(٤) محمد مرسي الشيخ : الممالك герمانية: ص ٢٦٤.



إن الحضارة الأيرلندية التي أضاءت الأفق الأوروبي منذ قرون لم تستطع أن تعود إلى نورها القديم بسبب ما أنزله النورمان بأيرلندا من التحريب^(١). إضافة إلى ما أزلوه من تدمير وخراب وإنجلترا والإمبراطورية الكارولنجية (فرنسا) وهولندا كما هاجموا سواحل الأندرس لكي يُنزلوا بها الخراب والدمار الذي اعتادوا عليه لولا يقظة أمرائها.

ثانياً: الفايكنج وغاراتهم على أوروبا (إنجلترا، أيرلندا، فرنسا، الأندرس، صقلية): لقد كانت حركة القرصنة التي قام بها الفايكنج حركة توسعية كبيرة شملت العديد من دول أوروبا، فمخرت قواربهم الصغيرة المحيط الأطلسي، فاكتشفوا جرينلاند وأميركا الشمالية، وأقاموا مملكة في دبلن بأيرلندا، واستولوا على إنجلترا وشمالي فرنسا، وهبطوا إلى فريزيا وأغاروا على إسبانيا، وهاجموا بلاد المغرب الأقصى، وموانئ الريفيرا وإيطاليا، ووصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط، وبلغوا بحر قزوين والبحر الأسود، وأنشئوا مستعمرتين في نوفجورود وكيف، واتخذ منهم الأباطرة البيزنطيين حرساً لهم، واتصلوا باللاتينيين واليونانيين والعرب، كما اتخذوا لهم أوطاناً في صقلية وأيسلندا، ويرى البعض أنه من الخطأ اعتبار الفايكنج مجرد قراصنة محترفين، فالواقع أنهم نزعوا إلى ممارسة التجارة؛ إذ كانت لهم علاقات تجارية مع الفريزيين والسكسون قبل أن يتعرضوا لغزو الفرنجة الأمر الذي كان له أثر سيئ في تجارة الفايكنج مع هؤلاء الأقوام^(٢).

في إنجلترا، فقد بدأت غارات الفايكنج عليها منذ أواخر القرن الثامن الميلادي وبالتحديد عام (٧٨٧م) فrust سفنهم قرب دورشستر في هذا العام، ونهبوا أسقفية لندسفرين عام (٧٩٣م) ثم توقفت حملاتهم حتى عام (٨٣٥م) واستطاعوا من ذلك الوقت أن يقيموا لهم ملكاً وجعلوا دبلن عاصمة لهم، ثم انساحوا في معظم المدن،

(١) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ج ١ ص ١١٨.

(٢) السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ص ٣٥٢



وجعلوا من إنجلترا موطنًا لهم، كما أنهم فرضوا إتاوة على بقية البلاد، وحصلوا على العديد من الغنائم، واستمر الفايكنج يهاجمون مدن إنجلترا حتى استطاع ألفريد العظيم ملك وسكس^(١) (٨٤٩-٨٩٩م) أن يطردهم من معظم الأراضي الإنجليزية التي احتلوها لكن بعد عدة حروب مديدة وطويلة، وبعد وفاة ألفريد عام (٨٩٩م)، أخذ خلفاؤه يغزون أراضي الفايكنج تدريجيًّا حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي أصبح يستحق لقب ملك إنجلترا في التاريخ^(٢).

أما أيرلندا، فكانت الهدف الرئيس لغارات الفايكنج في السنوات الأولى من القرن التاسع، ففي عام (٨٣٤م)، أغروا على الشطر الأكبر من الجزيرة فدمروا حضارتها، وأقاموا لهم قواعد على السواحل أخذوا يوجهون منها الحملات على إنجلترا، ثم أoggledوا في أيرلندا فاستباحوا الأديرة وأخذوا منها العديد من الأموال، ثم بعد ذلك تحولت حملات الفايكنج على أيرلندا إلى نوع من الاستقرار في البلاد التي نهبواها^(٣).

أما فرنسا، فقد بدأت غارات الفايكنج (النورمان) عليها في حياة شارلمان (٧٧١-٨١٣م) الذي أدى توسيعه شماليًّا إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبين الفايكنج،

(١) ألفريد العظيم هو ملك أنجلو سكسوني حكم مملكة وسكس من سنة ٨٧١ حتى سنة ٨٩٩م. اشتهر بدفاعه عن مملكة الأنجلو ساكسون في مواجهة الفايكنج ليصبح الملك الإنجليزي الوحيد الذي حصل على لقب "العظيم" (يقال أنه كان دنماركيًا)، وكان أول الملوك الذي سموا بملوك الأنجلوساكسون. وكان متلقاً ومشجعاً للتعليم كما قام بتحسين النظام القضائي والهيكلية العسكرية. توفي يوم ٢٦ أكتوبر ٩٠٩م، ومملكة وسكس تم تأسيسها في فترة العصور الوسطى بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، وهي إحدى الممالك السبعة لإنجلترا الأنجلو سكسونية في القرن الخامس وحتى توحيد مملكة إنجلترا في أوائل القرن العاشر، وكانت الأسرة التي تحكم الدولة أنجلو سكسونية هي أسرة وسكس (موقع الموسوعة الحرة).

(٢) موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة/ علي السيد علي - المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م ص ٤٠، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٨٨-١٩١.

(٣) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦٢، ٣٦١، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٩٢.



ولم تلبث أن ساعت العلاقات بين الطرفين بسبب حماية الفايكنج للسکون الهاربين من وجه شارلمان، ومنذ ذلك الوقت، لم تقطع غارات الفايكنج على شواطئ الإمبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يداهموا إحدى القرى أو المراكز السياحية، وفي عهد لويس التقي^(١) خليفة شارلمان استغل الفايكنج الخلافات الداخلية حول تقسيم الإمبراطورية وأنزلوا قواتهم على شاطئ فريزيا عام (٨٣٥) وفي عام (٨٣٧) وصلوا عند مصب نهر الراين، وبعد وفاة لويس التقي عام (٨٤٠) اشتلت حملات الفايكنج على فرنسا، فأوغلوا في نهر السين، واستولوا على روان، وتوجلوا في نهر الألبه ونهبوا سكسونيا وفريزيا التي أصبحت شواطئها قلاعاً للفايكنج، ثم استولوا على بعض المدن الجنوبية، فاستولوا على بوردو كبرى مدن الجنوب ونهبواها عام (٨٤٧) وظلت بأيديهم عدة سنوات، ولا شك أن سيطرة الفايكنج على هذه المدن كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة الأمر الذي شجعهم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد كبيرة، ففي عام (٨٨٥) حاصروا باريس بنحو ٧٠٠ سفينة وأربعين ألف رجل، وعلى الرغم من هذه الأعداد الضخمة، إلا إنهم لم يستطعوا الاستيلاء عليها، وفي عام (٩١١) عقدت اتفاقية سانت كلير^(٢) بين الطرفين تسلم بمقتضاهما الفايكنج الإقليم الساحلي الذي نسب إليهم بعد ذلك فعرف باسم نورمنديا^(٣).

(١) لويس الأول ويسمى أيضاً لويس الورع أو التقي ملك الفرنجة ورأس الإمبراطورية الكارولنجية بين عامي ٨١٤ - ٨٤٠ م. ملك أكيتنانيا من عام ٧٨١، إمبراطور (باسم لويس الأول) وملك الفرنجة بالاشتراك مع والده شارلمان من سنة ٨١٣ م. صار الحاكم الوحيد للفرنجة إثر وفاة والده عام ٨١٤ م. كلف لويس خلال حكمه في أكيتنانيا بالدفاع عن حدود الإمبراطورية الشمالية. انتزع برشلونة من المسلمين سنة ٨٠١ م وأعاد بسط سلطان توفي عام ٨٤٠ م (موقع الموسوعة الحرة).

(٢) عقدت معااهدة سانت كلير عام ٩١١ م بين الملك شارل الثالث ملك الفرنجة الغربيين ورولو، زعيم الفايكنج. وعلى إثرها تأسست دوقية نورماندي تلك الدوقية التي سميت نسبة لسكانها النورمان (موقع الموسوعة الحرة).

(٣) العرينبي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦٣، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٨٦، ١٨٧.



أما الأندلس (أسبانيا والبرتغال حالياً)، فقد بدأت غارات الفايكنج عليها منذ عام (٨٤٤هـ/٧٣٠م) في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٠هـ/٨٥٢-٨٢٢م)، حيث ظهروا فجأة أمام مدينة لشبونة في أربعة وخمسين مركباً ومثلها أو أكثر قوارب وانحدروا بعدها إلى أشبيلية، ثم قرطبة، ثم عادوا إلى أشبيلية بعد عدة أحداث ومعارك، وقد ارتكبوا خلال ذلك فظائع وفضائح من القتل والنهب والتدمير، ثم غادروا الأندلس إلى عرض البحر^(١).

وعلى الرغم من المقاومة التي أظهرها أهل الأندلس في صد أولئك الغزاة، إلا إنه يبدو أن غاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إرسال سفارة إلى ملك الفايكنج، وقد انتدب الأمير عبد الرحمن أحد الرجال البارزين في بلاطه للقيام بسفارة إلى بلاد النورمان، وهو الشاعر يحيى بن حكم الغزال، ويبعدو أن ما توصلت إليه هذه السفارة لم تكن إلا اتفاقاً مرحلياً؛ لأن النورمان عاودوا هجومهم على الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وذلك في سنة (٨٥٩م/٥٢٤هـ) وسنة (٨٦١م/٥٢٧هـ)، ولكن لم يستطع النورمان أن يحققوا في هذين الهجمتين انتصاراً يذكر، بل على العكس دُحرروا، وردوا على أعقابهم دون أن يتمكنوا من إلحاق أذى كبير بال المسلمين؛ ويعود السبب في ذلك إلى أن جهود الأمير عبد الرحمن الأوسط كانت قد أينعت في عهد ولده الأمير محمد، فكان للاحتجاطات الدافعية التي اتخذها في تقوية الأسطول والمحارس والرباطات التي أقامها على طول الساحل الغربي للأندلس، أثر كبير في رد الغزاة والتقليل من شأن هجومه^(٢).

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ص ٨٠.

(٢) سعيد عاشور: تاريخ أوريا في العصور الوسطى: ص ٢٠٠، خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب المتحدة - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م ص ١٣٢.



عبد الرحمن الحجي : العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وغرب أوروبا ص ١٧١ .

وفي عام (١٤٥٤هـ/١٨٦٤م)، خلال عصر الحكم المستنصر (٣٥٠هـ/١٩٦١م) ظهرت مراكب المجروس (الفايكنج) في البحر الكبير (المحيط الأطلسي) وأفسدوا بسائط أشبونة، وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل^(١).

وفي عامي (٥٣٦٠/١٧٤٨م) و (٥٣٦١/١٧٣٨م)، عاد النورمان لغزو سواحل الأنجلس الغربية في فلم يك يمضي على رحيلهم من الأنجلس سوى خمس سنوات حتى عاودوا هجومهم مرة أخرى، فأزعج السلطان قائد البحر بالخروج إليهم^(٢). وفي عصر ملوك الطوائف^(٣) وبالتحديد عام (٤٥٦/١٦٤٥م) : عاود الفايكنج هجومهم على الأنجلس ونزلوا على مدينة

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: المحقق: خليل شحادة - دار الفك - بيروت - الطبعه: الثانية ٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - ١٤٣٤هـ.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب: ج ٢ ص ٢٤١.

(٣) في عام (١٤٠٩هـ / ١٠٠٩م) بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام (١٤٨٤هـ / ١٠٩١م)؛ وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نثرتها الأطعماً والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعى بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتتفق صفاً واحداً أمام أعدائها وانقسمت الأندلس إلى دوبيلات، واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دوبيلتهم فأحدهم: ملك أو أمير، أو والٍ أو قاضٍ؛ ونظراً لاختلاف القوى والسياسات، فقد أخذت القوى يبسطن بالضعف، والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحياناً يستجذب بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ، وقد عرف هذا العصر باسم عصر ملوك الطوائف أو عصر الفرق (محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس: مكتبة الخانجي، القاهرة - الجزء الثاني الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م صفحات متفرقة بتصرف).



بريشتر^(١) فحاصروها أربعين يوماً حتى دخلوها عنوة، فقتلوا عامّة رجالها وسبوا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة، ويدرك أنهم اختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهل الحسن منهم خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه^(٢).

وبالمقارنة بين غارات الفايكنج (النورمان) على أوروبا المسيحية والأندلس الإسلامية، نجد أن غاراتها على دول أوروبا المسيحية حققت ما تصبو إليه، فاستولوا على المدن، وأخذوا الكثير من الغنائم بل استقروا في بعض المناطق وأنشئوا فيها حكماً ذاتياً لهم مثل نورمنديا، وهذا يرجع من وجهة نظري إلى ما كانت تعانيه أوروبا في ذلك الوقت من ظلام دامس، ومن صراع وتناحر على السلطة بين أفراد البيت الواحد، الأمر الذي ساعد الفايكنج في نجاح حملاتهم على أوروبا المسيحية، أما الأندرس، فقد كانت هي البقعة المضيئة في أوروبا في ذلك الوقت وتحت حكم الدولة الأموية القوية التي اهتمت بكل شيء من علوم وفنون، إضافة إلى يقظة حكام الأندرس واهتمامهم بالجيش وبالبحرية الإسلامية، ولذلك لم يحقق الفايكنج من حملاتهم عليها سوى بعض الغنائم التي استولوا عليها، لكن في عصر الطوائف عندما انقسمت الأندرس إلى ممالك وطوائف ودب الصراع بين أمرائها نجح الفايكنج في الاستيلاء على بعض المدن وهي مدينة بريشتير، وعلى الرغم من أنهم لم يمكنوا فيها طويلاً، إلا إن ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم هو الذي مكّنهم من ذلك.

(١) بريشتير : مدينة في شرقى الأندرس من أمهرات مدن الثغر الفائقة في الحصانة والامتناع (ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ): معجم البلدان: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٩٩٥ م ج ١ ص ٣٧٠).

(٢) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ): المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٢ م ج ٢ ص ٩١٠.



أما صقلية، فقد ظل النورمان لمدة ثلاثين عاماً يرسلون حملاتهم عليها، حتى تم لهم الاستيلاء على الجزيرة وانتزاعها من أيدي المسلمين عام (٥٤٨٤هـ/١٠٩١م) وأقاموا فيها دولة استمرت حتى عام (٥٩١هـ/١١٩٤م) عندما استولى عليها هنري السادس إمبراطور ألمانيا^(١).

- التواصل الحضاري للفراصنة الفايكنج (النورمان):

يرى البعض أن الفايكنج لم يكونوا ببرأة بمعنى الكلمة؛ وذلك لأنهم أظهروا مزيجاً عجيباً من البدائية والنزعة الحضارية، إذ ظلوا محتقظين ببعض تقاليدهم البدائية من جهة، في حين فاقوا كثيراً من شعوب أوروبا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري، وبصفة خاصة الحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي من جهة أخرى^(٢).

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة: ترجمة/ زكي نجيب محمود وأخرين - دار الجيل - بيروت - لبنان - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٨٨/٥١٤٠٨ م ١٥ ص ٢٥٩. وهنري السادس كان فرداً من أفراد سلالة آل هوهنتشلوفن، وملك ألمانيا (ملك الرومان) بين عامي ١١٦٩ - ١١٩٧، والإمبراطور الروماني المقدس، من عام ١١٩١ حتى عام ١١٩٧، عام ١١٩٤، وملك صقلية من عام ١١٩٤ إلى حين وفاته في ٢٨ سبتمبر عام ١١٩٧م. كان الابن الثاني للإمبراطور فريدرick الأول ببروسيا وزوجته بياتريس الأولى من بورغندي، كان هنري شاعراً ماهراً ورعاياً للشعراء. تزوج في عام ١١٨٦ من كونستانس ملكة صقلية، ابنة ملك النورمان روجر الثاني. احتل صقلية في عام ١١٩٤، هدد هنري باحتلال الإمبراطورية البيزنطية بعد عام ١١٩٤ ونجح في الحصول على فدية، أو الضريبة الألمانية من الإمبراطور ألكسيوس الثالث أنجيلوس مقابل إلغاء الغزو. ضم مملكة قبرص ومملكة أرمينيا الصغرى إلى إمبراطوريته بشكل رسمي وأجبر تونس وإقليم طرابلس على دفع ضريبة له، خطط للتغيير نظام حكم = الإمبراطورية الرومانية المقدسة من نظام انتخابي إلى ملكي، المشهورة باسم (erbreichsplan)، ولكنه قوبل برفض قاطع من قبل الأمير الناخب وتنازل عن خطته. تعهد هنري بإطلاق حملات صليبية في عام ١١٩٥، وبدأ بتجهيز الحملات. قمع تمرد في مملكة صقلية عام ١١٩٧، رست سفن جنود الحملات الصليبية في نفس السنة على شواطئ الأرضي المقدسة، لكن قبل أن ينضم إليهم، مات هنري بسبب المرض في مدينة ميسينة في ٢٨ سبتمبر عام ١١٩٧م. أقحم موته الإمبراطورية في نزاعات العرش الألماني لمدة ١٧ عاماً (موقع الموسوعة الحرة).

(٢) Haskins: The Normans in European History: P. 36. ، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠١.



ونتيجة لهذا الرأي: فإن الفايكنج كانوا أصحاب حضارة على الرغم من بداوتهم. بينما يرى البعض الآخر: أن الفايكنج على الرغم من أنهم كانوا رحلة عظام أنجزوا مغامرات بارزة في عالم الملاحة، وكانت مدنهم مراكز تجارية عظيمة، وكان فنهم أصيلاً مبدعاً ومؤثراً، وقد تباهوا بأدبهم الرفيع وثقافتهم المتقدمة، إلا إنهم لم يكونوا أصحاب حضارة، ويعلل أصحاب هذا الرأي ذلك: بأن لمسة الإنسانية، والتي هي علامة الحضارة كانت غائبة عنهم تماماً، وأن الطفل الغربي عندما يذهب إلى المدرسة كان يلقب بإسمه أن الشرق الأدنى هو مهد الحضارات، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت في مصر وفيما بين النهرين يغذيها نهر النيل وأحواض نهري دجلة والفرات، ومن هنا انتشرت الحضارة إلى كريت واليونان، ومن ثم إلى روما وأخيراً إلى برابرة شمالي أوروبا^(١).

وفي رأيي: أنه يمكن التوفيق بين الرأيين، ففي البداية وقبل اتصال الفايكنج بأوروبا، فإنهم لم يكونوا أصحاب حضارة، فلم تعرف عنهم أوروبا سوى أنهم مجموعات متاثرة ومنغلقة من قراصنة البحار أتوا من إسكندنافيا بعرض التجارة أو القرصنة أو كليهما معاً.

أما بعد اتصالهم بأوروبا، فقد تغيرت بعض صفاتهم وتحولوا من قراصنة كان كل هدفهم الإغارة على المدن بقصد السلب والنهب إلى الاستيلاء عليها بقصد الاستقرار وإقامة حكم ذاتي لهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح لهم دول يحكمونها كنورمنديا وصقلية، وبالتالي راحوا يتعرفون على الحضارات التي كانت قائمة في هذه الدول قبل قدومهم، فتهذبت طبائعهم وسلوكياتهم، وأصبحت لهم حضارة خاصة بهم راحوا يعملون على ازدهارها ونشرها. وبالتالي، فإن حضارتهم كانت مزيجاً من الحضارات الأخرى الإسلامية والأوروبية، إضافة إلى احتفاظهم ببعض سماتهم الأولى كالحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي.

(١) مايكل كرايتون: أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضلان: دار الهلال - الطبعة الثانية ١٩٩٩ م ص ١٤-١٢.



وفي النهاية يمكن القول: بأن الفايكنج أصبحوا أصحاب حضارة مستحدثة أثرت وتأثرت بغيرها من الحضارات الأخرى لاسيمما الحضارة الأوروبية المسيحية، والحضارة الإسلامية، وأصبح هناك تواصل حضاري مع هذه الحضارات.

١ - التواصل الحضاري للفايكنج مع أوروبا المسيحية:

- بين الوثنية والمسيحية:

تعددت الآلهة عند الفايكنج وكانوا مؤمنين بهذه العقائد الوثنية، وكان من ضمن آلهة الفايكنج: (أودن) وهو الأهم، لأنه يمثل إله الحرب، أما (ثور)، فهو الزعيم وكبير الآلهة، وهو إله الرعد، (بالدر) إله الضوء، و(فراي) إله الخصب، وغيرهم الكثير، ومن معتقداتهم أن الآلهة تحارب مجموعة من العمالقة ونهاية الكون ستكون بمعركة كبيرة. كما اعتقدوا أن الشمس فتاة والقمر هو الفتى يعكس كل الاعتقادات الأخرى في العالم، وأن ذئباً عملاً يجري وراءهم كل يوم وهم يركبون على عربتهم التي تجرها الخيول، وفي كل شهر كان يقطم الذئب قطعة من القمر ويقتل بفعلته إلا إنه يتعافي، وقد ظل الفايكنج يدينون بهذه المعتقدات الوثنية الخرافية حتى اختلطوا ببلاد أوروبا واعتنقوا المسيحية، ويرى البعض أن أول معرفة الفايكنج بال المسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين، وقد أخذت البعثات التبشيرية تتردد على اسكندنavia والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن، وبعد ذلك عمل لويس التقى على نشر المسيحية بين الفايكنج بالطرق السلمية، فأغرى هارولد ملك الفايكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه عام (٨٢٦م)^(١).

وفي عام (٩١١م) عقد ملك فرنسا شارل البسيط معاهدة سانت كلير مع زعيم الفايكنج، حيث أعطاهم منطقة في شمال البلاد، واشترط عليهم أن يعتنقوا المسيحية، ويوافقوا غاراتهم على بقية أراضيه، بل ويساعدوه في صد غارات الآخرين. وهذا ما حدث بالفعل، وسميت تلك المنطقة بالنورماندي، وصارت دوقيه عظيمة الشأن في فرنسا^(٢).

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٢.

(٢) موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٩.



أخذت بعد ذلك المسيحية تنتشر تدريجياً على حساب الوثنية بين الفايكنج، ليس في بلادهم الأصلية فحسب، بل في المواطن الجديدة التي هاجروا إليها واستقروا فيها سواء في غرب أوروبا أو شرقها، وليس هناك من شك في أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثراً واضحاً في مستقبل أوروبا وتاريخها^(١).

إن تحول الفايكنج إلى المسيحية بيانة رسمية يعد أحد الأسباب الرئيسية لنهاية عصرهم، حيث أدانت الكنيسة غزوات الفايكنج المتكررة التي كان يذهب ضحيتها مسيحيون آخرون مما دفعهم للتوقف عن غزواتهم الدموية لأسباب دينية، بل إنهم صاروا حماة لهذا الدين، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للكنيسة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، فلم تمض مائة عام على تملكهم نورمنديا حتى غدوا حماة أقوياء للمسيحية، فراحوا يدافعون عنها ويُسيرون الحملات باسمها، فقد شاركوا في الحملة الصليبية الأولى^(٢)، ثم قاموا بحملاتهم الصليبية على شمال إفريقيا فيما بعد^(٣).

تأثير الفايكنج في أوروبا:

ترك الفايكنج أثراً حضارياً واضحاً في كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلندا وإنجلترا وملحقاتهم الطبيعية، فإذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفايكنج قد أخذت تتلاشى تدريجياً من البلاد التي نزحوا إليها واستقروا فيها، فإن هذه العناصر قرر لها البقاء في أقصى الغرب أي في أيسלנד وجرينلاند، حيث ازدهرت حضارة الفايكنج، وأصبح تراثهم مصدراً لتطور مبتكراً يختلف عن أي تطور حضاري آخر في القارة الأوروبية، وقد بلغ التقدم الحضاري في جرينلاند بعد استقرار الفايكنج فيها أن أديرتها في جرينلاند بعد استقرار الشماليين فيها أن أديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم أنابيب

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٢.

(٢) ستيفان رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ترجمة/ السيد الباز العريني - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ج ١ ص ٧، ٢٢٠.

(٣) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦٤، ممدوح حسين: الحملات الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري: دار عمار - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م صفحات متفرقة.



المياه الدافئة في التفاحة داخل الأديرة، في حين استمدت هذه الأنابيب مياهاً من ينبع دافئ طبيعياً هذا فضلاً عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به أهالي جرينلاند وأيالند في الميدان الاقتصادي، إذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت إلى البلاد القريبة^(١).

وفي ميدان اللغة، فقد أثرت اللغة النوردية القيمة على اللغة الإنجليزية حيث كان التأثير اللغوي طويلاً الأجل لمستوطنات الفايكنج في إنجلترا تأثراً ثالثاً: حيث أصبحت أكثر من ألف كلمة نوردية قديمة في النهاية جزءاً من اللغة الإنجليزية الرسمية؛ وتمتلك أماكن عديدة في شرق إنجلترا وشمالها الشرقي أسماء دانماركية، والعديد من الأسماء الشخصية الإنجليزية لها أصول إسكندنافية^(٢).

وفي ميدان الأدب: فإن المجموعة الضخمة من أساطير الساجا saga وأشعار الأدا تعتبر خيراً ما يدل على التقدم الأدبي وبخاصة في أيالند أما الساجات، فهي أساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعي واتزانها واستقامة نظرتها إلى الحياة والطبيعة وإذا كانت هذه الأشعار تتخطى على شيء من الخسونة والبربرية، إلا أنها تعبر تعبيراً ساماً عن روح البطولة، كما تحرص على إبراز الغرض الأسمى الذي يسعى إليه البطل، وهكذا يرجع الفضل إلى الفايكنج عندما أنتجت جزر أوروبا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبًا رفيعاً من أعظم ما أنتجها أوروبا في العصور الوسطى^(٣).

وفي النهاية، يمكن القول بأن حضارة الفايكنج أثرت وتتأثر بالحضارة الأوروبية، فقد هذبت الحضارة الأوروبية في شعوب الفايكنج، فغارتهم على أوروبا لم تثبت أن تحولت من لصوصية إلى فتوحات، ومن فتوحات إلى استقرار، فالفايكنج الذين خربوا الأديرة في أيرلندا هم الذين أسسوا المدن التجارية فيها، والفايكنج الذين هدموا مدينة أرمادن في

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٣.

(٢) موقع الموسوعة الحرة: تحت عنوان عصر الفايكنج.

(٣) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٣.



هم الذين أشأوا مدن وترفورد وبلن ووكسфорد عوضاً عنها، أما في إنجلترا وفرنسا، فقد أثر الغالبون والمغلوبون في بعضهم البعض تأثيراً باقياً، لا بسبب اختلافهم وتباينهم في الصفات بل بسبب تشابههم فيها، ولا سيما النجابة والمرونة والوعي، فالفايكنج في إنجلترا صاروا إنجليزاً، وفي نورمنديا صاروا فرنسيين وتقبل هؤلاء وأولئك المسيحية والثقافة اللاتينية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المسيحية، ولم ينته القرن العاشر حتى صار الفايكنج جميعاً في دائرة الحضارة الرومانية اللاتينية^(١).

٢ - التواصل مع المسلمين:

ظهر الإسلام في القرن السابع كقوة حضارية وروحية وإمبراطورية عازلة بين أوروبا وأفريقيا، وما تلى ذلك من أحداث امتدت فصولها عبر قرون بدأت بفتح الشام وباقطاع جنوب المتوسط عن الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على الأندلس وفتح القسطنطينية، جعلت غاية الإسلام من هذا التواصل البحث عن نقاط الالتقاء عن طريق المنطق والعقل، والفهم للوصول إلى أرضية مشتركة تعتمد على المصالح المتبادلة. أما الغاية الأخرى، فهي الماتفاق والتلاحم الفكري الذي يسمح بالتأثير والتأثير بين الحضارات^(٢).

لقد أثرت الحضارة الإسلامية في الفايكنج كما أثرت وتأثرت بغيرها من الأمم الأخرى، وقد كان التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج عند طريق عدة وسائل منها:

أ - السفارات:

لم يكن الإسلام غريباً عن أوروبا منذ بدء الفتوحات الإسلامية ونشأة إمارة الأندلس في جنوب أوروبا في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم). لكن الدلائل على التواصل والاتصال العربي الإسلامي بشعوب الفايكنج شمال أوروبا له شواهد قوية.

(١) موريس بيسبوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٧.

(٢) مريم آيت احمد: مستويات الحوار الحضاري: نقلاب عن: مجلة حراء، العدد: ٣٢، لسنة ٢٠١٢ م ص ٣٥.



ومن الوثائق التاريخية الشيقة والنادرة عن علاقة العالم الإسلامي بالفايكنج، ما سجله الرحالة الإسلامي الكبير (أحمد بن فضلان العمري) في رحلته الشهيرة إلى بلاد الفايكنج، حيث ذهب إلى ملك الفايكنج بسفارة خاصة عام (٩٢١/٥٣١٠ م) من الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٣٤-٩٠٨/٥٣٢٠-٢٩٥ م) استجابة لوفد من طرف ملك الفايكنج وصل بغداد ملتمساً إرسال سفارة إلى مملكته لشرح مبادئ الإسلام، وأموال لبناء مسجد وقلعة حصينة يحتمي بها من أعدائه^(١).

وقد حظيت هذه الرحلة باعتماء واسع من علماء التاريخ في العالم، وترجمت لعشرات اللغات، وصارت واحدة من أهم المراجع في تاريخ الفايكنج ومعرفة عاداتهم وسلوكياتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وقد بدأ الفايكنج في التفكير بتكرار تجربة إنجلترا الناجحة في العالم الإسلامي، وذلك من جهتين مختلفتين: من الشرق بالهجوم على ثغور الدولة العباسية، ومن الغرب بالهجوم على سواحل الدولة الأموية في الأندلس، وقد تباينت الاستفادة السياسية والإستراتيجية بين الدولة العباسية والأندلس تبايناً كبيراً يكشف الوعي الحضاري الذي كان عليه مسلمو الأندلس^(٢).

وصف ابن فضلان أجسام الفايكنج وصفاً تفصيلياً، بأن لهم أجساداً طويلة مثالية وصفها كأشجار النخيل، كما وصف نساءهم بأنهن يرتدين مربيعات من الحديد أو الذهب أو الفضة فوق صدورهن، وتشير قيمة المربع إلى ثروة الزوج كما وصف طقوس الجنازة، بأن الميت يستمر لعدة أيام، ويكون من طقوس مختلفة، حيث يتم إعداد الرجل المهم الميت من أجل إحراقه، جنباً إلى جنب مع بعض العبيد والفتيات اللاتي تطوعن للموت مع سيدهن^(٣).

(١) ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد ٩٣١٠ هـ): رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة: دار السويدى - أبو ظبى الطبعة: الأولى ٢٠٠٣ م ص ١٧، ٣٩.

(٢) شريف عبد العزيز: هجوم الفايكنج على العالم الإسلامي: مقال بموقع ملتقى الخطباء.

(٣) رحلة ابن فضلان: ص ١٠١، ١٠٢.



ويلاحظ أن ابن فضلان اختار وصف العادات والسلوكيات الغربية التي تختلف عن الممارسات والقيم الإسلامية، ومن ذلك (النظافة والعادات الصحية، والنكاح)، فعلى النقيض من جمالهم الجسدي، فقد وصفهم بأنهم أذناء خلق الله لا يستجون من غائط ولا بول ولا يغسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة ينكح الواحد منهم جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه، كما أنهم يستعملون وعاء واحد من الماء في اليوم يكاد لا يخلو من كل تلك القذارة، حيث تملئ الخادمة كل يوم قصعة لسيدها فيغسل، ثم يبصق فيه أيضاً أو ينطف أنفه، ثم بعد أن ينتهي تقوم الخادمة بتمرير نفس الحوض بنفس الماء لباقي أفراد العائلة دون تغيير الماء^(١).

يعتبر هذا الوصف مشيناً ومقرراً بالنسبة لمسلم مثل (ابن فضلان) ومن الممكن أن دينه قد حثه على عدم استخدام مياه راكدة أو غير نظيفة لمجرد الوضوء.

كما وصف (ابن فضلان) طبيعة ملك الفايكنج بأن له ٤٠٠ رجل في قصره، يجلسون حول عرشه المرصع بالأحجار الكريمة، وهم من أشجع الرجال، الذين يموتون مع الملك ويقتلون من أجله، وكل منهم جارية من الرقيق تخدمهم وتعمل على راحتهم^(٢).

وفي الحقيقة كان (ابن فضلان) رجلاً مميزاً فضله الخليفة بسبب مؤهلاته الدينية والدراسية والأدبية مما جعله مرشحاً أساسياً لقيادة حملة سياسية ودينية عظيمة كهذه إلى بلاد الفايكنج، مما جعله أفضل من وصفهم وشعوبهم قديماً، ولاشك أن ابن فضلان قام برسالة الخليفة على أكمل وجه فعرفهم بالإسلام وحضارته فكانت هذه السفارة أول تواصل حضاري دبلوماسي بين المسلمين والفايكنج.

(١) رحلة ابن فضلان: ص ١٠٣، ١٠٢.

(٢) رحلة ابن فضلان: ص ١١١، ١١٠.



يتسأل بعض الباحثين ويقول: هل كان هناك اتصالات بين المسلمين والبلغار قبل رحلة ابن فضلان عام (٩٢١هـ/١٣١٠م)? ثم يجيب قائلاً: لابد من القول: إن الدين الإسلامي دين لجميع الناس، وإنه وصل إلى بقاع العالم من خلال الدعاة والتجار والجيوش والسفارات، وغير ذلك، وإن انتشار الإسلام إلى بلاد البلغار لا يشذ عن تلك القواعد، إلا إنه من المؤكد أنهم عرفوا الإسلام واعتنقوه قبل رحلة ابن فضلان، ولكن بفترة تبدو قصيرة؛ لأن الرحلة جاءت استجابة وردًا لملك الصقالبة (البلغار) إلى الخليفة العباسى المقتدر بإرسال بعثة لتفقيههم بالدين الإسلامي، وهذا يعني أنهم حديث عهد بالإسلام، وأن إيمانهم كان سطحيًا؛ لأن معرفتهم به ربما كانت على يد بعض التجار وليس دعاء أو فقهاء^(١).

وأتفق مع الباحث في أنهم كانوا حديث عهد بالإسلام، ولذلك طلبوا من الخليفة المسلمين أعلى سلطة دينية وسياسية أن يرسل لهم من يفهمون في الدين، كما طلبوا منه بعض الأموال لبناء مسجد وقلعة حصينة يحتمون بها من أعدائهم، وهذا يعني أنهم أصبحوا يدينون بالولاء للخليفة وعليه حمايتهم لكونهم أصبحوا مسلمين.

إذن، كانت سفارة ابن فضلان وسيلة من وسائل التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج.

ومن السفارات الأخرى إلى بلاد الفايكنج سفارة يحيى الغزال والتي أرسلها الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٥٢-٨٢٢هـ/٢٣٨-٢٠٦م) إلى ملك الفايكنج بعد هجومهم على سواحل الأندلس عام (٩٤٤هـ/٢٣٠م)، فبعد أن هاجم أسطول الفايكنج شواطئ الأندلس، وعاد فساداً في بعض المدن الأندلسية تصدى له الجيش الأندلسي، وقتل قائد الفايكنج وأحرق عدد كبير من سفنهم وهرب باقي الفايكنج عائدين إلى بلادهم بعد هزيمتهم النكراء، وبعد الهزيمة

(١) طه خضر عبيد: الحضارة العربية الإسلامية: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ص ٢٥٤.



سعى ملك الفايكنج هوريك خلال المدة (٨٢٧-٨٥٤ م) إلى الصلح وعقد الهدنة مع الأندلس، فأرسل سفارة إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط لعقد معاهدة صلح بينهم فوافق الأمير عبد الرحمن وقام بإرسال يحيى الغزال سفيراً إلى بلاد الفايكنج بصحبة أحد وجهاء الأندلس وهو يحيى بن حبيب، فخرجا معاً إلى البحر المتوسط في مركب خاص بهما مع مركب رسول الفايكنج، وقد وصف الغزال تلك الرحلة وما لقيه السفيران المسلمين من أحوال البحر وشنته، وكيف أنهما أوشكا على الهاك، لكن في النهاية جازا تلك الشدائدين سالمين ووصلوا إلى بلاد المجروس (الدانمارك)، حيث كان مقر ملك الفايكنج بها، وتعتبر سفارة يحيى الغزال هي الأولى من نوعها من جانب المسلمين في الأندلس إلى الدانمارك وإسكندنافيا، التي يصفها بأنها بلاد المجروس وهي (جزيرة عظيمة في البحر المتوسط)، وقبل دخوله على ملك الفايكنج اشترط الغزال عليه ألا يسجد له، فأجابهما إلى ذلك، وأراد الملك أن يحرج الغزال فأمر بالباب الذي يفضي إليه، فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه الغزال جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على إبيته زحفاً، فلما جاز الباب استوى واقفاً والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، ولقي السفير المسلم من ملك الفايكنج كل ترحاب وعطف، وأفرد لإقامته وزملائه منزلة حسناً، وقدم إليه الغزال كتاب أمير الأندلس عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية، ولقي الغزال في بلاط الفايكنج كثيراً من الإعجاب، واستقبلته (نود) ملكة الفايكنج، وقد أعجبت برجاحة عقل الغزال وفطنته، وله فيها شعر غزل في جمالها، عاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً^(١).

(١) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت ٦٣٣ هـ): المطربي من أشعار أهل المغرب: تحقيق/ الأستاذ إبراهيم الإيباري وأخرون - دار العلم للجميع - بيروت - لبنان - ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م - ١٤٦-١٣٩ ص . سالم بن عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس: الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى ٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م - ج ١ ص ٢٤٣ .



وتعتبر سفارة الغزال هي الأولى من نوعها التي تصل إلى الدول الاسكندنافية، وإن كانت قد سبقت هذه السفارة رحلة أحمد بن فضلان الذي مر بتلك البلاد أثناء سفارته إلى بلاد الصقالبة، لكن ابن فضلان أسهب كثيراً في وصف تلك البلاد ووصف جغرافيتها، وتحدث عن عادات سكانها وتقاليدها، لكن اهتمام الغزال كان بالجانب السياسي وتأدية سفارته فلم يشغل نفسه بأي جانب آخر، وبهذه السفارة نجح الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأسلوب дипломاسي تجنيب بلاده هجمات أولئك القرصنة طيلة ما تبقى من حكمه، كما إنها تمثل أول تواصلاً حضارياً بين المسلمين في الأندلس والفايكنج.

ب - الاتصال التجاري بين بلاد الإسلام والفايكنج:

تعد التجارة من وسائل التواصل الحضاري بين الأمم في المقام الأول؛ ولأنها في هذه الفترة قد انتعشت وازدهرت بين الدولة العربية الإسلامية والدول المجاورة لها، ولازدهار النشاطات الاقتصادية الأخرى الزراعية والصناعية، وتأمين طرق التجارة الدولية، ومن الخطأ اعتبار الفايكنج مجرد قرصين محترفين، فالواقع أنهم نزعوا أيضاً إلى ممارسة التجارة، إذ كانت لهم علاقات تجارية مع الفريزيين والسكسون^(١).

ولعل التجارة الكبيرة مثل الفراء والعسل والجلود والعاج والأسماك وغيرها، كما كانت الفضة في ذلك الوقت ثمينة ومكلفة ، كما حرص العرب المسلمين على الحصول على البضائع الاسكندنافية من الفايكنج مثل القبعات والمعاطف المصنوعة من فرو الثعالب، كما إن عالم الآثار لا يجد صعوبةً في تمييز الأشياء الغربية الموجودة في مقابر الفايكنج مثل: عملة نقدٍ من بغداد مثلاً، وبال مقابل، فإن تجار الفايكنج كانوا يتقايضون المسکوكات النقدية والمنسوجات والفواكه المجففة مثل التمور، وحقيقةً، فإن الفايكنج استعملوا عملات النقد من أوروبا الغربية والعالم العربي، كما إن هناك آثاراً إسلامية أخرى كالقناديل

(١) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٥٢.



الإسلامية والكاسات بنقوش عربية، وعموماً تُعدُّ العملات الإسلامية (دراما الفضة) هي أول ما ظهر من العناصر في بلاد الفايكنج نحو نهاية القرن التاسع، فجلب تجار الفايكنج الفضة العباسية (نسبة إلى الدولة العباسية) بكميات كبيرة إلى الدول الإسكندنافية، وقد تم العثور على آلاف القطع منها في مناطق بحر البلطيق وروسيا^(١).

إن هذا الكم الهائل الذي وجد في قبور الفايكنج له مدلولات ثلاثة:

- ١- حجم التجارة والعلاقات الوثيقة بين العالم الإسلامي وبين الفايكنج.
- ٢- كما إن هذا الحجم الهائل للتجارة المتبادلة بين الفايكنج والعرب، مع الصلات المستفيدة مع الحضارة الإسلامية لا بد من انعكاسه لغوياً في التأثير العربي في اللغة النرويجية والإسكندنافية (وهم أصل مهم من أصول اللغة الإنجليزية القديمة)، فقد دخلت الكلمات العربية إلى الإنجليزية عبر النرويجية القديمة أولاً، وعبر الوسط الفرنسي النورماني ثانياً، والنورمانديون أصلاً هم بقايا الفايكنج الذين غزوا شمال فرنسا واستوطنوها، وبقايا الفايكنج هؤلاء صاروا الفرنسيين النورمان الذين احتلوا من بعد إنجلترا واحتلوا صقلية العربية، وشاركوا في قسم من الحروب الصليبية؛ واحتلوا الساحل المتوسط العربي كذلك، ومن خلالهم دخلت الكلمات العربية إلى اللاتينية ثم الفرنسية، ثم عبر الوسط الفرنسي دخلت الإنجليزية، لذا فالفرنسيون النورمان كانوا وسيطًا لعبور الكلمات العربية مرتين^(٢).

(١) مجهول: عندما التقى المسلمين بالفايكنج: مقال منشور بموقع عالم المعرفة .

<https://knowledge0world.blogspot.com/2017/01/vikings-and-islamic-civilization.html>

(٢) مهند الفلوجي: الفايكنج والإسلام: تاريخ منسيٍ يوثقه معجم الفردوس: مقال منشور

موقع فكر بتاريخ ٦/٥/٢٠١٥ م

https://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=69



وفي النهاية يمكن القول: إن السفارات والتجارة كانتا من وسائل التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج، وفي رأيي، إنها لم تقتصر على ذلك خلال هذه الفترة القصيرة، بل امتد هذا التواصل على أيدي العلماء والفقهاء الذين أقاموا هناك، ومن أسلم من أهل البلاد، إضافة إلى التجار المسلمين أيضاً الذين كانوا يتربدون بتجارتهم على تلك البلاد.

التواصل الحضاري في صقلية:

كانت جزيرة صقلية في عهد النورمانيين مستقيدة أكبر الاستفادة من الحضارة العربية بمختلف تنوّعاتها، فكيف كانت حضارة العرب في صقلية النورمانية؟

تعدُّ الحضارة العربية التي قامت في جزيرة صقلية حلقةً بالغة الأهمية في تاريخ الحضارات التي شهدتها هذه الجزيرة، مثل الحضارة الفينيقية والإغريقية والرومانية، ولا تأتي هذه الأهمية من أن هذه الحضارة استمرت قائمة ومزدهرة في صقلية بعد زوال الحكم العربي منها على يد النورمان فحسب، وإنما لأنها كانت أيضاً عاملاً مهماً أسهم في النهضة الأوروبية الحديثة، وكانت سياسة التسامح من العوامل الأساسية التي مكنت المسلمين في صقلية من إقامة هذه الحضارة التي مارسوها في حكم شعوب ذات أعراق وثقافات وديانات مختلفة، حيث سمح العرب لها بممارسة حريتها الدينية وعاداتها وقوانينها الخاصة بها، ويقول أحد رؤساء دير سانت كاترين في العاصمة الصقلية بالرمو: "إن رجال الدين المسيحيين كانوا أيام العرب أحراراً في ممارسة واجباتهم الدينية ولم تمس كنائسهم بسوء"^(١).

ولما دخل النورمان صقلية أدهشهم ما نقله المسلمون إليها من رقي وحضارة، وحقيقة، لقد بذلوا جهداً في ترقيتها في كل جوانب الحياة حتى بدا

(١) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية - يناير ٢٠١١ م



الفرق بينها وبين الدول التابعة لبيزنطية بعيداً جدًا، شيدوا مبانٍ عظيمة، ونشطوا وسائل التجارة، وعملوا على استصلاح الأراضي وزرعها، وأدخلوا أنواعاً من النباتات ومن الحيوانات لم يكن للأوروبيين بها عهد ولا علم، إلى جانب ذلك كلّه، وجدوا فنوناً راقية وأدبًا عاليًا، وعديداً من المساجد بها حلقات التعليم، لدرجة أن ابن حوقل دهش لكثرة المساجد، في بلرم وحدها، وكانت هي العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سبباً في الاستكثار من المساجد يقول ابن حوقل عن كثرة المساجد: "سألت عن ذلك فأخبرت أنّ القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحبّ كلّ واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته وربما كانوا أخواناً... وقد عمل كلّ واحد منهم مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه^(١)".

وفي هذه المساجد وفي المكاتب، كثر المعلمون تبدأ بتعليم الكتابة العربية والقرآن الكريم، وتنتهي بدراسات عليا في علوم كثيرة دينية وغير دينية، وهكذا تقدم ورقى في كل شيء، وحقيقة لقد كان الفرق واسعاً جدًا بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد خروج البيزنطيين، وبين ما وجدها عليه النورمانديون بعد خروج المسلمين، وكان النورمان على قدر من الذكاء، وقد عرفوا به من قبل، لهذا لم يفعلوا بأثار المسلمين ما فعل بها الإسبان في الأندلس بعد صقلية - بزمن طويل - فقد أفتقى القساوسة بأن المسلمين رجس وأثارهم نجس لا يطهره إلا إحراقه بالنار، حتى الجدران أفتوا بهمها وإحراقها، وبهذا تأخرت حضارة إسبانيا، أما النورمان، فرعوا الإبقاء والمحافظة على حضارة العرب، وحاکوهم واستقادوا من كل ما تركوا إلا الدين الإسلامي، فقد كانت عداوة الإسلام، وعلى الأصح، كانت الصورة التي قررت في أذهانهم عنه مما يصعب محوه، ولكن

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت بعد ٤٦٧ هـ): صورة الأرض: دار صادر - أفسط ليدن - بيروت ١٩٣٨ م ج ١ ص ١٢٠، ١٢١.



حضارة صقلية ظلت في تقدم لمدة طويلة بعد، وظللت مظاهر الحياة العربية بادية عليها، ولو تقبل النورمان الإسلام واتخذوه دينًا لكان عهد هذا الازدهار الحضاري أطول زمناً وأبقى^(١).

لكن ما هي العوامل التي جعلت النورمان يتذمرون هذا الموقف الإيجابي من حضارة العرب في صقلية؟

يرى بعض الباحثين^(٢) أن الإجابة تكمن في الأسباب الآتية:

أولاً: سياسة التسامح الديني التي تبناها النورمان في حكمهم لجزيرة، فقد كان يسكن صقلية عندما استولى عليها الفايكنج (النورمان): العرب والإغريق واللاتين وغيرهم. وأدرك النورمان أن قيادة هذه الشعوب بنجاح وتحقيق التوازن بين مصالحها وتأمين سلامة الدولة، يقتضي تبني سياسة التسامح الديني ومراعاة عادات هذه الشعوب وتقاليدها.

ثانياً: تشجيع العلم والعلماء، حيث شغف الملوك النورمان بالعلم والمعرفة، وحظي العلماء باحترامهم وتشجيعهم، فهذا الإدريسي يقول عن روجر الثاني: "اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة ما لم يسبق أحد من الملوك إليه، كما كان محباً لأهل العلم ويبتعد إلى مجالستهم، فكان الإدريسي يأتي إليه راكباً بغلة، فإذا صار عنده، تتحى له عن مجلسه فيأتي فيجلسان معًا^(٣)".

ثالثاً: إن تفوق الحضارة العربية التي ورثها النورمان عن أسلافهم عرب صقلية من ناحية وضعف حضارة النورمان أنفسهم من ناحية أخرى شكل بدوره عاملاً مهمًا

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية (دراسة في التاريخ والأدب): دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبيعة: الأولى ١٩٧٥ م صفحات متفرقة، عبد الجليل شلبي: حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية: مقال منتشر بموقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/١.

https://islamsyria.com/site/show_articles/262

(٢) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منتشر بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية.

(٣) الإدريسي، محمد بن عبد الله (ت ٥٥٦ هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ج ١ ص ١، ٥.



شجع النورمان على احتضان حضارة العرب، فمن طبيعة الحضارة الأقوى أنها تفرض إنجازاتها، وبشكلٍ عفوي، على أصحاب الحضارة الأضعف، فحينما هاجر النورمان من نورماندي إلى إيطالية الجنوبيّة في أوائل القرن الحادي عشر، كانوا مجرد مرتبطة يخدمون بسيوفهم لمن يدفع لهم أكثر من القوى السياسية والدينية المتنازعة فيها، ولكن عندما فتحوا صقلية كان أمامهم إما الإبقاء على عقلية العصابات أو بناء دولة متحضرّة، فأخذوا في الخيار الثاني، وبنوا منجزات الحضارة الأكثر ازدهاراً وتقدماً في الجزيرة وهي الحضارة العربية.

رابعاً: كانت العلاقات الودية التي قامت بين الملوك النورمان والعرب المسلمين في صقلية سهلت انتقال الكثير من مظاهر الحضارة العربية إلى أوساط النورمان، فالتسامح والعدل واحترام عادات العرب وتقاليدهم خلق لملوك النورمان الاحترام والمحبة بين عرب صقلية، وهذا ابن الأثير يقول عن الملك النورماني رجار الثاني^(١) (١١٣٠-١١٥٤م) إنه: "أكرم المسلمين وقرفهم ومنع عنهم الفرنج وأحبوه"^(٢).

ومن ثم لن نستغرب عندما نقرأ أن عرب صقلية أظهروا الحزن على وفاة أكبر أبناء رجار الثاني غليالم (وليم) الأول (١١٥٤-١١٦٦م) وأن النساء المسلمات في بلرم خرجن حين يلبسن الثياب الخشنة، وقد نشرهن شعورهن وملائن الفضاء بعوبلهن، ورددن المراثي الشجية^(٣).

(١) رجار الثاني || Roger ولد سنة ١٠٩٥ م وتوفي سنة ١١٥٤ م أول ملوك النورمان بصقلية منذ سنة ١١٣٠ م. اشتهر بفتحاته وتحويل بلاطه إلى مركز مشغ للدراسات (محمود مقديش: نزهة الأنوار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م ج ١ ص ٤١).

(٢) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠ هـ): الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤١٧/١٩٩٧ م ج ٨ ص ٣٤٩.

(٣) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٩.



كما يظهر ابن حبير إعجابه الشديد بملكتهم غليالم (وليم) الثاني (١١٦٦-١١٨٩م) من أنه حسن السيرة ويكثر استعمال المسلمين، كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين^(١).

إن هذه العلاقات الإنسانية بين الطرفين كانت إحدى القنوات المهمة في انتقال حضارة العرب إلى نورمان صقلية، كما أن العوامل السابقة مجتمعة، وغيرها، أسهمت في صياغة الموقف الإيجابي الذي اتخذه النورمان تجاه الحضارة التي ورثوها عن أسلافهم العرب. وبناءً على ما نقدم، فإنه يمكن أن نرصد بعضاً من مظاهر الحضارة العربية التي ظلت فاعلة في صقلية النورمانية في عدد من الميادين منها:

١ - الميدان الإداري:

كانت الصبغة الإسلامية الإدارية - خلا بعض الألقاب - وقفًا على المسلمين، إلا إن الصبغة الإسلامية عامة امتدت أيام النورمان إلى الكثير من نواحي الحياة؛ لأن الحضارة الإسلامية كانت غالبة على الجزيرة، وفي ظلها نشأ رجار وخلفاؤه، فوجدوا أنفسهم يقتبسونها ويفيدون منها، وقد وضحت هذه الصبغة في حياة البلاط نفسه، فتشبه رجار بملوك المسلمين في الاستكثار من الجنائب^(٢) والحجاب^(٣) والسلاحية^(٤) والجاندارية^(٥) وغير ذلك وخالف عادة

(١) ابن حبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن حبير: دار ومكتبة الهلال - بيروت - ص ٢٦٧.

(٢) الجنائب: قال ابن منظور: جناب الرجل: الذي يسير معه إلى جنبه، والجنائب هي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها، (لسان العرب: ج ١ ص ٢٧٦، الفقشندي، صبح الأعشى ج ٤، ص ٣٨١).

(٣) الحاجب هو من يبلغ الأخبار من الرعية إلى الأمام، ويأخذ لهم الأذن منه (الفقشندي: المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٤٩).

(٤) السلاحية: هم أولئك الذين يحملون سلاح الأمير أو السلطان (الفقشندي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٥٦).

(٥) الجنادر: هو الذي يستأنن على الأمراء في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل (المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٦١).



الفرنج، فإنهم لا يعرفون شيئاً منها، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم^(١)، وتصفه الوثائق العربية بـ”يلقبه الإدريسي بالملك المعظم المعتر بالله المقتدر بقدرته^(٢)”.

كما إنه كان يتشبه بملوك المسلمين في تفخيم أبيه ملكه وزينته، وكان يقرأ ويكتب بالعربية وعلّامته ”الحمد لله حق حمده“، وكانت الصبغة الإسلامية في الألقاب، فلقب الأمير يطلق على ناس من غير المسلمين، وأعلى لقب أمير الأمراء وأشيعها لقب القائد للمدنيين والعسكريين على السواء، وزاد هذه الصبغة وضوحاً أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاثة التي أقرتها الدولة في سجلاتها، والأخريان هما اليونانية واللاتينية^(٣).

يتضح من ذلك أن ملك النورمان اتّخذ الألقاب الإسلامية لنفسه ولدولته، كما إنه أنشأ ديوان المظالم الذي اقتبسه من المسلمين، وأبقى على الألقاب الإسلامية، وترك عادات الفرنج، وتشبه بملوك المسلمين في زينته وأبيهاته، وهذا دليل على انبهاره بحضارة المسلمين في صقلية.

٢ - الميدان الاقتصادي:

تذكر بعض المصادر: أن الكثير من النشاطات العربية ظلت قائمة ومزدهرة في العصر النورماني، وبالنسبة إلى الزراعة، فمع أن الحروب التي دارت بين النورمان وعرب صقلية قد ألحقت أبلغ الأضرار بالزراعة وال فلاحين ووسائل الري، ولكن الزراعة استمرت في نهضتها التي شهدتها أيام الحكم العربي للجزيرة، فمن المعروف أن العرب أدخلوا إليها الكثير من المزروعات مثل: (الليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والقطن والبردي .. إلخ)، كما

(١) ابن الأثير: الكامل: ج ٨ ص ٣٤٩.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق: ج ١ ص ٤.

(٣) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٥.



أقام العرب شبكة واسعة من الترع والقنوات التي لا تزال آثارها باقية، ولم يغير النورمان كثيراً من النواحي الزراعية في صقلية^(١).

أما التجارة، فقد ظل معظمها بأيدي العرب أيام النورمان، ورغم أن تجار المدن الإيطالية، قد حصلوا على امتيازات تجارية في الجزيرة من قبل الملوك النورمان، إلا إن ذلك لم يقلل من نشاط التجار العرب في صقلية وعالم البحر المتوسط، وأكد ابن جبير ذلك بقوله إن "الأسواق معمرة بهم وهم التجار فيها.."^(٢).

وتتجدر الإشارة إلى أن العملة التي أصدرها الملوك النورمان في صقلية كانت متأثرة بالعملة الفاطمية في شكلها وقيمتها، واشتملت على كتابات عربية ولاتينية وأغريقية وحملت رمزاً إسلامية ومسيحية^(٣).

وبالنسبة للصناعات، فكان هناك مصنع للحرير وآخر للتطريز بالقرب من القصر الملكي في بالرموم، وكان هذا المصنع يقوم بإعداد ملابس الملوك النورمان وتطريزها، ولاسيما الثياب الفاخرة التي توши بالنقوش العربية واللاتينية، ومن الملابس التي صنعت في هذا المصنع عباءة الملك النورماني رجار الثاني (١١٣٠-١١٥٤م) التي ارتداها في حفل تتويجه ملكاً في بالرموم عام (١١٣٠م)، وكان قد صنعتهانساج عربي اسمه عبد الله، وهي مصنوعة من الحرير التفيلي القرميزي رسمت عليها شجرة نخيل تحمل ثماراً ذهبية، وعلى كل من جانبيها صورة أسد يضرب بمخلبه جملًا، وكانت الرسوم مطرزة بالذهب يحيط بها آلاف من اللآلئ وثلاث ياقوتات كبيرة، وقد كتب النساج باللغة العربية على حافة العباءة عبارات تتضمن الدعاء للملك رجار الثاني أن يكون

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ٧٣، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية:



محبوباً ويعيش في عزٍ ومجده وأن تتحقق آماله وتعمّره السعادة طوال أيام حياته، كما كتب عليها مكان وزمان صنع العبادة في صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسينات^(١).

٣- ميدان العمارة:

ظل الفن المعماري في صقلية النورمانية يحمل الطابع العربي الإسلامي، فقد أقام الملوك النورمان في صقلية قصوراً بناها أسلافهم العرب، مثل قصر البحر العذب في بالرمو، كما شيدوا قصوراً جديدة شيدوها لهم المهندسون المعماريون العرب في بالرمو على هدي الطراز العربي الإسلامي مثل قصر العزيزة الذي شيد في عهد ولIAM الأول وقصر القبة الذي شيد في عهد ولIAM الثاني، وعندما زار ابن جبير صقلية رأى قصرين من قصور العرب، التي لا تزال قائمة، بالقرب من العاصمة، وهما قصر سعد وقصر جعفر^(٢).

كما استمرت المدن الصقلية تحوي المساجد والحمامات والفنادق والمباني الفخمة التي شيدت على الطراز العربي وزينت بالرخام الثمين والفصيسياء الظاهرة. بل أسمهم المعماريون العرب المسلمين في تشبييد الكنائس والأديرة وزينوها بالفصيسياء العربية^(٣).

٤- الميدان الثقافي والعلمي:

استمرت ثقافة العرب وعلومهم في صقلية أيام النورمان، فعلى الرغم من أن المسجد قد تضاعل شأنه في العصر النورماني، وانهزمت الدراسات الدينية أمام الدراسات العلمية الأخرى، إلا إنه كان يقوم بدورٍ بالغ الأهمية في

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٧ ، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام: ترجمة/ حسين مؤنس وأخرون - تحقيق/ شاكر مصطفى - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥ م ج ١ ص ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣ ، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.



الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، ولما زار ابن جبير صقلية وجد المساجد فيها محاضر لمعلمي القرآن^(١).

وفي عهد النورمان أصبح القصر أو الأمير هو الكعبة الكبرى التي تحوم حولها العلوم كما تحوم الآداب كما إن اللغة العربية استمرت سائدة في الجزيرة في العهد النورماني إلى جانب اللاتينية والإغريقية، بل إن عدداً من الملوك النورمان، أمثال ولIAM الأول والثاني، كانوا يجيدون القراءة والكتابة والتحدث بالعربية، كما ازدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكان من أبرز المترجمين يوجين الأمير الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية بعض المؤلفات مثل كتاب (البصريات) لمؤلفه (بطليموس)، كما أسهم في ترجمة كتاب (كليلة ودمنة)، ودخلت صقلية في العصر النورماني كتب عربية كثيرة، فمثلاً استحضر الملك رجار الثاني عدداً كبيراً من مؤلفات الجغرافيين العرب أمثال المسعودي وابن خردانة وابن العذري وابن حوقل واليعقوبي وغيرهم^(٢).

أما العلماء والشعراء العرب المسلمين الذين ظلوا في صقلية النورمانية، وغدا لهم شأن كبير لدى الملوك النورمان، فنذكر من العلماء: ابن ظفر الذي كان عالماً في النحو واللغة والدين وشغل منصب رفيعاً في الدولة النورمانية، ومحمد بن عيسى، الذي كان عالماً بالهندسة والنجوم، وابن المعلم الذي كان عالماً باللغة وماهراً بالطب وغيرهم. أما الشعراء الذين عاشوا في ظل النورمان ونظموا قصائد المديح لهم فنذكر منهم: عبد الرحمن الأطرابنشي وعبد الرحمن البثيري، وعمر بن حسن وسراج بن أحمد وابن بشرون وغيرهم، وتتجدر الإشارة إلى أن الشعر الغنائي الذي ساد صقلية في العصر النورماني كان ممزوجاً بالأغاني العربية المنتشرة بين العرب المسلمين في بالرمو^(٣).

(١) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣، إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٥٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق: ص ٤، ٥، إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.



أما علم الجغرافيا فكان من أبرز العلوم التي ازدهرت على أيدي العرب في صقلية النورمانية. فمن المعروف أن رجار الثاني كان قد دعا إلى بلاطه الجغرافي المغربي الشريف الإدريسي، وشمله بكل مظاهر التكريم، وأنجز الإدريسي برعایة هذا الملك وتشجيعه ثلاثة إنجازات علمية وهي:

- أ- رسم صورة الأرض في دائرة من الفضة ووضع أقسام الأقاليم عليها.
- ب- رسم مجموعة من الخرائط للعالم على الورق تفوق في دقتها ووضوحاً خريطة بطليموس الشهيرة.

ج- ألف كتابه المعروف وهو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وهو الذي عرف بالكتاب الرجاري، وهو شرح لما ورد في المجسم الفضي الذي نحت عليه خريطة العالم. كما وضع الإدريسي كتاباً آخر في الجغرافيا للملك ولIAM الأول بعنوان "روض الأنس ونزة النفس"^(١).

كما حدث تطور كبير في تنظيم مهنة الطب في صقلية النورمانية بتأثير مباشر من الحضارة العربية، كما أن معظم أطباء الملوك النورمان كانوا من الأطباء العرب المشهورين ببراعتهم العلمية والتنظيمية، وقد أصدر رجار الثاني أمراً يلزم فيه جميع الأطباء في المملكة بالحصول على إذن أو ترخيص خاص من موظف مختص وإلا تفرض عليهم عقوبات قاسية كالحبس ومصادرة الأموال، وقد أدخل هذا النظام من صقلية إلى الغرب الأوروبي. وكان أساساً صالحاً لإعداد طبقة من الأطباء الأكفاء^(٢).

كان هذا النظام الإصلاحي قد فعله قبل ذلك الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٢٩٠ هـ / ٩٣٤-٩٠٨ م) في مهنة الطب، فقد أصدر عام (٩٣١ هـ / ٢٩٥ م) قانوناً بتحريم ممارسة مهنة الطب على أي طبيب ما لم يخضع لامتحانٍ في

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٦١، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٢) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.



الطب أمام لجنة من الأطباء برئاسة طبيبه الخاص سنان بن ثابت بن قرة، وكان من ينجح في هذا الامتحان يزود بترخيص أو إذن خطبي يسمح له بممارسة المهنة، وكان سبب ذلك أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطبيبين فَمَاتَ الرجل^(١).

ولا شك أن رجار الثاني قد علم بما فعله الخليفة من إصلاحات طبية عن طريق بعض المسلمين، فأراد أن يسلك مسلكه.

٥ - أثر المرأة العربية في العهد النورمانى:

لعبت المرأة العربية دوراً حضارياً في المجتمع النورمانى، فأزياؤها انتشرت بين نساء النورمان، ويفكّر هذه الحقيقة ابن جبير بقوله: "وزي النصرانيات في هذه المدينة (بالرمي) زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن ملتحفات منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور" (وكان ذلك عيد ميلاد السيد المسيح) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفون اللحف الرائعة وانشقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة المسلمين من التحلية والتخصب والتعطر^(٢).

كما إن الكثير من النساء المسيحيات في البلاط النورمانى اعتنقن الإسلام بتأثير من المسلمات اللواتي يعملن في البلاط^(٣).

وفي النهاية يمكن القول: أن الحضارة الإسلامية في صقلية أثرت في النورمان أكثر مما تأثرت بحضارتهم، وكانت نواة وأساساً لحضارة النورمان التي

(١) ابن أبي أصيبيعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت ص ٣٠٢.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٤.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.



قامت على أرضها، وقد كانت حضارة النورمان حضارة ضعيفة لم تستطع الصمود أمام الحضارة الإسلامية؛ وذلك لأنها حضارة إنسانية خالدة كخلود الرسالة السماوية، وقد أصبحت صقلية معبراً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

يقول مونتجمرى اعترافاً بفضل الحضارة الإسلامية على أوروبا: " نحن - الأوروبيين - نجهل الفضل الذي تدين به ثقافتنا للإسلام، وفي بعض الأحيان، نستخف بمدى التأثير الإسلامي في تراثنا وأهميته، وفي أحيان أخرى نتجاهله كلّياً، ولبناء علاقات جيدة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بهذا الفضل كاملاً، فإنكاره ليس إلا كبراء زائفاً"^(١).

أما عن التواصل بين النورمان وأوروبا، فقد أثر الغاليون والمغلوبون في بعضهم البعض تأثيراً باقياً، لا بسبب اختلافهم وتبابينهم في الصفات بل بسبب تشابههم فيها.

(١) ولIAM مونتجمرى وات: تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى: ترجمة/ سارة إبراهيم الذيب - جسور للترجمة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م ص ١٤ .



نتائج البحث

بعد إلقاء الضوء عن هذا الموضوع: القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري خلال العصور الوسطى الفايكنج (النورمان) أنموذجاً، فإن الباحث قد توصل إلى بعض النتائج منها:

- أن القرصنة هي اعتداء مسلح يقوم به بعض القرصنة على السفن بقصد النهب والسلب، أو تحقيق منفعة اقتصادية أو سياسية.
- تم استخدام اسم القرصنة لأول مرة كان منذ حوالي (١٤٠) سنة قبل الميلاد، ثم مرت بعد ذلك بعده مراحل عبر العصور المختلفة.
- كان الفايكنج (النورمان) من أبرز القرصنة في العصور الوسطى.
- كانت هناك عدة دوافع نفسية، واقتصادية، واجتماعية، سياسية دفعت الفايكنج للقيام بأعمال القرصنة خلال العصور الوسطى.
- هاجم الفايكنج (النورمان) سواحل أوروبا واعتدوا على بعض الدول الأوروبية كـ (فرنسا، إنجلترا، أيرلندا، وغيرهم)، وأحرزوا عليهم عدة انتصارات
- أسس القرصنة الفايكنج (النورمان) لهم بعض المقاطعات في أوروبا كنورمنديا.
- قام الفايكنج (النورمان) بعدة غارات على الأندلس الإسلامية منذ عام (٥٤٦هـ / ١٠٦٤م) خلال عصر الإماراة، وحتى عام (٥٦٤هـ / ١٠٨٤م) خلال عصر ملوك الطوائف، وقاموا بتخريب بعض المدن والاستيلاء على بعض الغنائم والأسرى.
- لم يحقق الفايكنج (النورمان) أهدافهم في الأندلس متلماً فعلوا في أوروبا؛ لأنها كانت البقعة المضيئة في أوروبا في ذلك الوقت تحت حكم الدولة الأموية القوية التي اهتمت بكل شيء من علوم وفنون، إضافة إلى يقطنة حكام الأندلس.



واهتمامهم بالجيش وبالبحرية الإسلامية، ولذلك لم يحقق الفايكنج من حملاتهم عليها سوى بعض الغنائم التي استولوا عليها.

- استطاع الفايكنج (النورمان) الاستيلاء على صقلية الإسلامية عام (٥٩١/١٠٩١ م) وأقاموا فيها دولة استمرت حتى عام (١١٩٤/٥٤٨٤ م).

- أثبت البحث أن للقرصنة أثر كبير في التوافر الحضاري بين الدول وبين الحضارات المختلفة.

فمع أوريا المسيحية:

- كان هناك تواصل حضاري بين الفايكنج (النورمان) ودول أوريا، فقد أثرت حضارة الفايكنج وتأثرت بالحضارة الأوروبية التي هذبت طبائعهم وعاداتهم، فاعتقو المسجدية وصاروا حماة لهذا الدين، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للكنيسة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، كما شاركوا في الحروب الصليبية دفاعاً عن دينهم.

- تحول الفايكنج (النورمان) من قراصنة كل هدفهم السلب والنهب إلى الاستقرار وإقامة حكم ذاتي لهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح لهم دول يحكمونها كنورمنديا وصقلية، وبالتالي راحوا يتعرفون على الحضارات التي كانت قائمة في هذه الدول قبل قدومهم إليها.

أما مع الدول الإسلامية:

- كان هناك تواصل حضاري بين المسلمين والفايكنج (النورمان) عن طريق بعض السفارات التي أرسلت بين الطرفين كسفارة ابن فضلان التي أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٣٤-٩٠٨/٥٣٢٠-٢٩٥ م)، وسفارة يحيى الغزال التي أرسلها الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢/٥٢٣٨-٢٠٦ م).

- أكد البحث أنه بعد استيلاء الفايكنج (النورمان) على صقلية، فقد تأثروا بالحضارة الإسلامية في كل شيء، وحافظوا عليها في شتى الميادين الإدارية،



والاقتصادية، والمعمارية، والثقافية والعلمية. حتى أن المرأة العربية المسلمة أثرت في المرأة النورمانية.

- أكد البحث أن حضارة الفايكنج (النورمان) كانت ضعيفة أمام الحضارة الإسلامية؛ في صقلية، ولذلك فإنها أثرت في النورمان أكثر مما تأثرت بحضارتهم، وكانت نواة وأساساً لحضارة النورمان التي قامت على أرضها.

- أكد البحث أن صقلية كانت معبراً من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

- أثبت البحث أن حضارة الفايكنج (النورمان) لم تستطع الصمود أمام الحضارة الإسلامية وذلك لأنها حضارة إنسانية خالدة كخلود الرسالة السماوية، وقد أصبحت صقلية معبراً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

- أكد البحث أن الفايكنج (النورمان) أصبح لهم حضارة خاصة بهم كانت مزيجاً من الحضارات الأخرى الإسلامية والأوروبية، ولذلك راحوا يعملون على ازدهارها ونشرها، مع احتفاظهم ببعض سماتهم الأولى كالحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي خاصه في أوروبا المسيحية.

- أظهر البحث أن الفايكنج (النورمان) أصبحوا أصحاب حضارة مستحدثة أثرت وتأثرت بغيرها من الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الأوروبية المسيحية، والحضارة الإسلامية، وأصبح هناك تواصل حضاري مع هذه الحضارات.

وختاماً، فإني أسأل الله القبول وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠هـ):
الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت -
لبنان - الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م .
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٥٦هـ):
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- ابن أبي أصيبيعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ):
عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنترني (ت ٥٤٢هـ):
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: تحقيق/ إحسان عباس - الدار العربية للكتاب -
ليبيا ، تونس الطبعة: الأولى ١٩٨١ م .
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ):
المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٢ م .
- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ):
رحلة ابن جبير: دار ومكتبة الهلال - بيروت .
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت بعد ٣٦٧هـ):
صورة الأرض: دار صادر - أفسط لين - بيروت ١٩٣٨ م .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ):
العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبرير ومن عاصرهم من ذوي شأن
الأكبر: المحقق: خليل شحادة - دار الفكر - بيروت - الطبعة: الثانية
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت ٦٣٣هـ):
المطرب من أشعار أهل المغرب: تحقيق/ الأستاذ إبراهيم الإيباري وأخرون - دار
العلم للجميع - بيروت - لبنان - ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م .
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. نحو ٦٩٥هـ):



- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الثالثة ١٩٨٣ م.
- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد ٤١٠ هـ): رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة: دار السويدى - أبو ظبى الطبعة: الأولى ٢٠٠٣ م.
 - ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ): تاريخ افتتاح الأندلس: تحقيق/ إبراهيم الإيباري - دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.
 - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ): معجم البلدان: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٩٩٥ م. ثانياً: المراجع العربية والمقالات:
 - إبراهيم مصطفى وأخرون: المعجم الوسيط: تحقيق المجمع اللغوي - تركيا - المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية ٢١٣٩ هـ.
 - إحسان عباس: العرب في صقلية (دراسة في التاريخ والأدب): دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ١٩٧٥ م.
 - أحمد عطيه الله: القاموس السياسي: دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨ م.
 - أينهارد: سيرة شارلمان: ترجمة/ عادل زيتون - دار حسان - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.
 - بسام العسلي: سلسلة جهاد شعب الجزائر : دار النفائس - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
 - جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث:



- تراث الإسلام: ترجمة/ حسين مؤنس وآخرون - تحقيق/ شاكر مصطفى - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥ م.
- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب المتحدة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ٢٠٠٠ م.
 - سالم بن عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس: الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى ٤٢٤ هـ / ٢٠٣ م.
 - ستيفان رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ترجمة/ السيد الباز العريني - القاهرة - الطبعة الثالثة ٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م.
 - سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٧٦ م.
 - السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - شريف عبد العزيز:
 - هجوم الفايكنج على العالم الإسلامي: مقال بموقع ملتقى الخطباء.
 - طه خضر عبيد: الحضارة العربية الإسلامية: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
 - عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية - يناير ٢٠١١ م.
 - عبد الجليل شلبي: حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية: مقال منشور بموقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ ١٠/١٢٠٩ م.
 - عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي: دار القلم - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م.



- عمر عبد المنعم إبراهيم:
الفايكنج والإمبراطورية الكارولنجية: رسالة ماجستير . كلية الآداب - جامعة عين شمس - ٢٠٠٩ م.
- فيشر:
تاريخ أوريا في العصور الوسطى: ترجمة / محمد مصطفى زيادة . السيد الباز العربي - دار المعارف . القاهرة - الطبعة السادسة.
- كافين راليبي:
بحث بعنوان العنف والانتقام: ترجمة/ عبد الوهاب محمد وآخرون - مجلة عالم المعرفة . مجلس الثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٤٠٥ هـ.
- كرزسيتوف ويلزنسكي:
تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان
<http://www.Pitatesinf.com/detaif-phparliele-id>
- مايكل كرايتون:
أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضلان: دار الهلال - الطبعة الثانية ١٩٩٩ م.
- مجهول:
عندما التقى المسلمون بالفايكنج: مقال منشور بموقع عالم المعرفة.
- محمد مرسي الشيخ:
تاريخ أوريا في العصور الوسطى : دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٠ م.
الممالك герمانية : دار الكتب الجامعية . الإسكندرية . ١٩٧٥ م.
- مريم آيت أحمد:
مستويات الحوار الحضاري: نقلًا عن: مجلة حراء. العدد: ٣٢ لسنة ٢٠١٢ م.
- ممدوح حسين:
الحملات الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري: دار عمار - عمان - الأردن -
الطبعة الأولى ١٤١٩/١٩٩٨ م.
- مهند الفلوجي:



الفايكنغ والإسلام: تاريخ منسيّ يوثقه معجم الفردوس: مقال منشور بموقع فكر بتاريخ ٢٠١٥/٦/٥ م.

• مورييس بيسبوب:

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة/ علي السيد علي - المجلس الأعلى للثقافة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

• ول دبورانت:

قصة الحضارة: ترجمة/ زكي نجيب محمود وآخرين - دار الجيل - بيروت - لبنان -
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

• وليلام مونتجمي وات:

تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى: ترجمة/ سارة إبراهيم الذيب - جسور
للترجمة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م.

المراجع الأجنبية

Allen Mawer: •

The Vikings camb. med hist .

Haskins: •

The Normans in European History , New york 1959

Oman: •

the Dark eges : London 1962.

Souza, Philip: •

Ancient Rome and the Pirates (2000).



تخطيط التغور الإسلامية وتحصينها في ساحل البحر المتوسط

مدينة المهدية أنموذجًا / ٥٣٠٨ هـ ٩٢٠ م

د. مهدي محمد
باحثة

الملخص:

مَثَّلتُ البحار في تاريخ الحضارة أدّاً وصل حريّاً وسلماً، وليس أدل على ذلك من حوض البحر المتوسط البؤرة الراخنة للإشعاع الحضاري؛ فعلى جنباته نهضت العديد من الحضارات، ورغم اختلاف طبيعة الأقاليم المطلة على حوض البحر المتوسط إلا أنّه مثّل نقطة التقاء سواحل أوروبا الكثيرة الجزر وأشباه الجزر الجبلية الوعرة، وسواحل آسيا الجبلية الكثيرة التعارض، وسواحل أفريقيا الرملية القليلة الغور والخلجان وأشباه الجزر وساهمت طبيعة سواحل البحر المتوسط في إنشاء مدنٍ ثغرية وتحصينها بعد أن بدأ المجتمع الإسلامي الاشتراك في حياة وأحداث البحر المتوسط وأمثاله القوة على الابتدار فيه.

وُعدَ نموذج مدينة المهدية بموقعها الداعي حصناً بحريّاً منتصباً وسط الساحل الأفريقي متحدّياً الطبيعة والأساطيل البيزنطية والاموية ومتاهياً لصد كل تمرد بالغرب وأفريقيا؛ وقلما وجدنا في التاريخ الإسلامي مدينة قامت بدور مهم بحفظها على دولة مؤسسيها وتوجيهها لتاريخها كثغر المهدية، وقد انعكست هذه الصبغة الحربية والتغريبية على عمارة مدينة المهدية وأمّرت بملامح عقائدية بدت واضحة من خلال دراسة تخطيط المدينة والأليات المنتهجة لتحصينها في ٩٢٠ هـ ٢٠٨ م.

نُثّقِي الدراسة الضوء على مدينة المهدية كثغر بحري مهمته الدفاع عن حدود الدولة الفاطمية الشيعية التي نشأت في قلب الإمتداد السنوي وحمايتها من الأخطار الخارجية، وكعاصمة ملكية للفاطميين وخط الدفاع الثاني ومصدر إمداد الثغر وبؤرة لإنطلاق الحملات العسكرية ومركزاً لجمع المعلومات والتفاصيل عن بلاد الاعداء، بالإضافة إلى كونها ميدان للتأثير والتأثير في مجالات الحياة المتعددة، وتهدف إلى التعريف بالثغر وأهميتها،



وأظهار الأدوار التي أدتها التغور من الناحية السياسية والعسكرية والأمنية، وبيان دور الدولة الفاطمية لتعزيز الصبغة الدفاعية لمدينة المهديّة ومن ثم إسمها بصبغة وظيفية عملية.

ويتناول البحث هذه الدراسة في عدة مباحث؛ يتعرض المبحث الأول : إلى أهمية ودواعي إنشاء التغور عند المسلمين، وأختيار موقع تحديد موضع ثغر المهديّة في ضوء عدة اعتبارات أهمها تأثير طبيعة حوض البحر المتوسط وتضاريس قاعه على اختيار موقع مدينة المهديّة، وتغيير المفاهيم التي حكمت اختيار مواضع مدن الأ蚊ار؛ بينما يستعرض المبحث الثاني: إنشاء المدينة الملكية وفق رؤية عمرانية ومعمارية عسكرية حربية أتضحت في طريقة إقامة الأسوار وما يتخاللها من أبواب وأبراج وأحاطتها بفصيل(خندق) زيادة في تأمينها ٩٤٤هـ/٣٣٣م ، أما المبحث الثالث : فيتناول منشأة مدينة المهديّة الدينية، والمدنية ذات الصبغة الدفاعية وأثر ذلك على تخطيط المدينة في ضوء أنماط مخططات المدن الإسلامية.

و يختتم البحث بأهم النتائج والتوصيات ...

Summary:

In the history of civilization, the seas have represented a tool that connected war and peace, and the most evident of that is the Mediterranean basin, the abundant focus of civilization radiation. On its flanks many civilizations arose, and despite the different nature of the regions bordering the Mediterranean basin, it represented the meeting point of the coasts of Europe's many islands and rugged mountainous islands, and the mountainous coasts of Asia with many meanders, and Africa's sandy coasts with few gorges, bays and peninsulas. The nature of the Mediterranean coasts contributed in establishing and fortifying wealthy cities after the Islamic society began to participate in the life and events of the Mediterranean and



had the power to innovate in it. He considered the model of Mahdia, with its defensive location, a naval fortress in the middle of the African coast, defying nature and the

Byzantine and Umayyad fleets, and preparing to repel all rebellions in Morocco and Africa. Rarely did we find in Islamic history a city that played an important role in preserving the state of its founder and directing it to its history, such as the gap of Mahdia, and this warlike character and loophole were reflected on the architecture of the city of Mahdia and mixed with ideological features that were clear through studying the city's planning and the mechanisms used to fortify it in 308 AH / 920 CE. The study sheds light on the city of Mahdia as a maritime outpost whose mission is to defend the borders of the Shiite Fatimid state that arose in the heart of the Sunni expansion and protect it from external dangers, and as the royal capital of the Fatimids and the second defense line and source of supply of the loophole, and a focal point for launching military campaigns and a center for collecting information and details on the countries of enemies, in addition to It is a field of influence and influence in the various fields of life, and aims to introduce the outposts and their importance, to show the roles played by the outposts in terms of politics, military and security, and to clarify the role of the Fatimid state to strengthen the defensive character of the city of Mahdia, and then characterized it with a



functional and practical nature. The research deals with this study in several sections: The first topic deals with the importance and reasons for establishing the stomata for Muslims, choosing a site and determining the location of the Mahdia gap in light of several considerations, the most important of which is the effect of the nature of the Mediterranean basin and the topography of its floor on the choice of the location of the city of Mahdia, and the change of concepts that governed the choice of locations for cities in the cities. While the second section reviews the establishment of the royal city according to an urban and military vision that became clear in the way the walls were erected and the doors and towers interspersed and surrounded by a (trench) faction, an increase in its security 333 AH / 944 CE, while the third section deals with the religious and civil facilities of the city of Mahdia of a defensive character and its impact on City planning in light of the patterns of Islamic city plans

تمهيد :

أدرك الفاطميون أهمية بلاد المغرب، وتمكنوا من التغلب على الدوليات المستقلة عن الخلافة العباسية فيها؛ وهم بنو مدرار في سجلomasه ٢٩٧-٤٠ هـ / ٧٥٧-٩٠ مـ^(١)، والرستميون في تاهرت ١٦١ هـ / ٧٧٩-٩٠٩ مـ^(٢)، والأدراسة في المغرب الأقصى ٩١٧ هـ / ٧٨٨-٩١٧ مـ^(٣)، والأغالبة في تونس ١٨٤ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ مـ^(٤)، يتولى الخليفة عبيد الله المهدي^(٥) تخلت قبيلة كاتمه عن تأييدها للفاطميين فضلاً عن تصدي فقهاء السنة في القิروان لمذهب وأفكار الفاطميين والتي كانت تختلف مذهبهم وأفكارهم. أقام الخليفة عبيد الله المهدي في بداية حكمه بمدينة رقادة^(٦) أولى حواضر الفاطميين في بلاد المغرب وجعل منها حصن يأوي إليه عندما يشعر بالخطر وهو بالفعل محدث

^(١) عبد الحميد، سعد زغلول، ١٩٧٩، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف، الإسكندرية : ص ٤١١.

^(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٩ .

^(٣) تُنسب دولة الأدراسة إلى إدريس بن عبد الله، الفار إلى المغرب الأقصى عقب موقعة فتح ١٦٩ هـ / ٧٨٧ م على بعد ثلاثة أيام من مدينة مكه المكرمه ، للاستزادة راجع المسعودي (أبو الحسن بن الحسين بن علي ٩٥٦-٨٩٦ هـ / ٢٨٣-٣٤٥ م) ، مروج الذهب ومعاذن الجوهر ج ٣، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد دار الفكر «بيروت» ، د.ت ، ص ٣٣٦ ، ابن الأثير، (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، ٥٥٥-٦٣٠ هـ / ١٢٣٩ م) ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، دار الفكر ، بيروت : ص ٧٠ ، ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، ت. ٧٢٦ هـ) ، ١٩٧٧ م ، الأنطيس المطربي بروض القرطاس ، الرباط : ص ١٦ .

^(٤) تُنسب دولة الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب الذي كان والياً على أقاليم الزياب من قبل والي المغرب العباسى محمد بن مقاتل العكي، راجع: ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ١٩٧٩م ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعلم والبرير ومن عاصرهم من ذوي السلطان الراشر ، ج ٤ ، بيروت: ص ١٩٥ .

^(٥) هو عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم ولد بسليمه ٨٧٤-٨٧٣ هـ / ٥٢٦٠ م ، ابن حماد (محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي أبو عبد الله ٥٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م) (د.ت) ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق عبد الحليم عويس وأخرين ، دار العلوم ، الرياض: ص ٣٥ .

^(٦) أسسها إبراهيم بن أحmdالأغلبي ٨٧٥-٨٧٤ هـ / ٥٢٦١ م تبعد عن القิروان أربعة أميال ، البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز بن عمرو ٤٠٤-٤٠٣ هـ / ١٠٩٤-١٠٩٣ م) ، المغرب في نظر بلاد = ١٣٢ -

أثناء ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد^(١)، والذي سبب متابعة كثيرة للدولة الفاطمية، مما دعى الخليفة المهدي إلى تأسيس ثغر المهدية لتصبح حاضرة لدولته لحصانة موضعها، ومن ثم حق الخليفة أغراضه الداعية، الحربية، السياسية والدينية بإتخاذ ثغر المهدية مقراً له، وعاصمة لملكه.

أهمية وداعي إنشاء الثغر عند المسلمين :

تعريف الثغر لغة وأصطلاحاً :

الثغر لغة جمع مفردها ثغر، وهي كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك^(٢)، والثغرة تعني الثلمة، يقال: ثغرناهم أي سددنا عليهم الثلم، والثغر هو المكان الذي يلي دار الحرب؛ أما الثغر اصطلاحاً فالثغر، بالفتح ثم بالسكون، وهو كل موقع قريب من

=إفريقيه والمغرب، مكتبة المتشي، بغداد، ١٨٥٧، ص ٢٧ ،الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت ٥٧٤ هـ - ٦٢٦ م ،معجم البلدان ،٣ ،دار صادر ،بيروت: ص ٥٥ ،مجهول (من أهل القرن السادس الهجري) ١٩٥٨ م، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد ،جامعة الإسكندرية ،ص ١١٦ .

^(١) أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري من قبيلة زناته القاطنة في توzer، عمل والده في التجارة ببلاد السودان ورحل إلى تاهرت وسكن فيها وأشتغل بتعليم الصبيان في أحدي الكتاتيب وألتف حوله أتباع عظمه وفتح عدة مدن منها رقادة والقيروان ،ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ،ج ٦ ،ص ص ٣٠٢-٣٠٩ ،المقرizi ،(أبو العباس الحسيني العبيدي، تقى الدين المقرizi ،ت ١٩٤٧ هـ ١٩٤٥ م،أتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج ١، تحقيق : جمال الدين الشيال ،دار الفكر العربي ،القاهرة : ص ١٠٩ - ١٢٤ .

^(٢) ابن منظور،(محمد بن مكرم بن علي أبوالفضل جمال الدين الأنصاري الرويفي الإفريقي، ت ٧١١ هـ ١٤١٤ هـ ،لسان العرب ،ط.٣، ج ٤ ،دار صادر ،بيروت : ص ١٠٣ ، وأيضاً يوصف الفم بالثغر، كما جاءت بمعنى إنبات الأسنان أو سقوطها، فيقال: "أنغر الغلام إذا نبتت ثغره، وانغر إذا ألقى أسنانه" ، وأيضاً يقال: "نغر الصبي إذا سقطت أسنانه، وانغر إذا نبتت بعد السقوط ،ابن منظور مرجع سابق ،ج ٤ ،ص ١٠٤ ،ابن دريد ،(أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة ،تحقيق: زمزي منير بعلبكي ،ط.١، ج ١ ،دار العلم للملايين ،بيروت : ص ٤١٢ ،ابن فارس ،(أحمد بن فارس بن ذكرياء القزويني الرازي أبو الحسين ،ت ٣٩٥ هـ ١٣٩٩ م ، معجم مقاييس اللغة ،تحقيق: عبد السلام محمد هارون ،د.ط.ج ١ ،دار الفكر ،ص ٣٧٩ .



أرض العدو^(٣)، وهي موقع المخافة من فروج البلدان^(٤) ، وهي المواقع الخطيرة من الحدود والتي يتمنى للعدو التسلل منها بسهولة إلى أرض عدوه، ولهذا تجب حراستها والعنابة بها، بوضع حاميات بها؛ لتشغل العدو ولتصده من الولوج إليها^(١) أو هي المواقع التي تلي دار الحرب أو التي تكون حداً بين بلاد المسلمين وأعدائهم^(٢) ، وتكون على الحدود المواجهة للعدو، وتشحن عادةً بالمقاتلة وتخزن فيها المواد الغذائية والأسلحة، ويكون واجبها الأساس هو مواجهة الخطر الخارجي الموجه من قبل الأعداء^(٣) ، كما يطلق على المدينة المقاومة على شاطئ البحر ثغراً^(٤)؛ ويورد قدامة بن جعفر في كتابه "الخارج" تفصيلاً للثغور الإسلامية حيث جعلها ثلاثة أقسام : برية مواجهة لبلاد العدو من ناحية البر فقط، وبحرية تواجهه من ناحية البحر فحسب، والثالثة يجتمع فيها الأمان، فهي برية بحرية، يحارب المرابطون فيها الأعداء عن طريق البر والبحر^(٥).

٢-١ المقصود بالثغور:

ويقصد بالثغور في هذا البحث هي مجموعة القلاع والحسون التي أقيمت على جبهات المواجهة مع الأعداء على طول حدود بلاد المغرب سواء كانت البرية أو البحرية وهي على

^(١) الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٥٧٤ هـ - ٦٢٦ م) ، معجم البلدان ، ط.٢، ج ٢ ، دار صادر ، بيروت : ص ٧٩ .

^(٢) ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٥٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) ، المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ط ١. ج ٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت : ص ٤٨٣ .

^(٣) جواد علي (جواد) ٢٠٠١ م ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط. ٤ ، ج ٩ ، دار الساقى ، ص ٣٢٣ .

^(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

^(٥) اليوزبيكي ، توفيق سلطان ، (١٩٨٨ م) ، الثغور ودورها العسكري والحضاري ، وزارة التربية والتعليم العالي ، بغداد ، ط.٣ ، ص ص ١١-١٠ .

^(٦) معلوم ، لويس معلوم ، (د.ت.) ، المنجد في اللغة والأعلام ، ط. ١٩ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : ص ٧٠ .

^(٧) قدامة ، (قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، ت ٣٣٧ هـ) ١٩٨١ م الخارج وصناعة الكتابة ، ط. ١ ، دار الرشيد للنشر ، بغداد : ص ١٨٥ .

هيئة خطوط دفاعية للتصدي للغارات المتكررة ، وتعتبر الثغور منطقة محفوفة بالمخاطر بسبب تعرضها الدائم للإغارة، واحتواها على الدروب والمنافذ التي تسلكها الجيوش المحاربة من الطرفين، حيث كان يقام نطاق من التحصينات، على شكل حاميات عسكرية دائمة في المعاقل الأمامية والممرات البحرية على تخوم السواحل ، والتي عرفت باسم الثغور^(٦).

وكانت تلك الواقع تشح بقوات تكون على أبهة الاستعداد، واجبها حماية الحدود والوقوف بوجه العدو، وتعطيل تقدمه حتى تصبح القوات الرئيسية جاهزة لمواجهة العدو بكل قوتها، وقد زد من أهمية تلك الواقع سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، فمنعوا بذلك البيزنطيين من تهديد براً وبحراً^(١)

٣-١ أهمية و دواعي إنشاء الثغور:

اعتماد حكام الدول منذ القدم أن يحموا حدود دولهم التي تفصل بينهم وبين غيرهم من الدول المجاورة، وأن يدافعوا عنها من خطر الاعتداء الخارجي، لاسيما إذا كانوا في حالة صراع مع جيرانهم أو كانوا عرضة لأطماعهم، ويلجأون في سبيل تحقيق ذلك إلى وسائل وأساليب متنوعة، مثل إقامة الموانع وبناء التحصينات وإنشاء الثغور وتعزيزها وتطويرها^(٣) .

^(١) البلاذري، (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، ت ١٩٨٨ م - ٥٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان ، دار الهلال ، بيروت : ص ١٨٤ .

^(٢) الطبرى ، (محمد بن جرير بن كثير بن غالب الأملئي أبو جعفر الطبرى ، ت ٥٣١٠) ١٣٨٧هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، ط. ٢، ج ٣، دار التراث ، بيروت ، ص ٣٧٣ ، ابن مسکویہ (أبو علي أحمد بن يعقوب ، ت ٥٣٩٠ هـ) ١٤٢٠ م - ٢٠٠٠ هـ ، تجارب الأمم و تعاقب الهم ، تحقيق: أبو القاسم إمامي ، ط. ٢٠١ ، ج ١، سروش، طهران: ص ٢٩٠ ، الطyi، صالح أحمد، ١٩٨٣م، امتداد العرب في صدر الإسلام ، ط. ٢٠٢، مؤسسه الرسالة ، بيروت : ص ص ١٠٩ - ١١٠.

^(٣) وقصة ذي القرنين الواردة في القرآن الكريم ليست بعيدة عنّا، حيث أعاد القوم الذين وصل إليهم وشكوا إليه من اعتداء يأجوج مأجوج، بإقامة سد و حاجز بين جبلين يمنع وصولهم إلى بلادهم ويمنع الاعتداء عليه والقصة مذكورة في أواخر سورة الكهف، راجع : الجعفري، أميرة بنت أحمد الجعفري ٢٠٠٦م، سياسة الدولة الأموية في إدارة الثغور الأندلسية ١٣٨٤هـ-٤٢٢، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٤ ، أتحاد المؤرخين العرب القاهرة، ص ٢٧٠



لقد اتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية طابعاً عادياً منذ بدأت المرحلة العالمية في تاريخ الدعوة الإسلامية، ذلك أن التوسع في الشام ومصر وببلاد المغرب تم على أنقاض النفوذ البيزنطي في تلك البلدان، وكان من الطبيعي أن تطمح السياسة الإسلامية إلى إسقاط الدولة البيزنطية لتؤول المصير نفسه الذي آلت إليه الإمبراطورية الساسانية من قبل، ويدعي أيضاً أن تخطط بيزنطة سياستها إزاء المسلمين على أساس استرداد ما فقدته من ولايات ثرية، والعودة إلى البلاد التي كانت تسيطر عليها قبل، وهذا ما تفسره مقوله الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث كان دائماً يرددها كلما ذكر الروم: "والله لو بدت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا مادونه وللروم ماوراءه"^(١)

وبناءً على ذلك كان الصدام والصراع بين الطرفين لا مفر منه، حيث اتخذ أطوار من الصراع البري والبحري، فضلاً عن الصراع السياسي والدبلوماسي بالإضافة إلى التناقض الاقتصادي، ولطالما تبادل الطرفان الانتصارات والهزائم في هذا الصراع الممier الذي أسفر عن نتائج بعيدة المدى في تاريخ كل من الجانبين^(٢).

ولهذا حرص الطرفان على إحكام التحصينات على الحدود واقامة معاقل على طول الطرق الحربية وفي الواقع الحساسة ومناطق الاحتياك، فنتج عن هذا الأمر نظام دفاعي دائم أطلق عليه المسلمون اسم الثغور، وأطلق عليه البيزنطيون اسم الثيمات^(٣).

هذا وقد شكلت الثغور خطوط الدفاع الأولى وأداة حجز ووقاية عن حدود العالم الإسلامي؛ وقد لعبت دوراً عسكرياً مهمّاً حيث كان يتم على أرضها الاستعدادات الحربية وتعبئة الجيوش والتهيؤ لملاقة العدو، وكون أن الثغور هي أماكن ومعسكرات للرياط والجهاد والقتال ضد الأعداء، فكان لابد وأن تكون جاهزة ومستعدة على الدوام هي ومن

^(١) الصلايبي، علي محمد محمد ، تاريخ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ط. ٢، ج. ١، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ص ٥٧ .

^(٢) القفي، عبد الرحمن محمد العبد ، ١٩٩٠م، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثعيرية هـ ٣٤٠-٣٣٩ / حوليات كلية الأداب ، رقم ٧١ ، ص ١١ .

^(٣) ليسترنج كي، د.ت. ، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس و كروكيس عواد (د. ط.) الكويت : مؤسسة الرسالة ، ص ١٦٠ .



يقطنها، الذين أتواها طمعا في أجر الجهاد فكانوا يشتغلون به وبما يعين عليه، لذلك اختلفت الحياة فيها عن غيرها من الأماكن، وكذلك اختلف النشاط اليومي فيها عن غيرها، ويتم منها تحرك وانطلاق الجيوش قبل ذلك، كان يتم إرسال مجموعات مقاتلة للاستطلاع وتقصي الأخبار واستكشاف الدروب، وللإغارة على بلاد العدو القريبة منهم ويعود وينقل لهم المعلومات التي يبني عليها عمل الجيش في المستقبل، ولি�تصرف أولو الأمر من المسلمين على ماوصلهم من معلومات من أهل الثقة لديهم^(١) ، فضلاً عن حماية الجبهة الداخلية للثغور عقب مغادرة الجيوش حيث يقومولي الأمر بإغلاق باب المدينة كشكل احترازي ومن باب الاحتياطات الأمنية، خشية من قيام جواسيس العدو بالاطلاع على استعدادات المسلمين، ونقل صورة عن تجهيزاتهم وأعدادهم، ولمنعهم من القيام بعمليات إضعاف الجنود نفسيًا وبيث الإشاعات في صفوفهم ، وقد كانت توصد الأبواب وتندع المفاتيح لدى صاحب الشرطة في الثغر.^(٢) ، كذلك لعبت الثغور دوراً مهما في الحرب النفسية مع العدو، نظراً لقربها من بلادهم، كونها البوابة التي يدخل منها الرسل والتجار والتي تنتشر فيها العيون، لذلك حرص المسلمون أن تبقى في حالة من الاستفار والجهاد الحقيقي في كل أوقاتها^(٣).

٤-١ اختيار موقع ثغر المهدية :

تميز البحر المتوسط بشروط ملحة محددة لكل قطاع جغرافي^(٤) ، إذ ينقسم البحر ظاهرياً إلى قسمين غير متساوين في المساحة ، بالإضافة لطبيعة البحر المتوسط من

^(١) الهروي، (نقى الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي)، د. ت، التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، د. ط.) مكتبة الثقافة الدينية، ص ص ١٥ - ١٦ .

^(٢) عباس، إحسان ، ١٩٨٨م، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ . ط. ٣ ، ج. ٢٠ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص ٢٥٣ .

^(٣) ابن العديم، (عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي حراة العقيلي، د.ت.) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، د. ط . دارالفكر ، ج ١، ص ١٩٨ .

^(٤) David, Bramoule , Les Fatimides et la mer (909-1171), Islamic History and Civilization,

Studies and Text, Editorial Board , Seloastion Gunther, Bril I, P 23-24



حيث تضاريس سواحله وقائعه أذ أتسمت المنطقة بالضحلة قرب السواحل التونسية في الحيز الممتد حتى جزيرة صقلية^(٥) كذلك مناخه كنظام الرياح والتيارات الغير متطابقة تماماً في كل الأحوال .

وفي منتصف القرن العاشر سيطر الفاطميون على شريط ساحلي كبير نسبياً يمتد من محيط برقة إلى الساحل ومن الشرق إلى منطقة ناكور في الغرب يضاف إلى هذا صقلية التي كانت معظم موانئها تحت إشراف حكام باليرمو ومثل الفاطميون آنذاك قوة بحرية لا يمكن انكارها ؛ وهو ما وضع بعين الاعتبار حينما قرر عبيد الله المهدي جريأ على عادة الدول الإسلامية في العصور الوسطى اختيار موضع حاضرته وعاصمة ملكه ؛ فخرج ٩١٣ / ٥٣٠٠ م يرتاد موضعاً على الشريط الساحلي في منطقة تونس وقرطاجة^(٦) حتى ظفر ووقع اختياره على جزيرة الخلفاء^(٧) والتي ذكرت في المصادر التاريخية بجزيرة القار^(٨)، وتقع المهديّة^(٩) على ساحل البحر المتوسط^(١٠)، ومحاطة بالبحر

^(٥) الجوهري ، يسري ، جغرافية البحر المتوسط ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٩ .

^(٦) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ ؛ الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ ابن عذاري (أبو عبدالله محمد المراكشي ، ق ٧٠ هـ). البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق: نيفي بروفسال ، كولان، ليدن ١٩٤٨: ج ١، ص ١٦٩ .

^(٧) الحموي ، ج ٥.٥. ص ٢٣ ؛ إبراهيم ، حسن ، عبيد الله المهدي ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ص ٢٠٥ ؛ زبيس ، سليمان مصطفى ، أثار المغرب العربي ، ط ١ ، تونس ١٩٥٨ م ، ص ٤٠ .

Creswell; The Muslim Architecture of Egypt, Oxford, P. 3.

^(٨) ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد و سيرتهم ، ص ٤١ .

^(٩) عرفت المهديّة بالبيضاء أو ذات الهلاليين على شبه جزيرة الم Razac عبارة عن نتوء صخري داخل البحر ، النعمان ، (القاضي نعمان بن محمد ، ت ٣٦٣ / ٩٧٣ م) ، أفتتاح الدعوة ، تحقيق: فرحات الشراوي ، تونس: ١٩٧٥ م ، ص ٣٢٧ ، عرفت فترات تاريخية متلاحقة كشفت عنها الحفائر الأثرية وثبتت على أنقاض مدينة قديمة ومن أثارها الأغليبية قصر جمة ، (الحميري)، أبو عبدالله بن عبد المنعم ت ٤٩٤ / ٩٠٠ م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، ط ٢، بيروت ١٩٨٤ م ص ١٧٢ ويشير الجغرافي الفرنسي جون ديبوا أن البنية الجيومورفولوجية لولاية المهديّة تتراوح بين فترة العصر البليوساني والعصر البيولوجي الرابع .

^(١٠) الأصطخري، (أبو القاسم إبراهيم بن محمد، ٥٣٤٦ / ٩٥٧ م) (المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٣ ؛ المقسي ، (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٩٩٨ / ٥٣٨٨ م)

من كافة الجوانب عدا الجانب الغربي^(١)، وتشكل هيئة كف على زند داخل البحر ويحدها شرقاً سوسه، تبعد عن القيروان ستين ميلاً^(٢) (ومن تونس مائتين كيلومتر^(٣)؛ وأمتاز موقعها بشدة الحصانة^(٤) (شكل-١)

هذا وتعدت أسباب اختيار ثغر المهدية حاضرة الدولة العبيدية نوردها لبيان أسباب تغير المفاهيم التي حكمت اختيار مواضع مدن الأ蚊ار على مدار تاريخ الدولة الإسلامية؛ حيث دعت الضرورة بعد حروب الردة وبداية الفتوحات الإسلامية إلى الأقاليم إنشاء مدن بمثابة معسمرات للجيوش ومركزاً إدارية لإدارة الأقاليم المفتوحة كالبصرة ٤١٦/هـ ٦٣٥م، الكوفة ١٦٧هـ ٦٣٨م، الفسطاط ٢١٥هـ ٦٤١م، القيروان ٥٠٥هـ ٦٦٥م، العسكر ١٣٣هـ ٧٥٠م. ثم تطورت هذه المدن وتحولت من مجرد معسمرات إلى مدن ذات معايير مدنية واضحة تمثلت فيها الحياة العربية وأرتبطت بأحداث التاريخ الإسلامي أرتباطاً وثيقاً في كل مراحلها، و مع تغير الظرف التاريخي ، وأهتمام المسلمين بالبحرية^(٥)

أحسن التقسيم في معرفة الأقاليم نشر دي خوريه، بلين، ١٩٧٦م، ص ٢٣٦؛ الإبريري، (أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز ت ١١٦٨هـ ٥٦٤م) نزهة المشتاق في اختراق الأفق، ج. ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ١٢٨١؛ الحموي، معجم البلدان، ج. ٥، ص ٢٣٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦١؛ السراج، (محمد بن محمد الأندلسي ت ١١٤٩هـ)، الحل السندي في الأخبار التونسية، ج. ١، ق. ٤، تحقيق: محمد الحبيب الهيله، تونس ١٩٧٠م ، ص ٨٩٧ Dark Hill , Islamic Architecture in North Africa ,London ,P. 102

(٦) البكري ، عبارة عن بربخ متعد داخلاً البحر ، راجع ، المغرب ، ص ٢٩ .

(٧) مجهول،الأستبصار ص ١١٧؛ ابن عذاري ،البيان المغرب،ج.١،ص ٢٠٧ ؛ الحميري،الروض المعطار، ص ٥٦١؛ دباب ، صابر محمد ، سياسة الدولة الإسلامية ، ط. ١. ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣، ص ٩٥؛ الفقي ، عصام الدين عبد الروف ، تاريخ المغرب و الاندلس ، مطبعة نهضة الشرق ،جامعة القاهرة ، ص ١٧٩.

(٨) Lezine, Mahdiya ,Recherches D'Archealogue Islamique , Klimcksiech, 1965, P.13

(٩) الأصطخري، المسالك و الممالك ،ص ٣٣؛ ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصيبي ، ٩٧٧هـ / ١٩٧٩م ، صورة الأرض ، بيروت ، ص ٧١ .

(١٠) Lezine, Mahdiya , P. 19 .

تجلت النهضة الفاطمية بصورة واضحة في عنايتها بالبحرية وكل ما يتصل بها، وقد بدعوا في ذلك منذ قيام دولتهم في المغرب، فقد عرفوا كيف يستفيدون من الإمكانيات البحرية الكبيرة التي تتيحها بلاد المغرب

تطلب الأمر أقامة مدن ساحلية توفرت فيها عدة شروط لتأمينها وتحصينها "منها أن تكون متوعرة المسالك ، وحولها قبائل أو باستدارة بحر لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها^(١) والجدير بالذكر، أن عبيد الله المهدي لم يجد فكرة الأقامة في رقادة أو القيروان إذ كانت لا تصلحان في رأيه لتحقيق أغراضه السياسية ، الحرية والدينية فالمدینتان كانت تترخان بأنصار الأغالبة المعادين للفاطميين^(٢)

فمدينة رقادة تقع في سهل فسيح جعلها عرضة للغزو من كل جانب ، والقيروان ضاعت وأشتلت أكثر من مرة، ومن الضروري أن نشير إلى حقيقة مهمة مؤداها أن اختيار عبيد الله المهدي لموقع ثغر المهدية قام على فهم صادق لإوضاع وأحوال المغرب وأتجاهاته وتياراته المختفية ، فقد كان علم بإن دولته أقامها البرانس وأن البتر أعداءهم لن يرکنوا إلى الهدوء بل سيرفعون لواء التمرد والمعارضة^(٣)

لصاحب السلطان فيها، من السواحل الممتدة ذات الموقع الكثيرة الصالحة لإنشاء الموانئ وتوفّر أخشاب السفن والحديد اللازم لصنعها، ثم وجود جمادات من أهل المهارة البحرية والقدرة على ركوب البحار على سواحل المغرب كلها من رقة إلى طنجة؛ فمن الموانئ التي أنشأها العبيدون الفاطميين أو جدوا بناءها وأنشئوا دور الصناعة فيها: المهدية وأصبحت من ذلك الحين حصن الفاطميين الأكبر، وتونس وسوسة وسفاقس عناية (بونة) وغيرها؛ ابن حيان(بن خلف بن حيان الاندلسي أبو مروان هـ٤٦٩/١٠٧٦م)، المقتبس، من أخبار الاندلس، تحقيق ؛ صلاح الدين الهواري، ٣٥٣-٣٤٧ابن الأثير، الكامل، ٨، ص ٢٨٤، بفرحت الدشري، الخلافة الفاطمية بالمغرب هـ٣٦٥-٢٩٦م ٩٧٥-٩٠٩م التاريخ السياسي والمؤسسي، السلسلة الجامعية «ترجمة حمادي الساطي ، ص ٢٧٤ .

^(١) ابن خلدون ، المقدمه ،ص ٣٠٧ ، وما بعدها ؛ ابن الأزرق ، (محمد بن علي بن محمد الأصبهي الأندلسي أبو عبدالله شمس الدين الغزنطي هـ٨٩٦/١٤٩١م) ، ١٩٧٧م ، بدائع السالك في طبائع الملك ، تحقيق ؛ محمد عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ، ج ٢ ، ص ٧٦٦-٧٦٧ .

^(٢) إبراهيم ، حسن، عبدالله المهدي ، ص ٢٠٤-٢٠٥ ؛ إبراهيم ، سنتوي يوسف ، زناته والخلافة الفاطمية، ١٩٨٢م ، ط ١. ، مكتبة سعيد رفت ، القاهرة ، ص ١٧٣ ؛ محمود ، حسن أحمد ، تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٩٠م ، مكتبة الثقافة ، القاهرة ، ص ٢٦٩ .

^(٣) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ ؛ محمود ، حسن أحمد ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ ، op , Lezine Cit.,P.13

وقد كان الهدف الرئيس للمهدي تشييد حاضرة لتدعم وجود الفاطمي بالمغرب ولتصبح ملذاً له وإلهه يعتضون فيها ضد أي ثورة^(٤) وهو الأمر الذي أورده المصادر التاريخية بوضوح، وبالفعل أثبتت الحوادث صدق ظنون المهدي عقب ثورة ابن كيداد ٩٤٦هـ/١٣٣٥م ولم يستطع أن ينال من المهديه لمنعها وحصانتها.

فضلاً عن اهتمام العبيدين الفاطميين العظيم بالأساطيل والقوة البحرية والجهاد البحري بهدف مواجهة البيزنطيين وردهم عن بلاد الشام، وقد قام الفاطميون بذلك ليظهروا أنهم حماة ثغور الإسلام دون العباسين لهذا اهتم الخليفة الفاطميون بالأسطول والجهاد البحري فأنشأوا ديوان الجهاد والعماير ليضاهمي بذلك خطة أشغال البحر، وأقاموا عليها قائداً يسمى صاحب أشغال البحر. واستطاع أسطول الفاطميين حماية سواحل مصر من عدوان الروم حتى زوال دولتهم، وكان أكبر معين للفاطميين على هذا النشاط البحري، أن سكان سواحل المغرب كانوا من المشتغلين بالبحر من قديم الزمان، ولهم دراية على ركوب البحر وجراة عليه، وكانوا كذلك طوال تاريخهم، فأفاد الفاطميون منهم، وتبهوا لأهمية السيطرة البحريّة كوسيلة لحماية أرض الإسلام، وأساس للتجارة ومورد للمال، فإن نشاط الفاطميين في الإغارة على السواحل النصرانية كان مورداً من أكبر موارد المال عندهم، وقد اشتهرت أيام عبيد الله المهدي غارة قام بها أسطول فاطمي على وادي وارى Oria في كابري في إيطاليا عادت بغنائم وفيرة جداً، ومن ثم تحقق للثغر مركزاً تجارياً مهماً.

٢- إنشاء ثغر المهديه^(١) :

^(٤) ابن حماد ،أخبار ملوك بنى عبيد ،ص ٤٢-٤٣؛ ابن النعمن ،افتتاح الدعوة ،ص ٣٢٨؛ ديباب ،صابر محمد ،مرجع سابق ،ص ٩٨؛ Marcais ،L'Art de L' Islam ,Paris ،1946 ،P. 68.

^(١) انعكست الصبغة البحريّة والثغرية على عمارة المهديه وامتزجت بملامح من العقيدة الفاطمية بدت واضحة من خلال دراسة تخطيط المدينة ، وقد أطبب المؤرخون والاتاريون المعاصرون في استقراء هذه الخواص إلا أن الإلتفاف على بعض المصادر التي لم تنشر إلا أخيراً كال المجالس والمسايرات للقاضي النعمن والجزء الخامس من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار للداعي أدريس ومقارنتها بما ورد في كتب الجغرافيين السابقين يسمح بالقيام ببعض الملاحظات الأضافية حول الموضوع .

١-٢ تاريخ بناء المهديه ومساحتها :

أختلف المؤرخون في السنة التي وضع فيها المهدي أساس حاضرته^(٢)، بينما أكد التجاني إلى أن انتقال المهدي لعاصمة ملوكه عقب اتمام إنشاء القصور والسور وبعض مساكن حاشيته في ٩٢٢-٩٢١ هـ / ٥٣٠٨ م^(١) وبلغ موضع ثغر المهديه والذي يتخذ شكل شبه جزيرة ١٥٠٠ متر طول فيما بلغ عرضها ٥٠٠ متر^(٣) بينما ذكر Creswell أن طول شبه الجزيرة حوالي ميل أي ١٥٨٠ مترًا والعرض ٤٠٠ متر^(٤) ولم تشر المصادر التاريخية إلى مساحة المهديه، سوى ما أورده البكري حول الموضوع حيث ذكر أنه شرع المهدي في وضع حجر الأساس لل المهديه كان عرض المدخل من القبلة إلى الجوف مقدار غلوة تساوي ٤٠٠ ذراعاً أو ١٨٤.٤ متر وهذه المساحة تمثل منتصف العرض، وعندما نصيف الجزء الآخر يبلغ طول العرض ٨٠٠ ذراعاً أو ٣٦٩.٦ متر، ولكن عبيد الله وجّد أن هذه المساحة لا تكفي لبناء كافة المرافق المخطط لها فردم من البحر مقدار غلوة وبالتالي يصبح عرض المهديه ١٢٠٠ ذراعاً أو ٥٥٤ متر^(٤)

^(١) أكد البكري على أن البناء تم في ٣٠٠ هـ / ٩١٣-٩١٢ م ويتفق معه الحموي وأبن عذاري؛ أما ابن الأثير فيرى أن البناء بدأ في ٥٣٠٣ هـ / ٩١٢ م و يؤيده ابن الأبار، أبو الفداء، القلقشندي والمقربي للاستزادة راجع؛ **البكري**، المغرب، ص ٣٠، **الحموي**، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٠، **ابن عذاري**، البيان المغرب، ج ١، ص ١٦٩، **Marcais**, op cit P.121، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٥١، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ١، ص ١٩٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٤٥، **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١، المقربي، أتعاظ الحفا، ج ١، ص ١٠١

^(٢) التجاني، (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) رحلة التجاني تونس طرابلس ٧٠٦ - ٧٠٨ هـ ، نقليم : حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ،ليبيا - تونس ، ١٩٨١ ، ص ٣٢١ .

^(٣) مؤنس ،حسين ،تاريخ المغرب وحضارته ،مج. ١، ط. ١، الدار السعودية للنشر ،١٩٩٠ م ،ص ٤٨١ .

^(٤) Creswell , Op cit,P.2 ; Marcais , Al Mahdiya Article in the Encyclopedia of Islam ,Tome III , P.

121.

^(٤) "عرض المدخل إلى المهديه من القبلة إلى الجوف قدر غلوة وردم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله في المهديه" **البكري**، المغرب، ص ٣٠؛ **التجاني**، الرحلة ص ٣٢٣ مشيرا إلى قيام المهدي ب المباشرة للأعمال بنفسه ؛ عبد الوهاب، حسن حسني ،تاريخ تونس ،ط. ٤ ،تونس: ١٩٦٨ م، ص ٩٧ = ١٤٢ -

٢-٢ تحصينات المهديّة في المصادر التارِيخية:

ذكرنا آنفًا أن موقع المهديّة ترك أثره الواضح في رؤية تحصينية دفاعية، وعمريّة ظهرت جليّة في السور والأبراج والبوابات فأول ما شيد عبّيد الله المهدي في حاضرته السور؛ ولم يبن لها سور إلا في الجهة الغربيّة لارتباط الثغر بالبر من هذه الجهة حيث حُصن الموقع بإحاطة الماء له من ثلات جهات الشرقيّة، الشماليّة والجنوبيّة ولمناعة السور ومتانته وحصانته^(٥) ذكرته المصادر التارِيخية في عدة إشارات

١-٢-٢ السور : (لوحة-١)

بلغ طوله نحو ميلين وعرضه يتسع لفارسين يمشيان عليه^(١) ، مُحصن ومُحكم البناء^(٢) ويشبه سور (الرافقة) الرقة^(٣) ، عقب اتمام بناء السور رمى عبّيد الله المقدّمين بالبرج لإختبار أرتفاعه^(٤) بما أشتمل عليه السور من أبراج وأبواب قدم مارمول كريخال وصفاً دقِيقاً له حيث زار المهديّة قبيل أن يدمرها شارل كان ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣ م^(٥).

عنوار، راجح، المغرب العربي، ط. ٢، الجزائر: ١٩٨١م، ص ١٨٦؛ صبحي، الصالح، النظم الإسلامية، ط. ٤، دار العلم، بيروت: ١٩٨٧م، ٤١٦-٤١٧.

^(١) Lezine A., Mahdia..., Paris, 1965. ; ROY, (Bernard), "Inscriptions arabes de Mahdia", Revue Tunisienne, N°122, 1915, P. 29-34. ; Hannezo(C.), "Mahdia; notes historiques", R.T.1907(P. 227-236, P.340-349, P.525-535) et 1908 (P. 46-59, P.244-252, P. 412-421, P. 544)

^(٢) البكري، المغرب، ص ٢٩؛ الإدريسي «نَزَهَةُ المُشْتَاقِ»، ج ١، ص ٢٨٢.

^(٣) الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣١.

^(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٣.

^(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٨.

^(٦) Marmol , 501 “ qui avançait de 40 pieds jusqu' à la barbacaneentre ces murailles et le viude des tours étaient les apartement du gouverneur et des Soldats”

شارل الخامس (1500 - 1558)، كان حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة من 1519 وللملك الإسبانية [1516] حتى تنازله في 1556. قام بتوحيد عدة ممالك من ضمنها الإمبراطورية الرومانية المقدسة إسبانيا ناپولي و صقلية وهولندا البورگونية إضافة لمسعمرات إسبانيا في أمريكا ان الملك شارل الخامس محبًا للآداب والفنون وراعيًا لها، فقد أسس المكتبة الملكية، وجدد بناء اللوفر، وشيد قلعة الباستيل (التي صارت فيما بعد سجنًا)، وفرض ضرائب دائمة، وأعاد للنقد عافيتها. وعندما

٢-٢-٢ الأبواب والمداخل من خلال المصادر التاريخية :

دُعِم السور الغربي لتغُر المهدية بستة عشر برجاً، ثمانية منها ترجع لعصر الائمة والثمانية الأخرى أُرْخت بفترات متأخرة^(١) ، ولها بابان ليس لهما شبيهان ونظير على مثالهما عملاً ومن شكلهما اتخذوا^(٢) ويقصد أبواب "الرقّة" من الحديد المصم، وجُعل في كل مصراع من الأبواب مائة قنطرة

و لها أربع مصاريع^(٣) وزنة كل باب ألف قنطرة وطوله ثلاثون شبراً في كل مسار من مساميره سته أرطال^(٤) ، وكل باب منها دهليز يسع خمسمائه فارس ، وزينت الأبواب بصور الحيوان بشكل الأسد^(٥) ، نفذت بطريقة الصب من البرونز في أوضاع متقابلة ، وهذه الأبواب حوافها الخارجية مقوسّة ومدعمة بالحديد تدعيمًا يشبه الأبواب التي تتزلق من أعلى البرج^(٦) ، أما الأبراج فعددها ستة أبراج برجان طرفيان مسقطهما مستدير و يتميزا بالارتفاع بالإضافة إلى أربعة أبراج مربعة المسقط في منتصف السور^(٧) أما البرج الثاني من جهة الشرق^(٨) ويوجد أسفل هذا البرج قبو ضخم ، وست بوابات على خط واحد هذه البوابات مغطاة بألواح سميكه من الحديد و البوابة الثانية بالترتيب من الخارج إلى الداخل صُنعت

=حصل الانشقاق عن الكنيسة الرومانية، وقف الملك شارل إلى جانب البابا كليمان السابع، و عن حملة شارل الخامس على تونس راجع ؛ جان لويس باكي جرامون ، أوج الأمبراطورية العثمانية ١٥١٢-١٦٠٦ تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١، ص ٢٣٢ .

^(٦) البكري ؛ ص ٢٩ ؛ الإدريسي ؛ ج ١، ص ٢٨٠ ؛ الحموي ، ج ٥، ص ٢٣٠-٢٣١ .

^(٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٣ .

^(٨) الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥، ص ٢٣١ .

^(٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤، ص ٢٨ ؛ المقرئي ، اعتقاد الحنفاء ، ج ١، ص ١٠١ .

^(١٠) مجھول ، الاستبصار ، ص ١١٧ .

^(١١) كَرِيْخَلْ ، مارمول ، إفريقيا (١٩٨٩-١٩٨٨م) ، ج ٣. تعرّيف : محمد حجي وأخرون ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة ، دار نشر المعرفة ، الرباط : ، ص ٩٣-٧٠ ؛ إدريس عmad الدين ١٤٨٨/١٤٨٨م ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب تحقيق: محمد البعلوي ، دار الغرب الإسلامي بيروت: ١٩٨٥: ، ص ٢٠٩ .

^(١٢) مارمول ، إفريقيا، ص ٩٣-٧٠ .

^(١٣) صحيح Creswell هذا الاتجاه على أنه جهة الغرب حيث لا يوجد مدخل آخر يربط التغر بالبر .

من قضبان ضخمة من الحديد مثبتة في بعضها بدون أي استخدام للخشب وثبت في كل باب مصراعين^(١)

٣-٢ تحصينات المهدية إنشائياً وعمارياً من خلال الحفائر والدراسات الأثرية :
أمكنا رصد ما يلي من خلال تحليل ماورد في المصادر التاريخية ومطابقته بنتائج المسح والحفائر الأثرية ؛ تميز سور المهدية الغربي بالسمك (شكل ٢) وهو أمر متبع في إقامة أسوار المدن الكبرى كمدينة بغداد .

وينبئ السور بحجر التلاتات^(٢) المنحوت كتلته بهيئة متوازي مستويات بقياسات محددة تم مراعاتها في البناء بحيث يختلف فيها الطول بينما يظل قياس عرض كتلة الحجر متساوياً لارتفاعها مما أسهم في سهولة البناء ومتانته وساعد على صغر حجم كتلة الحجر^(٣) ، علماً بأنها نفس نوعية أحجار مئذنة جامع الفيروان .

دعم السور بالأبراج وعدها ثمانية موزعة على سور بطول ٤٠٠ متر أي أن المسافة بين كل برج حوالي ٥٠ متر وهي مسافة قصيرة تسمح بتصدي الهجمات من أعلى الأبراج ؛ بينما تُعد تقنية وشكل وأرتفاع البوابة^(٤) في السور بتأثير مشرقي ولا عجب في الأمر كون أن عبد الله المهدى نشأ في الشام .

^(١) مارمول، ص ص ٧٠-٩٣ ؛ وقد طلب المهدى اختبار وزن مصارع الأبواب فأخبر ان لا سبيل إلى ذلك إلا بفرط ثقله فأمرهم أن يضعوا إحدى مصراعيه على ظهر سفينة ففعلوا ونظر إلى منتهى غوص السفينة في الماء ثم أنزل وشحنت السفينة بالرمل والحجارة إلى أن وصل منها ما وصل أولاً ، واستخرج الرمل منها ، وزن كل مصارع مائه قنطار ؛ راجع التجاتي ، الرحلة ، ص ٢٢٣ .

^(٢) هي أحجار ذات حجم موحد من الحجر الرملي .

^(٣) عبد الجود ، توفيق أحمد ، معجم العمارة وإنشاء المباني ، القاهرة ، مؤسسة الأهرام ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٥ .

^(٤) تشير المصادر إلى أن ارتفاع المدخل الرئيس ٣٠ شبر ، والشبر حوالي ٢٣ سم وهو ارتفاع متوافق للتقالييد الإسلامية وقد جرى العرف بأن يحدد هذا الارتفاع بما يعادل ارتفاع فارس راكباً فرسه ورافعاً رمحه براجع؛ البكري ، المغرب ، ص ٢٩ ، ابن الرامي البناء (أبوعبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي)، ١٩٩٩م، الإعلان بأحكام البناء ، تحقيق: فريد بن سليمان ، مركز النشر الجامعي ، تونس ص ١٨٦؛ عثمان ، المدينة الإسلامية ، ص ١٧٤ .

أما على مستوى التخطيط فالمدخل الرئيس لثغر المهدية كان من نوعية المداخل التي تخترق برجاً واحداً ضخماً مثل باب بغداد في مدينة الرقة ويؤدي هذا المدخل إلى دهليز مقبى بطول حوالي ٤٥ متراً رُكب عليه ست بوابات متنالية لعرقلة العدو ويسع هذا الدهليز يسع ٥٠٠ فارس "سمى بسفينة الكحلة"(شكل-٣، لوحة-٢) من شدة إطلامه ويكتف المدخل الرئيس برجان كلاهما بهيئة مطلع نصف مثمن بأرتفاع حوالي ٢٠ متراً وشُغل الدهليز بست دخلات بلغ عرض الفتحة المحصورة بين البرجين ٣٠.٥٠ متر تتسع بشكل ملحوظ لوجود ارتدارين في البرج الجنوبي لتصل لحوالي ٨٠ سم تقريباً وتنتهي ببروز في الجانبين في القطاع الأخير من الدهليز الذي يمثل فتحة بأساع ٣ متراً تقريباً ، أما الدخلات السبعة على جانبي الدهليز متساوية الاتساع ٣٠.٥٠ متر بعمق ١ متراً وأرتفاع ٦٥ سم من مستوى أرضية الدهليز ومقودة بعقود نصف مستديرة ^(١) ؛ والجدير بالتسجيل ان جانبي الدخلة الأولى والثالثة والخامسة والسادسة فتحاتها على هيئة معمارية تأخذ شكل فتحة البوابة وهو الأمر الذي يتواافق مع وصف مارمول كريخال حيث أورد أن القبو الذي يمر أسفل برج البوابة يشتمل على سبعة بوابات ذات مصاريع ،اما الدخلة الثانية مختلفة ونفذ بابها بقضبان حديدية ضخمة مثبتة إلى جانب بعضها بهيئة مقوسة من أعلى ومصاريع قوية ، والمؤكد استخدام الحديد أساساً دون غيره من المواد وصنع بهيئة طبقات ثبت بعضها مع بعض بمسامير البرشام .

٤- الأهمية الوظيفية لتحصينات المهدية :

نستطيع أن نجمل عدة أمور في ضوء ما قدم آنفًا حول نتائج المسح والحفائر الأثرية في ثغر المهدية أهمها ^(٢) :

^(١) Marcais (G.), Manuel D' Art Musulman , Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile . V.I.Paris,1926, P. 132 .

^(٢) Djelloul (Neji), Mahdia capital des Fatimides ,Sousse , Contraste Editions , 2003; “Histoire topographique de Mahdia a l' époque Ottomane “ Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis, 2001

- حرص المنشئ على سماكة السور لإدائه وظيفة دفاعية أرتبطت بوسائل أساليب الدفاع عن المدن في العصور الوسطى حيث يمثل السور خطًا حصينًا من الرماة الذين يعتلون سطح السور كخط دفاع أعلى ؛ وتمكن سماكة السور من التغلب على الأداء بالنقب ، كذلك أرتبط سماكة السور بإرتفاعه الذي يعوق أي محاولة لسلقها فكلما زاد الارتفاع كلما زاد السمك .

- استخدمت الروابط الرخامية في البناء وذلك بوضع أعمدة من الرخام بغرض بناء السور بحيث يبدو قطاع طرفي العمود في وجهي السور الخارجي والداخلي في هيئة قرص دائري يمنع سقوط السور الذي يعلوه بسهولة حيث يحمل البناء فوقه من حشو بناء السور كما يربط جيدًا وجهي بناء السور وبذلك يضعف من عملية نقبه .

- حماية البوابة ببرج المدخل يؤدي إلى غرض الدفاع والحماية وفق تقدير يتافق وأساليب الهجوم والدفاع في العصور الوسطى وأدواتها واسلحتها .

- تعدد البوابات على التوالي مهمة في التخطيط الداعي وهدفها عرقلة العدو في حالة نجاحه في اقتحام المدخل الرئيس .

- إغلاق الدهليز (السقيفة الكحاء)^(١) واعتماد الرؤية على الضوء الآتي من فتحات الدهليز أوله وأخره وفتحة ثالثة في منتصف سقف الدهليز على هيئة شخصية من الأساليب المهمة في التخطيط العسكري حيث ان المهاجم لبوابة مدينة ودهليز مدخلها لا تتوفر فيه رؤية جيدة بينما تتوفر للجنود المربيتين في الدخلات على جانبي الدهليز رؤية تكيف أبصارهم عليها وتمكنهم من الأنقاض على المهاجمين .

^(١) زبيس، سليمان مصطفى ، بين الآثار الإسلامية في تونس ، منشورات ، تونس، ص ٦١ ؛ وللاستزادة حول هذا الموضوع راجع ، الرماح ، مراد ، ١٩٧٧ ، الموضع والمعلم بالبلاد التونسية ، شهادة التعمق في البحث ، دراسة مقارنة ، تونس، ١٩٩٦ ، ملاحظات حول تخطيط مدينة المهدية وعمارتها في العهد الإسلامي المبكر ، سلسلة مجلة إفريقية ، عدد ١٤ ، المعهد الوطني للتراث ، وزارة الثقافة التونسية ، ص ص ٢٧-١ .



- استخدام الحديد في الأبواب حتى تقوى على خطر تعرضها للحرق وهو ما يلجأ إليه المهاجمون لأبواب المدن في العصور الوسطى والتي تصنع من الأخشاب ؛ كما أن الحديد يقوى على ضربات المناجنيق والآلات النقب .
- تقارب الأبراج المشتمل عليها سور من بعضها البعض يساعد على امكان التغطية بسهام الرماة تغطية دفاعية كثيفة .
- ومن الجدير الاشارة إلى ما أورنته المصادر التاريخية عن وجود خندق خارج سور المهدية حيث عُد من منظومة العناصر المعمارية الحربية لهذا التغر وأنشي في عهد القائم ابن المهدي ٩٤٤هـ/٣٣٣م حول أرياض^(١) المهدية وزويلة^(٢) .

٣- منشآت ثغر المهدية : (لوحة - ٣)

ما زال هناك بعض شواهد ثغر المهدية التي أسسها الفاطميون تتمثل في بعض العناصر المعمارية الباقية للمسجد الجامع وميناء المهدية ؛ وأشارت المصادر التاريخية إلى البعض الآخر الذي اندرس ، ونوهت عن بعض ملامح تخطيط الثغر كقصر الخليفة عبيد الله المهدي ، وقصر أبنه ومساكن الجناد والحاشية ، ودار الصناعة واهراء القمح ، والجباب ، ومصانع الماء ، دار المحاسبات ، دار الطراز ، دار الضرب ، والأسواق والحمامات ؛ وأرياض ؛ وفي ضوء مابقي من آثار يمكننا أعطاء لمحات عن تخطيط المدينة . (شكل - ٤)

١-٣ المنشآت الدينية :

١-١ المسجد الجامع : (لوحة - ٤)

كان إنشاء المساجد الجامعة من محاور التخطيط الرئيسية لأي مدينة إسلامية مبكرة لما للمسجد من دور مهم في تأكيد السلطة السياسية للدولة ؛ لذا حرص عبيد الله المهدي على ذلك من هذا المنطلق حيث ان دولته أختلفت مذهبها عن المذهب السني

^(١) الرَّيَاضُ: هو ما حول المدينة .

^(٢) Creswell, op.Cit., P. 5.



الخلافة العباسية والخلافة الاموية في الاندلس، وكشفت المصادر التاريخية^(٣) عن مدى حرص عبيد الله على اختيار موضع الجامع في ثغر المهدية بربم جزء من البحر، ولعل مادفعه إلى ذلك هو حصانة هذا الموضع الذي يحيط به البحر من ثلاث جهات . (شكل-

(٥)

وقد وقع على عمارة المسجد الجامع تعديلات وأصلاحات وترميمات معمارية عديدة شملت معظم أرقوته^(٤) بالإضافة إلى الميضاة والمئذنة الحديثة ورغم تبدل معظم وحداته وعناصره إلا أنه مازال يشتمل على وحدات وعناصر معمارية فاطمية أصلية

الوصف المعماري للمسجد : (شكل - ٦)

تخطيط المسجد مستطيل يبلغ قياسه ٨٢ × ٦٠ واجهته الرئيسة هي الشمالية وتضم هذه الواجهة العناصر الوحدات والعناصر الأصلية في المسجد .

المدخل الرئيس : (لوحة - ٥)

يتوسط المدخل الواجهة الشمالية للجامع من النوع البارز عن سمت الواجهة عبارة عن كتلتين بارزتين على الجانبين مسقط كلاهما مستطيل قياسه ٣٧ × ٨.٥ م ويربط الكتلتين من أعلى عقد حدوة فرس بارتفاع ٤ م وبؤدي إلى دهليز (ممر) يعطيه قبو وينتهي بفتحة باب يعلوه عتب ثم عقد عائق ويتوصل من هذا الباب لداخل الجامع .

يكتفف فتحة الباب المطلة على الجامع دخلتان يعلو كلاهما عقد حدوة فرس يعلوها دخلتان ثم عقد نصف دائري ، وفي طرفي الواجهة الشمالية كتلتان بارزتان يبلغ طولهما ٧.٨ متر وهما عبارة عن جزعين باقيين من قاعدتي مئذنتين أصليتين ركنتين ، أنشئت مع بناء الجامع لكنهما تهدمتا^(٥) .

^(٣) " فربم في البحر مقدارها وأدخله في المدينة فاتسعت والجامع الأعظم الآن والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ربم في البحر " ؛ التجاني ، الرحلة ، ص ٣٢٣ .

^(٤) قدم Lezine في دراسته الواقية عن جامع المهدية اربع مخططات للمسجد محددًا الاضافات في كل مرحلة

^(٥) نجد لهما ما يماثلها في الواجهة الغربية لجامع الحاكم بأمر الله في مدينة القاهرة .
- ١٤٩ -

المسجد من الداخل :

يؤدي الباب إلى الرواق الشمالي وهو عبارة عن سقية تغطيها أقبية مقاطعة وتطل على صحن الجامع ببائكة من ١٣ عقد ويبعد بوضوح عمق القطاع الشرقي على يمين الداخل من القطاع الغربي (من ضمن التعديلات حيث ان مخطط المسجد زمن عبيد الله يوضح انه يوجد حول الصحن من الجهات الشمالية والشرقية والغربية رواق مكون من بلاطة واحدة)

صحن الجامع :

تخطيطه مستطيل الشكل، قياسه ٣٥٥٠ م، ويطل عليه من الجانب الغربي رواق ببائكة من ٩ عقود محموله على دعامات حديث البناء، ومغطى بأقبية مقاطعة .

مقدم الجامع :

أكبر الاروقة ويشغل مساحة مستطيلة قياسها ٢٣ × ٣٠ م، ويكتنف الرواق من الجانبين فناءان مكشوفان ويتكون الرواق من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة (١) (الرواق حديث) ، ويشتمل جدار القبلة على محراب تشير كتابات إلى تجديده ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م وخلفه جدار القبلة الأصلي والمحراب الأصلي للجامع .

المحراب : (شكل-٧)

قدم ليزين صورة للمحراب الأصلي للجامع، وعقد كريسوبل مقارنة بينه وبين محراب جامع صفاقص محاولة منها للوصول لشكل المحراب الأصلي (٢) وهو عبارة عن حنية يبلغ أنساعها ٢ متر وعمقها متر ٦ خلف قطاعه السفلي بقوافط غائرة تتصل بينها ضلوع بارزة وتعلو هذه الضلوع طواقي صغيرة مفصصه في هيئة الصدفة تتكون من خمسة فصوص أو عشرة بالتناوب على التوالى، ويوجد ركانان مرتدان يكتفان حنية المحراب، القطاع العلوي من المحراب عبارة عن نصف قبة .

(١) قدم البكري وصفاً يشير إلى ان الجامع يتكون من سبع بلاطات

(٢) Creswell, op.Cit., P. 7



وفي إطار الوصف نستطيع ان نحدد العناصر الفاطمية الأصلية في المسجد ونحصرها في: الواجهة الغربية، المدخل الرئيس البارز^(١)، جدار القبلة القديم ،المحراب القديم.

٢-١-٣ مصلى العيد :

أوردت المصادر التاريخية عدة إشارات إلى مصلى العيد بن بثغر المهدي حيث ذكر التيجاني في خصوص أحداث الصراع بين القائم بن المهدي وأبي يزيد بن كيداد "وصل إلى مصلى المهدي فلم يبق بينه وبين المهدي إلا رمية سهم حسبما أنذر به المهدي عند بناء سورها"^(٢) ؛ مما يعني أن بناء مصلى العيد في المهديّة كان خارج أسوارها على بعد رمية سهم وقد جرت العادة بإنشاء مصلى العيد عادة في المدن الإسلامية خارج أسوارها حتى لا تشغّل جزءاً من المدينة التي تحيط الأسوار و خاصة أنها لا تستخدم إلا مرتين في العام لصلاة عيد الفطر و عيد الأضحى وأحياناً لصلاة الأستقاء .

٢-٣ المنشآت المدنية:

١-٢-٣ القصور:(شكل -٨)

تابع عبيد الله المهدي إنشاء المنشآت وكانت قصور المهديّة نواة هذه المنشآت وتكونت تلك القصور من قصر عبيد الله المهدي وله باب غري^(٣) ويطل على البحر^(٤) وزينه بطريقين الذهب^(٥) ولـي عهده في الجهة الشرقية «يقع بين الميدان والجامع وكان يفصل بينهما ميدان للاستعراضات^(٦)» ذات التخطيط تكرر في مدينة القاهرة ، وقد أشار

^(١) جرت العادة بإنشاء مداخل المساجد الجامعة قبل ذلك في مستوى سمت الواجهات وكان ظهور هذا المدخل البارز لأول مرة في عمارة هذا الجامع ثم ظهر في جامع الحاكم ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ مـ ، الأقرن ١١٢٥/٥٥١٩ مـ ، الصالح طلائع ٥٥٥٥ هـ / ١١٤٠ مـ .

^(٢) التيجاني ، الرحلة ، ص ٣٢٣ .

^(٣) عبد الحميد ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٦ .

^(٤) العيري ، امال ، العمارة في العصر الفاطمي ، ص ٣؛ زبيس ، ص ٦١؛ Creswell; P. 3

^(٥) ابن حماد ، اخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٤٢ .

^(٦) عبد الوهاب ، حسن حسني ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦ -

البكري إلى هذه المبني نتسم بالسرية أي أن فيها عناصر ووحدات أهتم بجعلها غير معروفة كالسراويل^(٤) كذلك نوه ابن حوقل لارتفاع المبني وأكده على الأمر ناصر خسرو .

٢-٢-٣ الدور:

بنيت بالمهدية دور للحاشية ورجال الدولة^(٥)، أكد ابن حوقل على نظافة و جمال بيوت المهدية بقوله "نظيفة المنازل والدور"^(٦)، ونوه الإدريسي لحسن مبنيها بقوله "ولها حسن لطيفة نظيفة المنازل"^(٧) ولم نقدم حتى الآن دراسة أثرية حول دور المهدية وربما كانت تشبه منازل القاهرة^(٨) .

٢-٣ دار الصناعة: (لوحة-٦)

حدد ابن الأثير والمقرئي موضعها^(٩) ونوه البكري لبعض ملامحها المعمارية^(١٠) وأظهر ابن عذاري أعيابه الشديد بصناعة السفن بدار الصناعة^(١١) وأكده التجاني على ما أورده البكري^(١) مما يفيد أن هذه الدار ظلت عامرة لعدة قرون، ويكشف وصف البكري مساحتها المتسعة^(٢)، وضخامة حجم الأعمال التي كانت تتم فيها واشتملت الدار على مبنيين لحفظ الآلات التي استخدمت في صناعة الأسطول الفاطمي وإصلاحه وكانا بتخطيط مستطيل يغطيهما أقبية طولية مما يؤكّد ضخامة انتاج الدار لتكتفي احتياجات

^(٤) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ .

^(٥) زبيس ، الآثار الإسلامية في تونس ، ص ١٢ .

^(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧١ .

^(٧) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ١، ص ٢٨١ .

^(٨) Djelloul (Neji), Mahdia capital des Fatimides ,Sousse , Contraste Editions , 2003; "Histoire topographique de Mahdia à l' époque Ottomane " Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis, 2001 .

^(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦، ص ١٥١ ، المقرئي ، اتعاظ الحنف ، ج ١، ص ١٠٢ .

^(١٠) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ ، زغلول ، ج ٣، ص ١٩٦ . Creswell, P., 3, Gautier, P., 321 .

^(١١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١، ص ١٥١ .

^(١) ذكر التجاني ، إنها من عجائب الدنيا ، الرحلة ، ص ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

^(٢) راجع حاشية (١) ص ٤١ ، عثمان ، محمد الستار ، ٢٠٠٦م، العمارة الفاطمية ، ج ١ ، دار القاهرة .

الاسطول الذي صُنِع في المهدية وتكون من عدة قطع هي الشوانى^(٣)، والحرقة^(٤)، والطريدة^(٥)؛ والجدير بالذكر في اطار اهتمام عبید الله المهدى بالصناعات تشييده لدار الطراز لصناعة المنسوجات^(٦)، ودار الضرب لسك العملة^(٧)

٤-٢-٣ الميناء: (لوحة-٧)

على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في نصفه الشرقي^(٨)، نقره عبید الله المهدى في الصخرة المطلة على ساحل البحر بمساحة ٧٧١٦٦ متر ولا يزال باقىاً إلى اليوم^(٩) وبحدثنا البكري والحموى في وصفهما لمرسى المهدية بقولهما "مرساها منقور في حجر صل يسع ثلاثين مركباً وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل حرس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدداها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم"^(١٠)، وأوضح التجانى الغرض الذى أنشأ المهدى المرسى من أجله بقوله "جعله حصناً لمراكبه الحربية"^(١١)، وفي الوقت الحاضر لم يبق لنا من مخلفات البرجين إلا قاعدهما ويتخللها في صلب البناء على اسطوانات رخامية مطروحة أفقياً^(١٢) وعن الرؤية المعمارية لأسلوب الإنشاء بالنقر فهو أسلوب عرفه المصريون القدماء ونفدوه به المعابد والمقابر لكن استخدامه في حفر مرسى للسفن استخدام مبتكر لأن الصخر

^(٣) من السفن الحربية الكبيرة، وتتجذب بمائة واربعين مجادفاً وتشحن بالجند؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مج.٤ ، تحقيق: حسن محمد الشمام ، ط.١ ، جامعة البصرة ، ١٩٦٧ ، ص ٨٣، حاشية .٢٥١

^(٤) تستخدم لحمل الأسلحة النارية؛ الأصفهانى ، الفتح القسي فى الفتح القسي ، تحقيق: محمد محمود صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٨٨.

^(٥) تستخدم لحمل الفرسان والخيول وتسع الأربعين فرساً؛ ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩.

^(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج.٥ ، ص ١٠٢ .

^(٧) Lavoix, Catalogue Des Manmales Musulm T. II, Paris, PP 34- 36.

^(٨) زغلول ، تاريخ المغرب ، ج.٣ ، ص ٩٦ .

^(٩) الععرى ، آمال ، العمارة فى العصر الفاطمى ، ص ٥ .

^(١٠) البكري ، المغرب ، ص ٣٠؛ الحموي ، ج.٥ ، ص ٢٣١؛ مجھول ، الاستبصار ، ص ١١٨ .

^(١١) التجانى ، الرحلة ، ص ٣٢٢ .

^(١٢) زبيس ، الآثار الإسلامية في تونس ، ص ٦١ .



الطبيعي يقوى على الماء وأمواجه كونه نتاج البيئة الطبيعية للمكان ؛ أما البرجين الممتدا بينهما سلسلة يتبع مراقبة البحر من جهة المرسى ويؤمن السفن وقد عرض بعض الباحثين أراء ترجع مبناء المهديّة لعصور سابقة على الإسلام^(٣).

٥-٢-٣ الأسواق :

انتعشت حركة التجارة بالمهديّة فحفلت بالأسواق^(٤) والدكاكين^(٥) وكانت لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجاري وإرباب الحرف شوارع معلومة وكان التجار يفدون ببعضهم منسائر البلاد لبيعها بأسواق المهديّة وقد حدثنا الإدريسي عن الأمر بقوله "كانت فيما سلف المسافر إليها كثير والبصائر إليها مجوية منسائر البلاد والأقطار والأمتعة والمتأجر نافقة، وفيها بائعة"^(٦)

٦-٢-٣ المنشآت المائية :

كان من أهم محاور تخطيط المدن تزويد الحواضر بالماء لذا حرص عبيد الله المهدي على توفير مصادر الماء وتسهيل توصيله للغر المهدية وأكدت المصادر هذه الحقيقة "جبل الماء الجاري إلى مدینته من قرية ميانش وهي على مقربة من المهديّة في أول وأقدس وبصب في المهديّة في صهريج داخل المدينة عند جامعها، ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدوالib (السواني)، وكذلك يسقي أيضًا من قرية ميانش من الآبار بالدوالib (النواير) يصب في محبس تجري منه الماء إلى تلك القناة^(٧) يتضح من وصف البكري أن الماء يرفع بواسطة السوافي ويجري في قناة تنتهي إلى مراجل وجباب وصهريج لتخزينه وبلغ عدد المراجل في المهديّة ٣٦٠ ماجل مما يشير إلى وجود منظومة من المنشآت المائية تمثل شبكة مياه متكاملة تبدأ من المصدر وتنتهي إلى المنشآت المعمارية في الغر.

^(١) Guerin; P. 325.

^(٤) الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥. ، ص ٢٣١ .

^(٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ٢٠ ، ص ٢٨١ .

^(٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٢-٢٨١ .

^(٧) البكري،المغرب ،ص ٣١ ؛ الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥. ، ص ٢٣١ .

^(٨) البكري ، ص ٣١ ؛ الحموي ، ج ٥. ، ص ٢٣١ .

٣-٢-٧ - الأراضي - زويله: (شكل - ٩)

كان للمهدية عدة أراضٍ من أهمها زويلة شيده عبيد الله المهدى يفصل بينه وبين المهدية ميدان وأحاط زويله^(٣) سور وأبواب ونقل إلى زويله العامة للخصوصية الملكية لصغر المهدية ، ونوه الحموي من الحكمـة من وراء فصل سكن العـامة في مدـينة قـائمة بـذاتها عن المـهدـية مـقرـ الخـلـافـة مـبرـراًـ انـ المـهـدىـ أـسـكـنـ العـامـةـ فيـ زـوـيلـهـ ،ـ وـكـانـتـ دـكـاكـينـهـ وـأـمـوالـهــ فـقـيلـ المـهـدىـ وـبـزـوـيلـهـ مـساـكـنـهـ ،ـ فـكـانـواـ يـدـخـلـونـ نـهـارـاـ لـالـعـملـ وـيـخـرـجـونـ لـيـلـاـ إـلـيـ أـهـالـيـهــ فـقـيلـ لـلـمـهـدىـ إـنـ رـعـيـتـكـ فـيـ عـنـاءـ مـنـ هـذـاـ ،ـ فـقـالـ لـكـنـ أـنـاـ فـيـ رـاحـةـ ،ـ لـأـنـيـ بـالـلـيلـ أـفـرـقـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـمـوالـهــ وـفـيـ النـهـارـ أـفـرـقـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـهـالـيـهــ فـأـمـنـ غـائـلـتـهـ^(٤)ـ ،ـ وـلـمـ يـمـنـعـ هـذـاـ مـنـ أـنـ يـنـشـئـ عـيـدـ اللـهـ المـهـدىـ بـزـوـيلـهـ أـسـوـاقـ تـكـفـيـ حاجـاتـ زـوـيلـهـ وـفـنـادـقـ لـلـتـجـارـ الغـرـيـاءـ^(٥)ـ مـاـ بـؤـكـدـ عـلـىـ التـكـاملـ الـعـمـرـانـيـ ،ـ بـيـنـ زـوـيلـهـ وـالمـهـديـةـ وـأـنـ زـوـيلـهـ كـانـتـ كـالـرـيـاضـ لـلـمـهـديـةـ^(٦)ـ .ـ

النتائج :

- كان عبد الله المهدي ثاقب النظر في اختيار موضعًا حصينًا لـ الثغره ومؤمن طبيعياً من ثلاثة جهات .
 - خُطت المهدية على الرسم الملكي فجأة تخطيطها لـ حماية الحاكم الذي يتخذها مقراً له ولحاشيته بالأساس.
 - حُسن استغلال المنشيء للطبيعة الساحلية للـ الثغر وتكيفها لإنشاء مرسى ودار للصناعة أُسهمت بظهور الفواطم كـ قوة بحرية على مسرح الأحداث في البحر المتوسط .
 - وضع تخطيط وعمارة المهدية أُسس سمات تخطيطية ومعمارية ظهرت أثارها في تخطيط وعمارة مدينة القاهرة ، وبعض مدن المغرب لاحقاً .

(٣) زويلة بلدان أحدهما زويلة السودان بين السودان وإفريقيا وزويلة طرابلس بين الغرب والقبلة؛ **الحموي**، معجم البلدان، ج. ٣، ص ١٦٠.

(٤) **الحموي** ، ج. ٥. ، ص ٢٣١.

(٥) **التاجي**، الرحلة ، ص ٣٢٤ .

(٦) **الحموي** ، ج. ٥. ، ص ٢٣١.



- وضوح الصبغة الدفاعية في عمارة المدينة وهندستها في صلابة البناء، مداخل الحصون، والأقبية الطولية والمتقطعة من الأحجار و الدبش والمفقدة للأغربة والسقوف الخشبية، ومن ثمة فإن لهندسة تخطيط ثغر المهدية صبغة وظيفية عملية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأبار،(أبي عبد الله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاوي ت ١٢٦٥هـ / ١٢٦٠م)الحلة السيراء،ج.١،تحقيق: حسين مؤنس ،ط. ١ ،القاهرة .
- ابن الأثير، (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزي (١٩٧٨م ، الكامل في التاريخ ، ج٥ ، دار للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت .
- ابن الأزرق،(محمد بن علي بن محمد الأصبهي الأندلسي ، ت ١٤٩٦هـ / ١٩٧٧م)،بدائع السلك في طبائع الملك،ج.١،تحقيق: محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب .
- الأصطخري،(أبو القاسم إبراهيم بن محمد ٣٤٦هـ / ٩٥٧ م)،المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني،القاهرة .
- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، ت. ١٩٧٧هـ) ، الأئمـ المطرب بروض القرطاس ، الرباط
- ابن الرامي البناء(أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللخمي)، ١٩٩٩م،الإعلان بأحكام البناء ، تحقيق: فريد بن سليمان ،مركز النشر الجامعي ،تونس .
- ابن العديم، (عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جراد العقيلي، د.ت.) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ج ١، د. ط . دار الفكر للطبع والنشر والتوزيع ،بيروت .



- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ١٩٦٧ م ، تاريخ ابن الفرات ، د.ت. ، مج.٤ ، تحقيق: حسن محمد الشمام ، ط.١، جامعة البصرة .
- ابن حماد (محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجى القلعي أبو عبد الله ١٢٣٠ هـ - ١٣٦٨ هـ ، د. ت) ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق عبد الحليم عويس وأخرين ، دار العلوم ، الرياض
- أبن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلي أحمد النصيبي ١٩٧٧ م، ١٩٧٩ م)، صورة الأرض ، بيروت .
- ابن حيان ،(بن خلف بن حيان الاندلسي أبو مروان ٥٤٦٩ / ١٠٧٦ م)، ٢٠٠٦ م ، المقتبس ، من أخبار الاندلس ، تحقيق : صلاح الدين الھواري ، نشر المكتبة العصرية ، بيروت .
- ابن خدون ،(عبد الرحمن بن محمد ابن خدون أبو زيد ولی الدين الحضري الإشبيلي ، ت ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢ م) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعلم والبرير ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج٤ ، بيروت .
- ابن دريد ، (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة ، تحقيق: نرمزي متير بعلبكي ، ط٤٠١، ج١ ، دار العلم للملاتين ، بيروت .
- ابن سیده ، (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سیده المرسي ت ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) ٢٠٠٠ م ، المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ط١٠٥، ج٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن عذاري (أبو عبدالله محمد المراكشي ، ق.٧.٥.٩٤٨ م) ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج.١ ، تحقيق: ليفي بروفنسال ، كولان ، ليدن .
- ابن فارس ، (أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين ، ت ٣٩٥ هـ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، ج ١ ، د.ط. ، دار الفكر

ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن يعقوب ، ت ٤٣٩ هـ ١٤٢٠ مـ) ،
تجارب الأمم و تعاقب الهمم ، تحقيق: أبو القاسم إمامي ، ط.٢، ج ١، سروش ، طهران
- ابن مماتي،(الأسعد الخطير شرف الدين أبي المكارم أبي سعيد ت
١٩٤٣ مـ ، قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سورايان عطيه ، الجمعية الملكية
١٢٠٦ هـ / ١٩٤٣ مـ) الزراعية ، القاهرة.

- ابن منظور ، (محمد بن مكرم بن علي أبوالفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعي
الإفريقي ، ت ٧١١ هـ ١٤١ هـ ، لسان العرب ، ط.٣، ج ٤ ، دار صادر ، بيروت .
-أبو الفدا، (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ١٣٣١ هـ ١٨٤٠ مـ)
تقويم البلدان ، باريس .

-إدريس (عماد الدين ٨٧٢ هـ ١٤٨٨ مـ) ، ١٩٨٥ ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب
، تحقيق: محمد البعلوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

-الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤ هـ ١٦٨ مـ) نزهة المشتاق في
أختراق الأفاق ، ج.١، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

-البكري (أبو عبيد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز بن أبي زيد محمد ت
١٠٩٤ مـ ٤٨٧ هـ) ، ١٨٥٧ مـ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد .

-البلانري ، (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، ت ٢٧٩ هـ ١٩٨٨ مـ)
فتح البلدان ، دار الهلال ، بيروت .

-التجاني ، (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ت ٧٠٦-٧٠٨ هـ ١٩٨١)
، رحلة التجاني تونس طرابلس ، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب
، ليبيا - تونس .

-الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت ٥٧٤ هـ ٦٢٦)
١٩٧٩ مـ ، معجم البلدان ، ج ٣ ، دار صادر ، بيروت .

-الحميري، (أبو عبدالله بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ ١٤٩٤ مـ) الروض
المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، ط.٢، بيروت .



- السراج ، (محمد بن محمد الأندلسي ت ١١٤٩ هـ)، ١٩٧٠ م، الحل السندي في الأخبار التونسية ، ج.١، ق. ٤ ، تحقيق: محمد الحبيب الهيله ،تونس .
- الطبرى ، (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملی أبو جعفر الطبرى ، ت ١٣٨٧ هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، ط. ٢ ، ج٣ ، دار التراث ، بيروت)
- العماد الأصفهانى ، (عماد الدين) ١٩٦٦ م، الفتح القسي في الفتح القدسى، تحقيق: محمد محمود صبيح ، القاهرة
- القلقشندى (شهاب الدين أبي العباس أحمدين علي ت ١٤١٨ هـ / ١٩١٩ م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج.٥، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- المقسى ، (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٩٩٨ هـ / ١٩٧٧ م) ، ١٩٦٧ م أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،نشر دی خوريه ،لیبن .
- المقرizi، (أبو العباس الحسيني العبيدي، تقى الدين المقرizi ، ت ٨٤٥ هـ) ١٩٤٧ م، أتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج١ ، تحقيق: جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة.
- المسعودي (أبوالحسن علي بن حسين بن علي ، ٢٨٣-٨٩٦ هـ/ ٩٥٦ م، د.ت) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٣، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ،بيروت
- النعمان(القاضي نعمان بن محمد ،ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م)، ١٩٧٥ م افتتاح الدعوة ، تحقيق بفرحات الدشراوى ،تونس.
- الهروي، (تقى الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي، د. ت) التذكرة الهروية في الحيل الحرية (د. ط.) مكتبة الثقافة الدينية .
- قدامه ،(قدامه بن جعفر بن قدامه بن زياد البغدادي ، ت. ٣٣٧ هـ) ١٩٨١ م
الخارج وصناعة الكتابة ، ط. ١ ، دار الرشيد للنشر ، بغداد .
- مجهول ، (من أهل القرن السادس الهجري) ١٩٥٨ م، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الإسكندرية .

ثانياً- المراجع الحديثة :

- الجعفري، أميرة بنت أحمد الجعفري ٢٠٠٦م، «سياسة الدولة الأموية في إدارة الثغور الأندلسية ١٣٨٥هـ-٤٢٢»، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٤، أتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.
- الجوهرى ، يسري ، ١٩٨٤ م، جغرافية البحر المتوسط ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- الدشريوى، فرحات، الخلافة الفاطمية بال المغرب ٢٩٦-٩٧٥هـ/١٩٩٤م، التاريخ السياسي والمؤسسات ، السلسلة الجامعية ، ترجمة حمادي الساحلي، ط. ١، دار الغرب الاسلامي، بيروت.
- الرماح ، مراد ، ١٩٧٧ ، الموضع والمعالم بالبلاد التونسية ، شهادة التعمق في البحث ، دراسة مقارنة ، تونس.
- ١٩٩٦، ملاحظات حول تخطيط مدينة المهدية وعماراتها في العهد الإسلامي المبكر ، سلسلة مجلة إفريقية ، عدد ١٤ ، المعهد الوطني للتراث ، وزارة الثقافة التونسية ، تونس .
- الصالبي، علي محمد محمد ، ٢٠٠٨هـ/١٤٢٩م ، تاريخ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ط. ٢، ج. ١، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت.
- العبد الغنى، عبد الرحمن محمد ، ١٩٩٠، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها التغربية ٤٠٩-٣٣٩هـ / ٦٦٠-٩٥٠م، حوليات كلية الأدب ، مج. ١١ ، عدد ٧١ ، مجلس النشر العلمي ، ج. الكويت .
- العلي ، صالح أحمد ، ١٩٨٣م، امتداد العرب في صدر الإسلام ، ط. ٢، مؤسسه الرسالة ، بيروت .
- العمري ، امال ، ١٩٧٦، العمارة في العصر الفاطمي ، محاضرات قررت على طلب كلية الآثار، جامعة القاهرة .



- الفقي، عصام الدين عبد الرووف، (د.ت.) تاریخ المغرب و الاندلس ، مطبعة نهضة الشرق، جامعة القاهرة .
- اليوزيكي، توفيق سلطان، ١٩٨٨م، الثغور ودورها العسكري والحضاري، وزارة التربية والتعليم العالي، ط. ٣، بغداد
- إبراهيم، حسن؛ شرف، أحمد طه، ١٩٤٧م، عبد الله المهدى ، النهضة المصرية، القاهرة .
- إبراهيم ، سنوسي يوسف، ١٩٨٢ م، زناته والخلافة الفاطمية ، ط. ١ ، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة .
- جواد علي (جواد) ٢٠٠١م ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط. ٤ ، ج ٩ ، دار الساقى .
- دياب ، صابر محمد، ١٩٧٣، سياسة الدولة الإسلامية ، ط. ١. ، عالم الكتب، القاهرة .
- زبيس، سليمان مصطفى ، ١٩٦٣م ، بين الآثار الإسلامية في تونس ، منشورات دار الثقافة ، تونس .
- صبحي، الصالح ، ١٩٨٧م ، النظم الإسلامية ، ط. ٤ ، دار العلم ، بيروت .
- عبد الجود ، توفيق أحمد ، ١٠٧٦م ، معجم العمارة وإنشاء المباني مؤسسة الأهرام ، القاهرة .
- عبد الحميد، سعد زغلول ، ١٩٧٩، تاريخ المغرب العربي ، ج ٢، منشأة المعارف، الإسكندرية .
- عبد الوهاب، حسن حسني ، ١٩٦٨م ، تاريخ تونس ، ط. ٤ ، تونس .
- عباس، إحسان، ١٩٨٨م، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، ج. ٢. ، ط ٣ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت.
- عثمان ، محمد ؛ الستار ، ٢٠٠٦م ، موسوعة العمارة الفاطمية ، ج. ١ ، دار القاهرة .



- محمود، حسن أحمد، ١٩٩٠ م، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الثقافة ، القاهرة
- ملوك، لويس ملوك، (د.ت)، المنجد في اللغة و الأعلام، ط. ١٩، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
- مؤنس، حسين ، ١٩٩٠ م ، تاريخ المغرب وحضارته ، مج. ١، ط. ١، الدار السعودية للنشر.
- نواب، رابح ، ١٩٨١ م، المغرب العربي ، ط. ٢ ، الجزائر.

ثالثاً- المراجع المغربية :

- مامول كريخال، إفريقيا (١٩٨٨-١٩٨٩ م) ، ج. ٣ تعریب : محمد حجي ، محمد الأخضر ، محمد زنبر، أحمد التوفيق ، أحمد نجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة دار نشر المعرفة ، الرباط
- ليسترنج كي، د.ت. ، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكروكيس عواد (د. ط.) الكويت: مؤسسة الرسالة

رابعاً- المراجع الأجنبية :

Creswell; (K.A.C.), 1952, The Muslim Architecture of Egypt, Oxford.

-

- Dark Hill ، Luven ، Islamic Architecture in North Africa ، London.
- David Bramouille, 2019, Les Fatimides et la mer (909- 1171), Islamic History and Civilization, Studies and Text, Editorial Board , Seloastion Gunther, Brill.

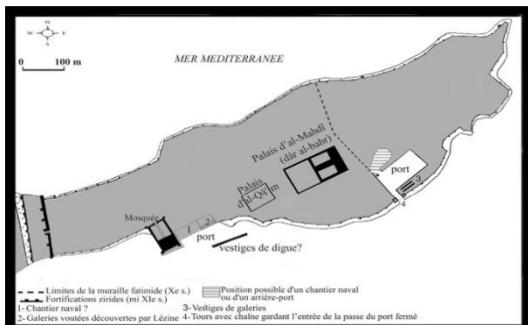
-Djelloul (Neji), ٢٠٠١، Mahdia capital des Fatimides ، Sousse ، Contraste Editions ، 2003; "Histoire topographique de Mahdia à l'époque Ottomane " Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis.



- Gautier(E .F.),1927 ; Les Siecles Obscurs du Maghreb , Paris.
- Hannezo (C.), 1907 et 1908 "Mahdia; notes historiques", R.T.
- Lavoix , Catalogue Des Manmales Musulm T. II, Paris
- Lezine, Mahdiya , 1965, Rechereches D'Archealogue Islamique, Klimcksiech.
- Marcais, Al Mahdiya Artile in the Encyclopeadia of Islam , Tome III, 19
- Marcais, 1946, L'Art de L'Islam , Paris.
- Marcais (G.), 1926 , Manuel D' Art Musulman , Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile, V.I. Paris.
- ROY , (Bernard)1915,"Inscriptions arabes de Mahdia" , Revue Tunisienne , №122.



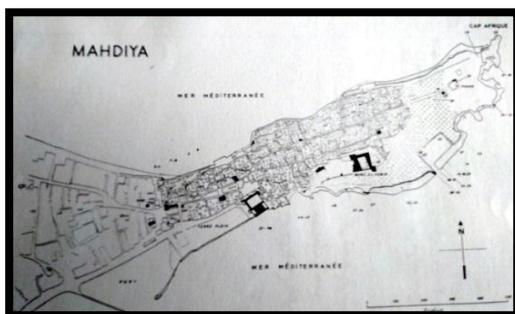
الأشكال:



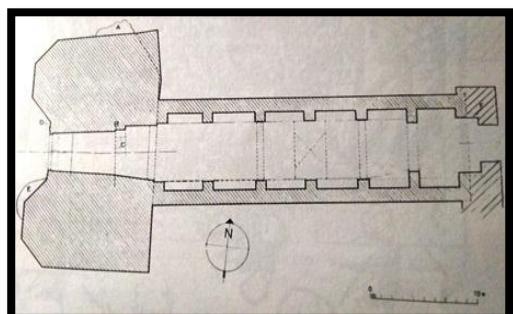
شكل - ٢



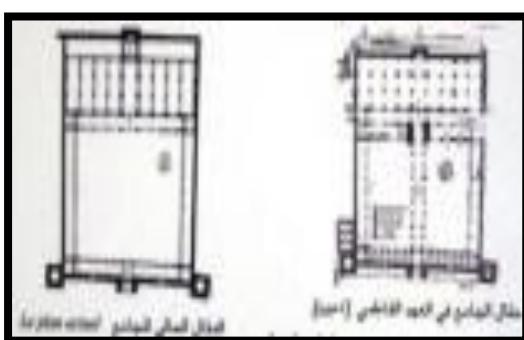
شكل - ١



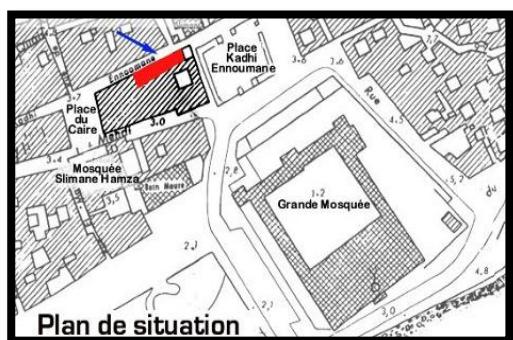
شكل - ٤



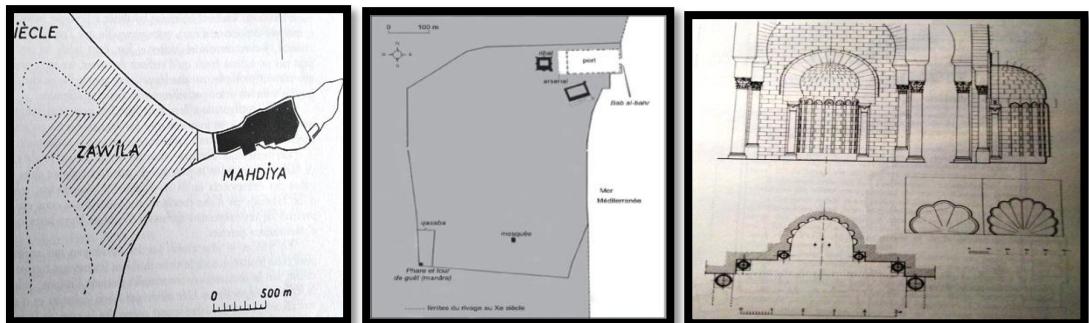
شكل - ٣



شكل - ٦



شكل - ٥





شكل - ٩

شكل - ٨

شكل - ٧

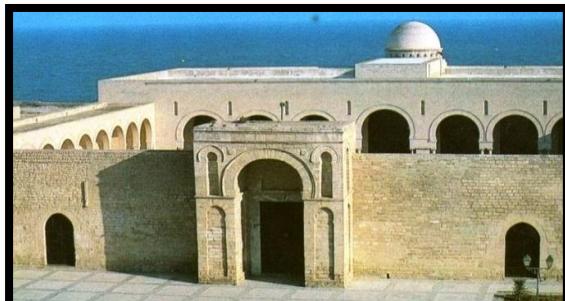
اللوحات:



لوحة - ٢ السقيفه الكحلاء



لوحة - ١ بقايا سور الغربي



لوحة - ٤ الجامع الكبير في المهدية



لوحة - ٣ منشأة ثغر المهدية



لوحة - ٦ بقايا دار الصناعة



لوحة - ٥ المدخل الرئيسي للجامع



لوحة - ٧ ميناء المهديّة (الصور للباحثة)



موقف الدولة الإسلامية من الرعايا غير المسلمين في بعض بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسى

أ.د. حصة بنت عبدالرحمن الجبر
أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الآداب
جامعة الملك سعود - الرياض

تمثل التعامل الإيجابي من قبل المسلمين الفاتحين في بعض بلاد المشرق الإسلامي في صور من العفو والتسامح الديني واحترام الحريات والعقائد، والقيم والعادات الاجتماعية.

ويندرج تحت ذلك الحديث عن مبادئ الإسلام القوية المتمثلة في: العدالة والسماحة والحرية والمساواة، وأثرها على الرعايا غير المسلمين في ربوء القارة الآسيوية في الدولة الإسلامية وخارجها في الإقبال على الدخول في الإسلام أزواجاً طواعية واختياراً؛ لأن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه تطبيقاً لقول رب العالمين سبحانه: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع علیم). (١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

ومن مظاهر معاملة الخلافة الإسلامية للرعايا غير المسلمين في المشرق الإسلامي علاوة على ترك الحرية الدينية، توفير الحماية لهؤلاء الرعايا مقابل دفع الجزية أو التعويض عنها بتقديم المساعدة للمسلمين، بالإضافة إلى ترك الحرية للرعايا غير المسلمين بالاحتفال بأعيادهم وأيامهم مثل عيد النوروز وعيد المهرجان ويوم السدق (٢) التي سوف يرد التعريف بها لاحقاً.

وسيتم تناول هذا الموضوع وفق المحاور التالية:

١. موقف أهل خراسان وبلاط ما وراء النهر وفارس من الفتح الإسلامي.
٢. موقف الإسلام من مخالفيه.
٣. الضرائب المفروضة على الرؤوس والأراضي والشجر والكرום.
٤. أعياد غير المسلمين وأيامهم وموقف المسلمين منها.

موقف أهل خراسان وبلاط ما وراء النهر وفارس من الفتح الإسلامي:

تقبل أهل خراسان وبلاط ما وراء النهر وفارس الفتح الإسلامي قبولاً حسناً، إذ لم يلق المسلمون منهم مقاومةً تذكر و خاصةً الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ولاة الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبداً اتسم بكثيرٍ من العنف والفوضى مما أثار غضب الأهالي وبغضهم للحكام و فضلاً عن ذلك، فإن أولئك الحكام كانوا ينادون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة، ويفسرون المجال لكهنتها حتى صار لهم نفوذ كبير في الدولة استغلوه في اضطهاد اتباع جميع الديانات المخالفة لهم كالنصاري واليهود والصابئة، وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة لدى الشعب نحو ذلك الدين و تلك الدولة التي أباحت هذا الاضطهاد.

ولما تم للMuslimين فتح فارس رحب بهم فريق من أهل فارس، إذ أتاح لهم ذلك أن يتخلصوا من ظلم حكامهم واستبداهم، ثم إعفائهم من الخدمة العسكرية، وأملاً في تمنعهم بالحرية الدينية. (٣)

ولما دخل الإسلام إلى بلاد أقاليم المشرق الإسلامي مثل: خراسان وبلاط ما وراء النهر وفارس ، اعتنقه أغلب السكان لما يمتاز به من البساطة علاوةً على وضوح أفكاره و نظرته الإنسانية و العالمية و استجابته لحاجات الناس (٤)، هذه المثل السامية التي وجدها أهالي البلاد في الإسلام جعلته ينتشر بينهم (٥) وخاصةً بين



الصناع و أصحاب الحرف و الطبقة العاملة الذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، فضلاً عن أن اعتاقهم الإسلام يتركهم أحرازاً و يضمن لهم المساواة.^(٦) و اختلفت من أسلم من أهالي البلاد بالعرب، وأصبحوا عنصراً إسلامياً مهمّاً^(٧)، لاسيما و أن دخولهم في هذا الدين كان بمحض إرادتهم و اختيارهم و في جو يسوده الهدوء و السلام^(٨) و لم تكن القوة أو العنف سبباً في كثرة إقبال الناس على الإسلام بدليل حسن المعاملة التي عامل بها المسلمون من ظل على دينه القديم^(٩). إذ بقيت بعض الجماعات على دياناتها القديمة كاليهودية وال المسيحية لدرجة أن عدد اليهود في مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر بلغ ثلثين ألفاً^(١٠)، وكان يقيم في جزيرة قيس^(١١) التابعة لإقليم فارس نحو خمسمائة يهودي^(١٢) وكان عدد النصارى أقل من ذلك، وفي ظل الدول التي نشأت في بلاد المشرق الإسلامي لقي هؤلاء الناس عنابة خاصة، فقد كان الأمراء الطاهريون في خراسان وبقية أقاليم المشرق يعطون أهل الذمة حرية إقامة طقوسهم الدينية دون تعرض لهم بل كان المسلمون يشاركون أهل الذمة أفرادهم وأعيادهم العامة^(١٣).

وقد تمت أهل هذه الأقاليم بالحرية الدينية؛ لأن الإسلام يبيح لغير المسلمين من يهود ونصارى وزرادشت وصابئة أن يمارسوا شعائر ديانهم إذا التزموا بدفع الجزية للMuslimين^(١٤).

والجزية مبلغ معين من المال يفرض على الرجال ويسقط بالإسلام، ولا تفرض إلا على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء ذوي القدرة المالية من أهل الكتاب والمجوس والصابئين والسامرة وكانت الجزية لا تؤخذ من المساكين والذين ليس لديهم قدرة على العمل (العاجزين) ولا من الأعمى أو المبعد أو المجنون ولا من ذوي الاحتياجات الخاصة ولا من الرهبان ولا من النساء والصبيان^(١٥). وكانت الجزية في

الأساس ضريبة نقدية حددت على قدر الطاقة لمختلف فئات الناس ومقدرتهم المالية على الوجه الآتي:

- على الغني ٤٨ درهماً تدفع أقساطاً ٤ دراهم في كل شهر.
- وعلى متوسط الحال ٢٤ درهماً تدفع أقساطاً درهمين في كل شهر.
- وعلى الفقير ١٢ درهماً تدفع أقساطاً درهم في كل شهر. (١٦)

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام، بل هي قديمة فرضها الإغريق على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من الفينقيين كما وضع الرومان والفرس الجزية على بعض رعايا الدول التي أخضعواها وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعها المسلمون، والظاهر أن العرب أخذوا هذا النظام من الفرس. (١٧)

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان؛ لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة، لذا فرضت الجزية على الذميين نظير الدفاع عنهم وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها ومقابل إعفائهم من القتال في جيوش المسلمين وحمايتهم من الأعداء والدفاع عنهم وعن أملاكهم ومنحهم حرية العبادة (١٨). وتؤخذ الجزية مره واحدة في السنة القمرية مع إمكان التقسيط. (١٩)

موقف الإسلام من مخالفيه:

كان للإسلام مواقف مشرفة من مخالفيه وتساهله معهم، فقد وسع لهم تحت حكمه واحترمهم وقربيهم، ولم يكره أحداً من المجوس على اعتناق الدين الإسلامي وعاملهم بالحسنى والتسامح ولم يتدخل في شؤونهم الدينية، (٢٠)

وكان الإسلام ينتصر حتى للمشرك، فقد تكفل بحمايته إذا استجار بالمسلم لقوله تعالى (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَجَارَ فَأُجْرِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ). (٢١)

والدليل على حسن المعاملة التي عامل بها المسلمون من ظل من الفرس على دينه القديم ومنهم المجروس الذين ترك لهم المسلمون حريرتهم في عبادتهم الزرادشتية التي كانت منتشرة في أنحاء فارس، ومن الأدلة على تسامح المسلمين حيال أصحاب الأديان الأخرى انتشار معابد النار التي ظلت قائمة في جميع أنحاء فارس واستمرارها في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامي ولم يتعرض لها المسلمون بأذى. (٢٢)

أما بالنسبة لتأثير العوامل البشرية، فإن تنوع السكان وطبقات المجتمع أتاح المجال لتنوع الأعمال والحرف والأنشطة، فال فلاحون عملوا بالزراعة، حيث ترك المسلمون الأراضي بعد فتحها بيد أهلها لزراعتها. (٢٣)

و عمل الأكراد بحرفة الرعي في الشتاء والصيف. (٢٤) ، وبقي الدهاقين أو أصحاب الأراضي نواباً للحكومة في المناطق الريفية، وكان عملهم الأساسي جمع الخراج من الفلاحين و تحويله إلى مركز بيت مال المسلمين، وكان على الدهاقين تحديد قيمة الخراج على الفلاحين الذين عليهم دفعه. (٢٥)

الضرائب المفروضة على الأراضي والشجر والكرום ومال التكميلة وموقف المسلمين منها:

وتشمل الضرائب: ضريبة الخراج، مال التكميلة و خراج الشجر والكرم.

١- **الخرج:** ضريبة تفرض على الأراضي المفتوحة صلحاً أو عنوةً ويختلف مقدارها باختلاف مساحة الأرض و غلتها و سقايتها (٢٦) وقد حدّدت ضريبة الأرضي



الزراعية بخمس المحصول منذ سنة ٤٢٠ هـ - ١٩١٩ م، (٢٧) وقد أقر نظام المساحة منذ فتح بلاد المشرق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (٢٨)، وظل هذا النظام (نظام المساحة) معمولاً به حتى صدر العصر العباسي، (٢٩) وتکاد تجمع مصادرنا على أن نظام المقاسمة قد أعيد العمل به منذ عهد الخليفة المهدي (١٥٨) - (٣٠) هـ ٧٨٥ - ٧٧٤ م.

أما ابن رجب، فقد ذكر أن الخراج على نظام المساحة استمر إلى دولة بنى العباس ثم جعله الخليفة المنصور (١٣٦ - ٧٥٢ هـ). مقاسمة بسبب رخص الأسعار إذ لم تف الغلات بخراجها، وبسبب خراب منطقة السواد في العراق، ثم تبعه ابنه المهدي وجعله مقاسمة. (٣١)

ولعل تغيير نظام الخراج من المساحة إلى المقاسمة حدث في عهد المهدي على الأرجح، وأن المنصور كان قد فكر في العدول عن نظام المساحة إلى المقاسمة ضمن اهتماماته بالناحية الاقتصادية، كما ذكر الطبرى (٣٢) والمقصود بخراج المقاسمة أن تتقاسم الدولة والناس (المزارعون) ما ينتج من محصول بنسبة معينة: كالثالث مثلاً للدولة والثلثان للمزارعين أو الربع أو الخامس دون حساب المساحة فيتغير الخراج بتغيير مقدار المحصول الذي ينتج ونوعه. (٣٣)

نظام الجبائية:

كانت جبائية الخراج تتم بواسطة موظفين من أهل البلد الأصليين مباشرة كما هو الحال في بلاد فارس، حين استعانت الدولة الإسلامية بالدهاقين أو أصحاب الأرضي في تقدير الضرائب وجبائيتها. (٣٤) تحت الإشراف المباشر من قبل العمال المسلمين الذين يبعثهم الخليفة أحياناً مع الوالي، و كانت تقديرات الضرائب تسجل في قوائم أو صحائف أو سجلات و ترسل إلى عاصمة الإقليم لتدقيقها قبل فرضها و جبائيتها (٣٥) وكانت الطريقة المتبعة في جبائية الخراج بأن تجمع المحاصيل و الغلال ثم يأخذ منها حصة

الحكومة (٣٦) ، إلا إنه يجوز أن تقدر الضريبة بالنقد أو بعدد من الأشجار لاستيفاء ضريبة البساتين و الكروم. (٣٧) ، فإذا اجتمع الخراج و الجزية لدى الدهاقين، دفعوا مجموعهما إلى الوالي أو العامل المسلم ، وهذا دورة يدفع منه رواتب من معه من القواد والجنود والموظفين وما يحتاج إليه إصلاح الري من إقامة الجسور والسدود ونفقات الولاية ، ويبيعث بالباقي إلى بيت المال المركزي في عاصمة الخلافة . (٣٨).

ميعاد الجباية:

تختلف مواعيد الجباية حسب أسلوبها ، فالضريبة المفروضة حسب نظام المساحة كانت تجبى عند انتهاء السنة الهجرية ، وهي السنة القرمية (٣٩) .

وكان يؤخذ أيضاً بالسنة الشمسية (٤٠) ، التي لا تتناقض مع الضريبة النقدية الثابتة عند انتهاء الحول (السنة) (٤١)

والسنة القرمية ثلاثة وأربعة وخمسون يوماً بالتقريب ، وأولها بداية شهر محرم وأخرها نهاية شهر ذي الحجة (٤٢)

أما ضريبة المقاسمة ، فتتم جبايتها عند إدراك الثمار والغلات وبعد حصاد المحصول (٤٣) ، والسنة الشمسية ثلاثة وخمسة وستون يوماً بالتقريب ، أولها نزول الشمس برج الحمل (٤٤) وكان افتتاح الخراج أو الجباية في عيد النیروز كما سيرد (٤٥) .

والسنة الشمسية - كما هو معروف - تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلاً (٤٦) . وكان المسلمون يستعملون السنة الهلالية ، ولكنهم اضطروا فيما بعد إلى الأخذ بالسنة الشمسية ؛ لأن جباية الخراج تكون عند إدراك الثمار والغلات ، وهذه وقتها واحد في التقويم الشمسي ، مما جعل افتتاح الخراج في عيد النیروز (٤٧) أول أيام السنة حسب التقويم الفارسي القديم وهو اليوم الأول من شهر (افريدون ماہ) الذي كان أول شهور السنة الفارسية - كما سيرد - (٤٨) ، و كان الفرس يعملون

بنظام الكبس و هو كلما مضت ١١٦ سنة يلحقون بها شهراً تاماً، فتكون السنة الأخيرة كبيسة؛ لأنها ١٣ شهراً، فيتأخر موعد النيروز عن وقته الذي صار إليه ليعود إلى موعده الأساسي في حزيران من السنة السريانية (الفارسية) وهو شهر يونيو من السنة الرومية، وهو وقت الانقلاب الصيفي، و إدراك الغلات و نضجها.^(٤٩) فكلما تقدم الميعاد إلى (أيار) وهو مايو ردوه إلى يونيو ثم أغفل هذا الكبس بعد تأخر دولة الفرس وسقوطها بيد المسلمين، فتقدم ميعاد النيروز واستمر في عهد الإسلام حتى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٨٤٦ هـ). وحدث أنه بينما كان يتتجول في بعض بساتينه، و كان الزرع لا يزال أخضر استأنسه وزيره في جباه الخراج، فعجب من ذلك و سأله عن ما كان يفعله ملوك الفرس، فأخبر بنظام الكبس في عهد الفرس و إهماله منذ مدة طويلة، فأمر بحساب ذلك و إعادة ميعاد النيروز إلى موعده القديم، و كان قد تقدم حتى صار في نيسان (أبريل) فقرر تأخيره إلى ١٧ حزيران و أصدر أمره بذلك سنة ٣٥٧-٩٤٣ هـ.^(٥٠) مراعاةً لمنفعة الناس، وفي رواية أخرى أن المتوكل أمر بتعيين النيروز، فولى منجماً لتلك المهمة، فقتل المتوكل قبل تنفيذ هذا الأمر.^(٥١) وبعد مقتل المتوكل أعاد خليفه المنتصر بالله (٢٤٧-٨٦١ هـ). موعد النيروز وافتتاح الجباهية إلى نيسان، واستمر ذلك حتى جاء الخليفة (المعتضد بالله) وأخبر بعمل (المتوكل) فاستحسن و أمر بتأخير النيروز إلى اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو) فأخر ستين يوماً؛ وذلك للرفق بالناس، ومراعات لمنفعتهم وسمى ذلك (النيروز المعتضدي)، وطبق ذلك من سنة (٢٨٢-٩٥ هـ)^(٥٢) في جميع أقاليم الدولة الإسلامية.

وعلق أحد الدراسين على ذلك بقوله: "على كل، فإن الميعاد متى وقع في شهر يونيو (حزيران)، فإن ذلك كان نافعاً للناس لإدراك الغلات حول هذا الوقت".^(٥٣)



٢- **مال التكملة و خراج الشجر و الكروم :** كان بفارس ضريبة تدعى مال التكملة وتعود هذه الضريبة إلى أيام الدولة الفارسية وهي التي كانت تفرض على الأراضي التي يجلوا عنها أصحابها لسوء المعاملة ، و الضياع التي تخرب ، و يوزع ما كان يتربت عليها من خراج و هو من خراج المساحة على كاهل باقي المزارعين ، ثم أُبطلت بعد الإسلام ، و لما استولى (بنو الصفار) (٥٤) على فارس ، هرب قوم من أرباب الخراج عنها ، لسوء المعاملة فقسم خراجهم على الباقيين ، فأعادوا العمل بقانون فارس القديم (٥٥) ، و استمر عمال الخراج بجباية هذه الضريبة في بلاد فارس حتى عهد الوزير علي بن عيسى ابن الحراح في بداية وزارته الأولى (٣٠١-٩١٣هـ) حيث عُقد الضمان (٥٦) على (عبدالرحمن بن جعفر الشيرازي) على فارس فأخر المال ، و احتاج بتظلم أهل فارس من التكملة المذكورة و امتناعهم من أدائها ، فكتب الوزير علي بن عيسى إلى والي الأهواز و طلب منه التوجه إلى فارس و مطالبة عبدالرحمن بما حل عليه من المال و النظر في أمر التكملة و شرح أمرها (٥٧) وجاء الرد من فارس بشأن التكملة بأن العمال يستضعفون قوماً من أرباب الخراج فيلزمونهم التكملة أكثر مما يلزمهم ، ويرهبون آخرين ، فيحملونهم أقل مما يخصهم وأن مطالبة الناس بهذه التكملة ظلم ، وأن بفارس ما هو أولى بالمطالبة وهو خراج الشجر والكرום؛ لأن فارس افتتحت عنوةً، وهي في أيدي المزارعين على سبيل الإجارة، ولا حجة لهم في دفعهم إلا دعواهم أن المهدى أسقطه عنهم. (٥٨)

و خراج الشجر هذا كان أهل فارس قد ألغوا منه منذ خلافة المهدى الذي كان قد قلد (خالد بن برمك) ولاده فارس فأتاب عنه ابنه (يجي) الذي قام بتنقيط الخراج على السكان ، وأغافاهم من خراج الشجر الذي أرهقهم وجعلهم يتذمرون . واستمر هذا الإلغاء حتى خلافة المقى (٩٣٢-٩٠٧هـ/٢٩٥) (٥٩)، حين أعيد عليهم بعد أن أفتى الفقهاء بوجوب خراج الشجر وبطلان التكملة وتمكن

الوزير (علي بن عيسى) من إقناع الخليفة (المقتدر) بضرورة إلغاء التكملة وأمره بكتابة ذلك في حضرته. (٦٠) فكتب الوزير علي بن عيسى كتاباً يذاع في المساجد الجامعة بإلغاء هذا الرسم وهو ضريبة التكملة بفارس وإلغاء جبائيتها، وبوجوب خراج الشجر سنة (٣٠١ هـ-٩١٣ م)، والمطالبة به في سائر كور فارس على استقبال سنة (٥٣٠ هـ-٩١٥ م) (٦١)

وبالعودـة إلـى أعيـاد غـير المـسلمـين وأيـامـهم فـقد كان المـسلـمـون يـشارـكـون أهـلـالـذـمة فـي أـقـالـيمـ الـمـشـرـقـ أـفـراـحـهـمـ وأـعـيـادـهـمـ الـعـامـةـ وـمـنـهـمـ أـهـلـ خـراسـانـ وـمـاـ وـرـاءـ النـهـرـ وـفـارـسـ الـذـينـ كـانـواـ يـحـتـفـلـونـ بـبـعـضـ الـأـعـيـادـ وـالـأـيـامـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ وـبـقـيـ الـاحـتفـالـ بـهـاـ حـتـىـ الـقـرـنـيـنـ التـالـيـنـ وـالـرـابـعـ الـهـجـرـيـنـ وـمـنـهـاـ:

٦٢ عيد النيروز وعيد المهرجان ويوم السدق

^١-**عيد النوروز (النیروز):** وهو أعظم أعياد الفرس وأجلها (٦٣)

وَنِيَرُوز مَعْرُب نُورُوز NOV-ROOZ وَمَعْنَاهُ التَّرْكِيَّيُّ الْيَوْمُ الْجَدِيدُ، وَهُوَ اسْمٌ
مَكْوُنٌ مِنْ كَلْمَتَيْنِ فَارْسِيَّيْنِ هُمَا نُو بِمَعْنَى الْجَدِيدِ وَرُوز بِمَعْنَى الْيَوْمِ (أَيِّ الْيَوْمِ الْجَدِيدِ)
وَهُوَ عِيدٌ قَوْمِيٌّ يَحْتَفَلُ بِهِ جَمِيعُ الْفَرَسِ عَلَى اختِلَافِ نَحْلَمِ
وَلَهُمْ فِيهِ تَقَالِيدٌ يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا وَمُدْتَهُ عِنْدَهُمْ سَتَةُ أَيَّامٍ وَسُمِيَ الْيَوْمُ السَّادِسُ
النِّيَرُوزُ الْكَبِيرُ أَوْلَاهَا الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ شَهْرِ (فَرُورِدِينِ) (فَرُورِدِينِمَاهِ) أَوْ (فَرِيدُونِمَاهِ) أَوْ
(فَرِيدُونِ مَاهِ) الَّذِي يَوْافِقُ أَوْلَى شَهْوَرِ سَنَتِهِمْ، وَالنِّيَرُوزُ اذْنَ بِدُخُولِ فَصْلِ الصِّيفِ
وَالْيَوْمُ الْأَوَّلُ يَوْافِقُ أَوْلَى شَهْوَرِ سَنَتِهِمْ الْفَارَسِيَّةِ (وَهُوَ عِيدُ رَأْسِ السَّنَةِ الْفَارَسِيَّةِ) وَهُوَ
أَوْلَى شَهْوَرِ الرَّبِيعِ فِي التَّقْوِيمِ الْفَارَسِيِّ وَيَوْافِقُ شَهْرَ يُونِيُّو (حَزِيرَانَ). (٦٤)

وقد جعله الفرس ميقاتاً للبدء في جبایة الخارج، فاستمر ذلك التقليد في العصر الإسلامي.



ومن العادات التي كان الفرس يفعلونها في هذا اليوم: التهادي بالسكر، ويقال إن السبب في ذلك أن السكر اكتشف في إيران في يوم النوروز، لهذا كان الناس يتهددون به وينتربكون به في هذا اليوم، ومن عاداتهم أيضًا في هذا اليوم إيقاد النار ليلة هذا اليوم ورش الماء (يرش الناس بعضهم بعضًا بالماء في الصباح) لاعتقادهم أن إيقاد النار يطهر الجو من وخم الشتاء والماء يطهر الأجساد مما علق بها من أدران العام المنقضي أو الماضي وينظفها من دخان النيران التي أوقتت ليلة النوروز . بالإضافة إلى تولية العمال تقريب القريان وإشادة البناء . (٦٥) ومن عاداتهم أيضًا تبادل الهدايا فيما بينهم وإرسالها إلى حكامهم كما كان يحدث في قرية نصير أباذ بقزوين كما كان أهل إصفهان يقبلون على شراء البضائع والهدايا في عيد النوروز بأثمان رخيصة، ويكثر اعتياد الناس للسوق والجميع في سعادة وابتهاج . (٦٦)

٢- عيد المهرجان (تيمروز):

وهو مهرجان MEHR-GAN كان

على وزن ومعنى معربه مهرجان وهو في السادس عشر من شهر مهرماه من شهور الفرس وهو الشهر السابع من سنته ويوافق شهر ديسمبر (كانون الأول)، وهو أكبر أعياد الفرس بعد النوروز ومدته ستة أيام ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر وكان يحتفل به أول الشتاء، وكان الناس يتداولون الهدايا مثلما كانوا يفعلون في عيد النوروز . (٦٧) ومن مظاهر احتفال بعض رجال الحكم باقليم الجبال اجتماع الشعراء عندهم في قصورهم لسماع القصائد في مدحهم . (٦٨)

وسبب تسمية المهرجان بهذا الاسم أنهم كانوا يسمون ملوكهم بأسماء شهورهم، فاتفق أن أحد ملوكهم كانوا يسمونه مهر وكان يتصف بالعنف والعسف، فمات في شهر مهرماه، فسمى الناس ذلك اليوم الذي مات فيه مهرجان ومعناه روح مهر ذهبت أو نفس مهر ذهبت وجعلوه يوماً يحتفل به . (٧٠)

وكانوا في خراسان وبلاد ماوراء النهر يزينون الأسواق في أيامهم هذه ولا يجدون غضاضة في مشاركتهم المجنوس أيامهم مادامت لا تؤثر على عقيدتهم، كما اعتاد الناس في هذا اليوم قرع الطبول، والنفخ في الأبواق وتعليق الزينات وكان بعضهم يعتقد أن من أكل في هذا اليوم رمان وشم ماء الورد دفعت عنه آفات كثيرة (٧١) وفيه يأكلون الدجاج المشوي والبيض المسلوق وبعض المحممرات والصميط، ويتناولون الطعام بأصابعهم (٧٢) وما تجدر الإشارة إليه أن كلمة مهرجان دخلت إلى اللغة العربية وصارت تطلق على احتفال مهم أو اجتماع عظيم (٧٣)

عيد السدق (سَدَه):

السدق تعرّيب سَدَه وعيد (سَدَه) يقع في العاشر من شهر بهمن (بهمن ما) من شهر الفرس (٣٠ كانون الثاني، يناير - فبراير) وهو من الأعياد الفارسية القديمة كانوا يلعبون فيه بالأسمهم النارية. (٧٤) وكان أهم أيام النار وكان الفرس في مسائه يتخرّون لطرد السوء ومن الرسوم في ليلة السدق إشعال النيران وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور في لهبها والتلهي حولها (٧٥) ويبداً الاحتفال به ليلة الحادي عشر من شهر بهمن، وذلك اليوم الذي يسمى أيضاً أبان روز ويرجع سبب التسمية إلى فريساب أحد ملوك الفرس القدمى الذي سار إلى بابل وأكثر فيها الظلم والفساد وخرب العمran فخرج عليه رجل يدعى دق بن طهه ماسب وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك في يوم أبان روز من شهر بهمن فاتخذ الفرس ذلك اليوم عيداً لهم وكانوا يوقدون النار في ليلته واحتفلهم به يشبه احتفالهم بيوم النيروز (٧٦) ولعل الاحتفال بهذه الأعياد والأيام لإيجاد نوع من الترابط والموافقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وعادة للفرح والسرور غير مرتبطة بقضية عقيدة.

قائمة المصادر والمراجع و الهوامش

- ١٠ - القرن الكريم، سورة البقرة، آية ٢٥٦.

٩ - الطاهر: عبد الباري محمد، خراسان وبلاد ما وراء النهر بلاد أضياع العالم بالإسلام، دون بيانات نشر، ص ١٠٨، ص ١٠٩.

٨ - جزيرة قيس: ويكتبها الفرس(كيس) ويلفظ اسمها بصورة قيس وقيش وكيش وكيس (ابن خردانية): عبيد الله، المسالك والممالك مكتبة المتنبي، بغداد، د.ت.، ص ٦٢.

٧ - الظاهر: عبد المنعم، إيران في ظل الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، ص ٢٥.

٦ - أرنولد، المراجع السابق، ص ٢٣٧.

٥ - الطبرى: محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧هـ، ص ٥٥٢، ج ٢ ص ٥٤٨.

٤ - على إبراهيم: التاريخ الإسلامي، ص ٢٣، Morgan, David: Medieval Persia, ١٩٧٠م، ص ٣٧٨.

٣ - البلذري: أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ٣٧٨، كريستنسن: آثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٦١، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٧، ٧٥، ١٠٧، ٧٥، ٥٥.

٢ - حسنين: عبد المنعم، إيران في ظل الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، ص ٢٥.

- ١٢- بنiamin التطيلي: بنiamin بن يونه، رحلة بنiamin ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م، ص ١٦٤،
- ١٣- عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٠٩
- ١٤- كريستنسن، المرجع السابق، ص ١٦١، أرنولد، المرجع السابق، ص ٢٣٥ - ٢٣٧
- ١٥- أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، تحقيق محمد البنا، دار الإصلاح، د.م.، ١٤٠١هـ، ص ٩١ - ٨٧ ، ٢٥٣، ابن زنجويه: حميد بن مخلد، كتاب الأموال، تحقيق شاكر فياض، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ١٤٠٦هـ، ج ١ ص ٣٦٨، ١٩٥، ١٥٦، ، البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار مطبع الشعب، د.م.د.ت.، ج ٤، ص ١١٧
- ١٦- أبو يوسف، المرجع السابق، ص ٨٧، ٢٥٣، الشافعي: محمد بن ادريس، الأم، الدار المصرية، بولاق، ١٣٢١هـ، ج ٤، ص ١٠٢ ، ابن سلام: أبو عبيد، الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ج ١، ص ٢٥ - ٢٤
- ١٧- علي حسن، المرجع السابق، ص ٥٤٣-٥٤٥
- ١٨- أبو يوسف، المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٧ ، ابن قدامه: عبد الله بن أحمد، المقفع، مطبعة مجلة المنار الإسلامية، مصر، ١٣٢٢هـ، ص ٢٤٣
- ١٩- الشافعي، الأم، ج ٤، ص ١٩٣ - ١٩٢- ابن قيم الجوزي: محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، دار العلم، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٣٩، الحسن: محمد، العلاقات الدولية، مكتبة النهضة الإسلامية، الأردن، ١٤٠٠هـ، ص ٣٤
- ٢٠- ابن آدم: يحيى، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ٢٢، عريب: عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٨٩.. Frye, m., iran, london, 1960, p.45.
- ٢١- القرآن الكريم، سورة التوبه، الآية ٦ .
- ٢٢- المسعودي: علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندرس، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٢٤٣ - ٢٤٩ - الإصطخري: إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، مطبعة بربيل، ليدن، ١٩٢٧م، ص ١٠٠، ص ١١٨ - ١١٩

- ٢٣- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص ٢٢ زيدان: جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، ج ٢، ص ٣٠١ - ٣٠٠، مصطفى: شاكر، دولة بنى العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٥٧٦ - ٥٧٥.
- ٢٤- الإصطخري: إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧م. ص ٩٩، ص ١١٥ - ١١٤المقدسي: محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٠٦م، ص . ٤٤٩
- ٢٥- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص ٢٢، جرجي زيدان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٠١ - ٣٠٠
- ٢٦- أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١١٠، ١٠٩، ٩١, ٨٧, ٧٣ - ابن زنجويه، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٨, ٣٦٥, ٢٢٠, ٢١٨, ٢١٤, ٢٠٩, ١٨٧
- ٢٧- الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٥١ ، يونس: أحمد عبد الحليم، تطور أنظمة استثمار الأرض الزراعية في العصر العباسي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦م، ص. ١٢٤.
- ٢٨- أبو يوسف، المصدر السابق، ج ٩١-٧٣، ١٠٩، ٩١-٧٣ ، ابن زنجويه، المصدر السابق، ص ٢٠٩، ٢١٢, ٢١٩ يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص ٢١, ٢٢
- ٢٩- ابن رجب الحنبلى: عبد الرحمن بن أحمد، الاستخراج لأحكام الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ٩، ١١؛ الماوردي، المصدر السابق، ص ١٩٨، حسن: حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٢٥٧.
- ٣٠- البلاذرى، المصدر السابق، ص ٢٨٢-٢٨٠ -، ابن الطقطقى: محمد بن علي بن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، شركة طبع الكتب العربية، مصر ١٣١٧هـ، ص ١٦٤، الماوردي، المصدر السابق، ص ١٩٨، أبو على: محمد بن الحسين الفرا، الأحكام السلطانية، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٣٨٦هـ، ص ١٨٥.
- ٣١- الاستخراج لأحكام الخراج، ص ١١.
- ٣٢- تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٢٢.
- ٣٣- أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١١٢، الرحيى: عبد العزيز بن محمد، فقه الملوك ومقاييس الرثاج، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣م، الكتاب الثامن، ج ١، ص ٣٥، ٣٤٧, ٣٥٠ ، دينيت: دانيel، الجزية والإسلام، ترجمة فوزي فهيم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م، ص. ٥٨.

٣٤- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص ٢٢ جرجي زيدان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٠، Morgan, OP,cit.p.16,- 301

٣٥- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٧٦، ٥٧٧

٣٦- الصابي: هلال بن المحسن، الولزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م، د.م.، ص ١٧، ١٢، ١٢، يونس، المرجع السابق، ص ١٢٩

٣٧- التوخي: المحسن بن علي، نشوار المحاضرة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت، ١٩٧٨م، د.ت.، ج ٨، ص ٨٧، الجومرد: عبد الجبار، أبو جعفر المنصور، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٣٣٧.

٣٨- مسكويه: أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر، ١٩١٥م، ج ١، ص ١٨، ٣٧٤ ، الدوري: عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، ١٩٤٥م، د.ن، ص ١٩١، ١٩٠ .

٣٩- مسكويه، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٩ ، الماوردي، المصدر السابق، ص ١٧ ، أبو يعلى، المصدر السابق، ص. ١٦٨

٤٠- ابن مماتي: أسعد بن المهدب، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريان عطية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٣م، د.م.، ص ٣٥٨.

٤١- احمد يونس، المرجع السابق، ص ٧١.

٤٢- البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقوله، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٧٧هـ، ص ٢٩٥ ، ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٥٨.

٤٣- أبو يوسف، المصدر السابق، ص ٢٣٠ ، الماوردي، المصدر السابق، ١٧٠ ، أبو يعلى، المصدر السابق، ص ١٦٨.

٤٤- البيروني، المصدر السابق، ص ٢٩٥ ، ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٥٨.

٤٥- الجاحظ: عمرو بن بحر، كتاب الناج، تحقيق فوزي عطوى، دار صعب، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١٤٦، الزمخشري: محمود بن عمر، ربيع الأبرار، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٦م، ج ١، ص ٨٥ .

٤٦- ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٥٨ ، الخضري: محمد بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية -، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠م، ص ٣٢٣.

- ٤٧- الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٦١، الخضري بك، المرجع السابق، ص ٣٢٣.
- ٤٨- المسعودي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤، ٣٥، النويرى: أحمد بنعبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ج ١، ص ١٨٥, ١٨٦ ، وانظر عيدى النيروز والمهرجان، ص ٧, ٨ من هذا البحث.
- ٤٩- المسعودي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤, ٣٥ ، البيرونى، الآثار الباقيه عن القرون الخالية، لايزلج، ١٩٢٣م، د.م.، ص ٤٤, ٤٧ . The encyclo paedia of islam – ٤٤, ٤٧
- ٥٠- البيرونى: الآثار الباقيه، ص ٤٤, ٤٧ ، المقرىزى: أبو العباس أحمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، د.ت.، ج ١، ص ٢٧١, ٢٧٧ .
- ٥١- ابن الجوزى، المصدر السابق، ج ٥، هامش ص ١٤٩ ، الخضري بك، المرجع السابق، ص ٣٢٤ ، جرجى زيدان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٢ .
- ٥٢- الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٦١٠ ، ابن الجوزى، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٩ ، ابن الأثير: عزالدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٧، ص ٤, ١٨٦ .
- ٥٣- الرئيس: محمد ضياء الدين، الخراج في الدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، مصر، ١٩٥٧م، ص ٥١٤ .
- ٥٤- بنو الصفار: أو الدولة الصفارية: خضعت فارس للسيطرة الصفارية عندما تمكّن يعقوب بن الليث من الاستيلاء عليها سنة ٥٢٥٥هـ/١٠٦٨م، وبقيت فارس تحت السيطرة الصفارية حتى عام ٥٢٩٧هـ/١٩٠٩م، وأبرز شخصيات الدولة الصفارية مؤسسها(يعقوب) ويليه أخوه (عمرو) ثم خلفاء عمرو. (الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٢٧, ٤٢٩)
- ٥٥- الصابى: الوزراء، ص ٣٦٦ ، علي: محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج ٢، ص ٢٥١ .
- ٥٦- الضمان: وهو أن يجعل شخص قبيلاً أي ضاماً وكفياً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه للدولة وعرف فيما بعد بنظام الالتزام. (ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.، ج ٣، ص ١٣ ، الخضري بك، المرجع السابق، ص ٢٦١, ٥٠٧ ، الرئيس، ص ١٩٩)

- ٥٧ الصابيء، الوزراء، ص ٣٦٦، ٣٧١.
- ٥٨ الإصطخري، ص ١٥٨، الصابيء، الوزراء، ص ٣٦٧ - ٣٦٨، محمد كرد علي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٥١.
- ٥٩ الجهشياري: محمد بن عبادوس، الوزراء و الكتاب، تحقيق مصطفى السقا و آخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨ هـ / ١٣٥٧ م، ص ١٥١، ابن حوقل: أبو القاسم النصبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ٢٦٤ - ٢٦٥، الصابيء، الوزراء، ص ٣٦٨ - ٣٧٣.
- ٦٠ الإصطخري، المصدر السابق، ص ١٥٨، الصابيء، الوزراء، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.
- ٦١ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢٦٤ - ٢٦٥، الصابيء، الوزراء، ص ٣٦٩ - ٣٧٣ ، الهمذاني: محمد بن عبد الملك، تكملة تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧ / ١٣٩٧ م، ص ٢٠٣.
- ٦٢ عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص ١٢٨.
- ٦٣ الزمخشري محمود بن عمرو، رباع الأبرار ونصول الأخيار، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة العانى، بغداد، ١٩٧٦ هـ / ١٣٩٧ م، ج ١، ص ٨٥ ، التویری، نهاية الأرب، ج ١، ١٨٥ - ١٨٦ ، آل علي: نور الدين، التعريب، القاهرة، ١٩٧٩ م، ص ١٦٢.
- ٦٤ الجاحظ، الناج، ص ١٤٦ ، الزمخشري، رباع الأبرار، ج ١، ص ٨٥ ، نور الدين آل علي، التعريب، ص ٦٢ ، ١٤٢، ١٦٢.
- ٦٥ الجاحظ، الناج، ص ١٤٦ ، الزمخشري، المصدر السابق، ج ١، ص ٨٥.
- ٦٦ الجاحظ: عمر بن بحر، كتاب الناج، تحقيق فوزي عطوا، دار صعب، بيروت ١٩٧٠ م، ص ٤٦٩ . المافروخى، محاسن اصحابهان، ص ٩٣ ، الفزوبيني، اثار البلاد، ص ٤٦٩ .
- ٦٧ الجاحظ: المحاسن والاضداد، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ٢٠١، المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٣٤ - ٣٥ ، التویری المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٧ ، نور الدين آل علي، التعريب، ص ٢٠٣ ، الفقشندي، المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٤٢٢ ، الشعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤ ، ص ١٣٨ .
- ٦٨ البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٣ ، الشعالبي، يتيمة الدهر، ج ٣ ، ص ١٦٣ .
- ٦٩ الصياد: فؤاد عبد المعطي، النوروز وأثره في الأدب العربي، ص ٢٥ .

مجلة المؤرخ العربي - العدد (٢٩) - المجلد الأول - ٢٠٢١ م — أ. د. حصة بنت عبدالرحمن الجبر

- ٧٠- التونجي: محمد، المعجم الذهبي، فارسي، عربي، دار العلم للملاتين، بيروت، ١٩٨٠ م، ص .338
- ٧١- البيروني، الآثار الباقية، ص 232.
- ٧٢- البيهقي: ابو الفضل محمد بن حسين(ت ٤٧٠) كتاب تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص 16.
- ٧٣- فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص 25، هامش ١.
- ٧٤- النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص ١٨٧ ، القلقشندي: أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.، ج ١، ص 421.
- ٧٥- البيهقي: ابو الفضل محمد بن حسين(ت ٤٧٠) كتاب تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص 16.
- ٧٦- عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص 129.

من جديد حول الإدريسي إشارات اجتماعية واقتصادية من كتاب نزهة المشتاق -الأندلس أنموذجاً-

أ. د. كمال السيد أبو مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
 بكلية التربية - جامعة الإسكندرية

مقدمة:

يعتبر الإدريسي^(١) (ت سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) من أبرز الجغرافيين المسلمين الذين أسهموا بقدر وافر في تطور علم الجغرافيا في العصر الإسلامي، وهو ينتمي إلى الإسراف الأدراستي الحسنين الذي حكموا المغرب الأقصى منذ الربع الأخير من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وكذلك في مالقة والجزيرة الخضراء على يد بنى حمود الأدارسة في أعقاب الفتنة القرطبية وضعف الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وقد وَفَدَ الإدريسي على روجار الثاني النورماندي ملك صقلية، فأحاطه بالرعاية والتكريم، ورسم له خريطة للعالم المعروفة في عصره، كما أَلْفَ له كتاباً لوصف تلك الخريطة، وهو المسمى بالكتاب الروجاري أو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وصف فيه بلاد المغرب والأندلس وأسيا الصغرى ومصر والشام وصقلية والعديد من البلدان الأخرى سواء الإسلامية أو المسيحية، وعلاوة على ذلك، هناك مؤلفات أخرى للإدريسي مثل كتاب "أنس المُهج وروض الفرج"، ("نشره وحققه جاسم عابد بمدريد سنة ١٩٨٩") وهو مختصر لكتابه "روض الأننس ونزهة النفس، أو كتاب "المصالك والممالك" والأدوية المفردة" أو "كتاب الجامع لأنشتات النبات" ولا يزال مخطوطاً كما يذكر أستاذنا د/ مؤنس^(٢).

وبهمنا في هذا الصدد كتابه "نزهة المشتاق" وبالتحديد وصفه لبلاد الأندلس - موضوع الدراسة - حيث قسمها المؤلف إلى أقاليم ذكر أسماءها، ثم بدأ في وصف كل مدينة أو قرية أو حصن، موضحاً الموقع ومدى تحصينه وكيفية السُّقُيَا سواء من مياه الأودية (الأنهار) أو الآبار والعيون أو الأمطار. ونلمس نقاً ملاحظته في توضيح حالة تلك الأودية، وهل هي

دائمة الجريان طوال العام أم موسمية؟ وأيضاً مياه الآبار، وهل تمتاز بالعنوية أم غير صالحة للشرب؟، كما تعرض لما حول الموضع أو المدينة من بواحٍ أي مناطق قروية زراعية، وما تستهير به من محاصيل وثروة حيوانية أو معادن وصناعات ومتاجر.

ومن ناحية أخرى اهتم الإدريسي بالحديث عن المسافات بين كل مدينة وأخرى بالأميال والمراحل والأيام^(٣)، وكذلك الإشارة أحياناً لأحوال السكان الاقتصادية ومستواهم المعيشي وطبائعهم وأخلاقهم وبعض عاداتهم الاجتماعية، علاوة على مراكز استقرار بعض القبائل العربية والبربرية في جهات الأندلس المختلفة، ومظاهر العمران الحضري والقروي من دور ومساجد وحمامات وأسواق وفنادق وقصاب أو قلاع، كما ألمح إلى بعض المكابيل والموازين والمقاييس والعملة في عصره (القرن ٦هـ / ١٢م) أي عصر المرابطين وأوائل عصر دولة الموحدين.

وقد اعتمد الإدريسي في القسم الخاص بالأندلس من كتابه "نزهة المشتاق" على مصادر سابقة عليه لجغرافيين أندلسيين من أمثال الرازي والعذري والبكري، علاوة على مشاهداته الشخصية واستفادته من التقى بهم من أهل الخبرة بالنواحي أو المواقع الأندلسية المختلفة^(٤).

تمهيد:

يتضح لنا من خلال وصف الإدريسي لبلاد الأندلس أنه قسم المدن الأندلسية من ناحية الأهمية والمساحة وال عمران الحضري إلى ثلاثة أنواع وهي: إما قواعد أو حواضر كبرى مثل قرطبة وطليطلة وسرقسطة وبلنسية وإشبيلية وغرناطة ومرسيية^(٥)، أو مدن متوسطة القدر مثل شريش والمنكب ووادي آش وبيسطة^(٦)، وأخيراً مدن صغيرة مثل مربلة وباغة ولقت ولاردة^(٧).

كما قسمها من ناحية التأسيس إلى نوعين: وهي إما مدن قديمة أزلية أي سابقة على الفتح الإسلامي مثل طليطلة وقرطبة وماردة، وقرطاجنة الحلفاء ولبلة وسرقسطة^(٨)، أو مدن محدثة أي من تأسيس المسلمين بعد الفتح مثل مدينة سالم وقلعة أئوب ومرسيية والمرية ومجريط^(٩).



كذلك، لم يغفل الإدريسي الاهتمام بالعمران القروي، فألمح إلى وجود العديد من القرى الأندلسية التي تشبه المدن في عمرانها وكتافة سكانها، والتي يصفها في مواضع عديدة بأنها قرى "آهله عامرة"^(١٠)، وأوضح أيضاً أن هناك بعض الحصون تماض إلى حد كبير المدن في عمرانها، فيذكر أنها "عامرة ممدنة آهله"^(١١).

ومن ناحية أخرى، أ Medina الإدريسي بإشارات قيمة تتعلق بالتقسيمات الإدارية في الأندلس، وحدود الكُور، ومن ذلك أن قطرة لبلة هي الحد لفاصل بين كورتي إشبيلية ولبلة، كما تعرض لأهم الطرق التجارية الداخلية، والمنازل أو المحطات الواقعة عليها، والتي تقدم خدماتها للتجار والمسافرين^(١٢).

أولاً: الإشارات الاجتماعية:

اهتم الإدريسي كثيراً في وصفه الجغرافي لبلاد الأندلس بمظاهر العمران الاجتماعي والاستقرار البشري في مختلف جهات الأندلس، فتعرض للدور ليس في الحاضر فحسب بل أيضاً في المجتمعات القروية، ومن أمثلة ذلك وصفه لمدينة سرقسطة بأنها "كبيرة القطر آهله بالسكان واسعة الشوارع والرحايب وحسنة الديار...."^(١٣)، وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجبارها ولطاء واجهات دورها باللون الأبيض^(١٤)، أما شلب فهي مدينة حسنة، بدبعة المباني^(١٥)، وبساطة تشتمل على ديار حسنة البناء^(١٦)، ومدينة بليش (قرب بطليوس) بها عمارة وديار كثيرة^(١٧)، في حين أن قرى إشبيلية عامرة بالديار الحسنة^(١٨)، وكذلك قرى إقليم الشرف (غرب إشبيلية) والتي تبلغ ثمانية آلاف قرية "عامرة آهله"^(١٩)، ورغم أن هذا العدد يتسم بالبالغة من جانب الإدريسي إلا إن له دلالة على مدى اتساع العمران في تلك القرى وكثرة سكانها خاصة في ظل النشاط الفلاحي الواسع الذي يتميز به إقليم الشرف المشهور بزراعة الزيتون.

وألمح الإدريسي أيضاً إلى أراضي بعض المدن وعمرانها الحضري وكتافة سكانها مثل ريقن الحوض غرب المرية حيث يصفه بأنه عامر بالناس والديار والفنادق^(٢٠). وفيما يختص بالعمران البشري والقروي، فقد زودنا بإشارات مهمة في هذا الصدد، ومن أمثلة ذلك ذكره العديد من أسماء القرى والمحصون على طريق الوادي الكبير بين إشبيلية وقرطبة، مثل قرية أرجاء الزرادة وعطاف منزل أبيان وقطنيانة والقليعة ولوحة وحسن

الجوف وشوشيبيل وحصن المدور ووادي الرمان وأرحاء ناصح^(٢١)، ويضيف بأن الكثير من القرى والحسون تقع أيضاً على الطريق بين المرية وغرناطة مثل قرية بني عبادوس وحصن مندوجر ومرشانه وبذوز والرتبة وعلبة وغيرها^(٢٢).

ومن مظاهر العمران الاجتماعي هناك الحمامات التي أسهمت بدور كبير في الحياة الاجتماعية باعتبارها أحد المواضع التي يجتمع فيها الناس للنظافة والطهارة والسمر ومجالس الأنس، وتعرض الإدريسي لكثرة الحمامات في بعض الحواضر مثل قرطبة والمرية وملقة وغيرها، وكذلك في بعض المدن الصغيرة والقرى الكبيرة مثل طريف وقرى إقليم الشرف وقرية عذرة وبزليانة وحصن قيشاطة^(٢٣).

كما تحدث عن منشآت ذات طابع اجتماعي علاوة على دورها التجاري مثل الفنادق، فأوضح كثرتها في بعض الحواضر مثل قرطبة والمرية التي بلغ عدد فنادقها خلال عصر المريطين (القرن ٩٧٠ هـ / ١٤٥٢ م) فندقاً^(٢٤)، وأشار إلى وجود فنادق في مدن أخرى مثل مالقة وطريف وحصن قيشاطة^(٢٥).

وقد وجَّه الإدريسي اهتمامه أيضاً بمرکز استقرار بعض القبائل العربية والبربرية في الأندلس، فيذكر أن بعض القبائل العربية استقرت في مواضع ثُسبت إليها مثل قبيلة غافق (من العرب العدنانية) ينسب إليهم حصن غافق^(٢٦) (شمال قرطبة)، وقبيلة مراد (من العرب اليمنية) التي استقرت في حصن مراد^(٢٧) (قرب حصن المدور بين إشبيلية وقرطبة)، وقبيلة صدف اليمنية التي تُنسب إليها قرية صدف (آخر حدود كورة إشبيلية من ناحية الشرق). كما نزلت جماعات من العرب القضايعين (اليمنية) وعلى رأسهم بنو أسود - بساحل بجانة لحراسته، وتُنسب إليهم راية القبطة أو قابطة بني أسود^(٢٨)، كذلك كان سكان مدينة شلب وقرابها من اليمنية^(٢٩).

ويضيف بأن هناك بعض القبائل البربرية استقرت في مواضع معينة سواء في جنوب الأندلس أو في الثغور، كما في قرمونة التي كان معظم أهلها من البربر، واستقل بها بنو برزال (من بطون زناته) وأقاموا إمارة بربرية أولئك عصر دويلات الطوائف (القرن ٩٥١ هـ)^(٣٠)، وكذلك شنت فيله (من أعمال كورة إشبيلية) التي يصفها بأنها "معقل البربر من قديم الزمان"^(٣١)، وفي مناطق الثغور حيث استقر بنو سالم (من بير مصمودة) في



الموضع الذي عُرف بهم (مدينة سالم) وبنو رزين (من ببر هواره) أصحاب شنتمية الشرق أو السهلة، التي تُسبّب إليهم (سهلة بني رزين)، وبنو دانس (من ببر مصمودة) الذين نزلوا بموضع عُرف باسمهم وهو قصر أبي دانس بغرب الأندلس^(٣٢).

وألمح الإدريسي أيضاً إلى بعض المدن التي سكنها اليهود منذ ما قبل الفتح وكانوا يمثلون أغلبية سكانها مثل طركونة التي يصفها بأنها "مدينة اليهود"^(٣٣)، وكذلك اليسانه وتسمى أيضاً بـ"مدينة اليهود"^(٣٤).

وجدير باللحظة؛ إن الإدريسي أ Medina بـإشارات قيمة - فلما نجدها في المصادر الأخرى - عن طبائع وأخلاق سكان بعض المدن والقرى والحسون، ومن ذلك أن سكان شلب وبواييها أو قراها يتكلمون العربية الفصحى؛ لأنهم من اليمنية - كما سبق الذكر - كما يمتازون بالفصاحة ونظم الشعر، وهم نبلاء سواء أفراد خاصة أو العوام^(٣٥)، كما إن سكان بواديها يتصفون بالكرم الشديد لا يجاريهم في ذلك أحد من أهل الأندلس^(٣٦)، في حين أن سكان مدينة ترجالة (شمال مارده) يغلب عليهم الصوصية والخداع^(٣٧)، ويضيف بأن نساء بليش (غرب الأندلس قرب بطليوس) يتميزن بالجمال الفائق، وكذلك نساء جنجالة (من أعمال كورة مرسية) لديهن جمال وحصافة^(٣٨).

ولم يغفل الإدريسي الحديث عن شجاعة وفروسية سكان بعض المناطق الغربية، ومن ذلك حصن فاصرش (قرب ترجالة)، حيث يصف أهلها بأنهم فرسان شجعان، لهم غارات وغزوات عديدة في أراضي النصارى الإسبان المجاورة لهم بمنطقة غرب الأندلس^(٣٩)، كذلك سكان ترجالة ومعظمهم من الفرسان والرجالات الذي يقضون جُل حياتهم في الجهاد والإغارة على النصارى الإسبان المتاخمين لأراضيهم^(٤٠)، كما وصف أهل حصني بطروش وغافق بالحزم والنجدة والجلد والاستبسال في محاربة أعدائهم^(٤١)، وكذلك سكان حصن إفراغه بالثغر الأعلى الذين امتازوا بشدة البأس والشجاعة في الحروب خاصة، وأنهم في منطقة ثغرة تواجه مملكة أراجون المسيحية^(٤٢).

كما تعرض لسكان بعض الرُّبُط أو الرابطات سواء على السواحل أو في التغور مثل موضع يسمى الرابطة قرب المرية، وكان يضم قوماً لحراسة الطرق التجارية في تلك المنطقة من أخطر اللصوص وقطاع الطرق، وهناك أيضاً رابطة روطة قرب ساحل

قادس^(٤٣)، ورابطة كشطالي (شمالي طرطوشة) قرب وادي إبرة بالشغر الأعلى، ويصف سكانها بأنهم قوم أخيار^(٤٤)، وهم غالباً من المتصرفون الزهاد المنقطعين للعبادة والذكر والجهاد دفاعاً عن تلك المنطقة التعرية علاوة على دورهم العلمي في تدريس العلوم الدينية وعلم التصوف لمن يرد عليهم من طلاب العلم.

أفاض الإدريسي أيضاً في الحديث عن صفات وطبعات سكان الحاضرة قرطبة، فأوضح أنهم "أعيان العباد"، ويتصفون بحسن الزي من الملابس والمرأكب، وعلوّ الهمة في المجالس والمراتب، والتألق في الأطعمة والأشربة مع "جميل الخلاق وحميد الطرائق"^(٤٥).

وقد أمدنا الإدريسي بمعلومات مهمة عن عادات وتقاليد اختص بها سكان بعض المدن والمواضع الأندرسية، ومن أمثلة ذلك أن عادة أهل المرية في فصل الربيع الرحيل بصحبة نسائهم وأولادهم إلى حمة بجنة التي تميز بمياهها المعدنية الساخنة للاستشفاء، والتمنع بجمال الطبيعة في احتفال من الأطعمة والأشربة والتتوسع في الإنفاق، حيث يستأجرن المساكن بأسعار مرتفعة، وساعدتهم على ذلك بطبيعة الحال ما تمتعوا به من ثراء ورخاء؛ لأن غالبية أهل المرية من كبار التجار الذين حازوا الثروات الطائلة.

كذلك كان من عادة القساوسة والرهبان بكنيسة الغراب (قرب شلب) على مر الأزمان إكرام الغرباء والأضياف عابري السبيل الذين يردون على كنيستهم سواء قلوا أو كثروا، وورثوا تلك العادة عن أسلافهم، حيث امتلكت تلك الكنيسة أموالاً كثيرة مدخلة، علاوة على الأوقاف العديدة التي حُبست عليها في مختلف جهات غرب الأندرس^(٤٦).

ثانياً: الإشارات الاقتصادية:

أ- الري والزراعة:

يتضح لنا مما أورده الإدريسي أن مياه الري في الأندرس كانت تعتمد أساساً على مياه الأنهار (الأودية) والآبار والعيون في حين أن مياه الأمطار كانت قليلة وموسمية في معظم مناطق الأندرس^(٤٧).

وقد وصف الكثير من المدن والقرى والحسون بأن مياهها متذبذبة أو وفيرة الماء، ومن ذلك أن مدينة طليطلة أنهار مختربة^(٤٨)، ولنسية على نهر جار ينبع به ويسقي المزارع^(٥٠)، وأن بيريطر (ميريطر) مياه متذبذبة عشرون ميلاً^(٥١)، ومرسية على ضفة النهر



(أي نهر شقورة) والماء يشق رصها^(٥٣)، وسرقة على ضفة النهر الكبير المسمى إبرة^(٥٤)، أما جيان، فهي كثيرة العيون الجارية تحت سورها، وعلى مقربة منها نهر بلون^(٥٥)، وقلعة أبوب "عيونها مختلفة، وبنابيعها مغوفقة"^(٥٦)، في حين أن فحص الفنون قرب لورقة بکورة مرسية يعتمد الري فيه غالباً - على مياه الأمطار^(٥٧).

وسائل الري:

أشار الإدريسي إلى العديد من وسائل الري التي استخدمها الفلاحون ومنها آلات رفع المياه لري الأرضي الزراعية على ضفاف الأنهار أو عند الآبار والعيون مثل النواعير والدواليب^(٥٨)، كما وُجد ما يسمى بالدواميس مثل التي اشتهرت بها مدينة ماردة، وهي عبارة عن أحواض ضخمة لحفظ المياه مشابهة للصهاريج، ويدخل الداموس قناة أو ساقية تحمل الماء إلى كل أنحاء المدينة، ويصفها الإدريسي بأنها "مقنة البناء حسنة الصنعة"^(٥٩)، ويضيف نقاً عن ذوي الخبرة والمعرفة بمدينة المنكب أنها تشتمل على حوض كبير يأتي إليه الماء من مسافة ميل على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد، فيصب ماؤها في ذلك الحوض^(٦٠)، فينتفع به في الري، كما تدار به أرحاء طحن الحبوب بالمدينة.

كذلك ألمح الإدريسي إلى بعض المنشآت المائية لتنظيم أعمال الري التي ترجع إلى العصر الروماني، مثل القنابر كما في قرطبة وطليطلة وماردة واستجة ولبلة وغيرها^(٦١).

أما التربة، وهي من العوامل المهمة المساعدة على قيام وازدهار النشاط الفلاحي، فقد امتدح خصوبة تربة الأندلس في العديد من المناطق الزراعية، وعلى رأسها فحص الفنون، الذي يصفه بأنه طيب الأرض، وتتجود فيه الزراعة " وأن الزرع فيه يثمر بسقيّ مطرة واحدة، وإليه المنتهي في الجودة....."^(٦٢)، كما وصف الكثير من المدن القرى والحضر بخصوصية التربة، ولذا تجود الزراعة فيها مثل جيان ولفنت وفحص بلاطة بغرب الأندلس وبريانة بکورة بلنسية وقلعة أبوب وبابره وقصر أبي دانس وطليبرة (غرب طليطلة) ومحصن طشكراً (قرب بسطة) وبابرة وغيرها^(٦٣).

المحاصيل الزراعية:

تعرض الإدريسي للكثير من المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها البوادي (القرى) الأندلسية ومن أهمها القمح أو الحنطة، حيث تركزت زراعته في بعض المناطق مثل

فحص بلطة^(٦٣)، ويضيف نقا عن ذوي الخبرة من أهل أشبونة وغرب الأندلس أن الحنطة تزرع في هذا الفحص فقيم في الأرض أربعين يوماً فتحصد، وأن الكيل منها يعطي مائة كيل.".... وذاك لخصوصية التربة^(٦٤).

وهناك مناطق أخرى اشتهرت بوفرة الحنطة مثل يابرة وشريش وقرمونة وجيان وأبدة التي توفرت بها مزارع الفحص والشعير^(٦٥).

وقد أولى الإدريسي اهتماماً كبيراً بمحصول الزيتون لما له من أهمية في مجال التجارة الخارجية واقتصاد حوض البحر المتوسط؛ لأنه من المحاصيل النقدية في الأندلس، وتركزت أهم مناطق زراعته في إقليم الشرف بكور إشبيلية، حيث تمتد أشجار الزيتون بالشرف حتى لبلة^(٦٦)، وكذلك في شريش^(٦٧) وحصن بيانة (قرب قبرة)^(٦٨).

ويضيف الإدريسي بأن غراسة أشجار التين عمّت جهات عديدة في الأندلس، مثل إقليم الشرف وحصن قسطلية (قرب مارده) وشنتمرية الغرب وإقليم الشنشين (قرب شلب)، ويصف التين هناك بأنه "طيب علك لذيد شهيّ"، غير أن أهم مناطق زراعته تركّزت بكوره رية (مالقة) فيذكر أنه حوالي مالقة من جميع جهاتها تنتشر أشجار التين المنسوب إلى رية، وهو من أحسن التين طيباً وعنوية^(٦٩)، كذلك اشتهرت مريلة (من أعمال مالقة) بكثرة أشجار التين^(٧٠).

أما الكروم، فقد غرسـت أشجاره بكثافة في بساتين شريش ووادي الحجارة وحصن بيانة وقلعة دروقة وبريانة وفرنجولش وقرية شاط (قرب المنكب) ولقتـت ودانية وجزيرة يابسة^(٧١).

وتتحدث الإدريسي أيضاً عن بعض المحاصيل الأخرى التي اشتهرت بها الأندلس مثل الكمثرى، حيث غرسـت بكثرة في حصن دلـر (بجبل شلير قرب غرناطة) "وكان به من الكمثرى كل عجيبة"^(٧٢)، وكذلك الزعفران الذي زُرـع في بياـسة، وانتشرـت في بواـديها زراعـات ومستـغلـات الزعـفرـان^(٧٣)، كما إن وادـي الحـجـارـة كانـ لهاـ منـ غـلاتـ الزـعـفرـانـ الشـيءـ الكـثـيرـ....^(٧٤)، بينما اشتـهـرـ حـصـنـ فـرـيرـةـ (ـمـنـ أـعـمـالـ غـرـنـاطـةـ) بـغـراسـةـ أـشـجـارـ الجـوزـ الـذـي لاـ يـعـدـهـ فـيـ طـعـمـهـ جـوـزـ غـيرـهـ مـنـ الـبـلـادـ....^(٧٥)، أما النـفـاحـ فـامـتـازـتـ قـلـمـرـيـةـ بـغـراسـتـهـ عـلـىـ نـطـاقـ وـاسـعـ^(٧٦).



ولا شك أن المزارع بالبادى الأندرسية زخرت أيضًا بزراعة العديد من البقوليات كالفول والحمص واللوبيا والعدس وغيرها خاصة في لقنت وشنترن وجيان^(٧٧).

الضياع والبساتين الأندرسية:

ألمح الإدريسي إلى شهرة الأندرس بالضياع والبساتين التي عَمَت معظم أنحائها خاصة في البادى أو القرى، حيث برع الفلاحون الأندرسيون في إنشاء تلك البساتين وتنسيقها والعناية بغرس الأشجار المثمرة علاوة على زراعة الرياحين والأعشاب العطرية والطبية بها.

ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن قلمريه لها على النهر (أي نهر منديق) جنات^(٧٨)، وشنترن بها بساتين كثيرة^(٧٩)، وقرية لها بواي شريفة وضياع طيبة^(٨٠)، ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها^(٨١)، "ووادي الحجارة يجري بغربيها نهر صغير" لها عليه بساتين وجنات....^(٨٢)، وكذلك حول وادي بجانة^(٨٣)، وغير ذلك كثير.

ولعل انتشار تلك البساتين وما تحويه من كثرة الفاكهة كان له أثره الواضح في رخص أسعارها بالأسواق، وهو ما أوضحه الإدريسي في عدة مواضع في سياق وصفه للعديد من المدن والقرى والحسون، ومن ذلك أن قلعة أيبوب كثيرة الأشجار والشمار رخيصة الأسعار^(٨٤)، وفي المرية فواكه تأتي إليها من وادي بجانة تتسم بالرخص الشديد^(٨٥)، وأيضًا قلعة دروقة غزيرة البساتين " وكل شيء بها كثير رخيص...".^(٨٦)

ب- تربية الحيوان والحضرات النافعة وصيد الأسماك:

أكذ الإدريسي على وفرة المراعي في عدة مناطق مما ساعد على قيام بعض سكان البادى بحرفة الرعي وتربية الحيوان، فيذكر أن مدينة قصر أبي دانس "كثيرة الألبان والسمن واللحوم"^(٨٧)، لكثرتها مراعيها وتراثها الحيواني، ويصف يابرة بأنها كثيرة اللحم، وكذلك جيان^(٨٨)، أما قلمريه فتتوفر بها الأغنام والماشية^(٨٩)، ويضيف بأن جبال الشارات الممتدة من مدينة سالم شرقا حتى قلمريه غربا فيها من "الغنم والبقر الشيء الكثير ولا يوجد شيء منها مهزولاً، بل هي في نهاية من السمن ويُضرب بها في ذلك المثال في جميع أقطار الأندرس....".^(٩٠)، وعلاوة على ذلك اهتم سكان بعض المناطق التغربية الواقعة على مقربة من أرضي المالك الإسبانية المسيحية بتربية الخيول لأهميتها في الحروب والنقل

بين الحاضر والقديم، ومن أبرز المدن التغربية في هذا المجال مدينة ترجالة وحسن مدلين بالشغر الجوفي بمنطقة غرب الأندلس^(١).

أما حرف تربية دود الحرير، فقد انتشرت في البوادي وخاصة في الجهات التي تكثر بها أشجار التوت، ومن أهم المناطق التي اشتهرت بذلك كورة حيان، التي عُرفت "حيان الحرير"، وكانت تضم أكثر من ثلاثة آلاف قرية يُربى بها دود الحرير^(٢).

كما ألمح الإدريسي إلى تربية النحل خاصة في البوادي حيث تكثر البساتين والمزارع والأشجار والرياحين التي يتغذى على رحيقها، فيذكر أن مدينة قصر أبي دانس تشتهر بكثرة العسل وكذلك مدينة جيان^(٣).

ومن ناحية أخرى، أشار الإدريسي باختصار إلى صيد الأسماك حيث احترف بعض السكان تلك الحرفة لطول سواحل الأندلس وكثرة أنهاها، فيفيد بأن المنكب كثيرة مصائد الأسماك^(٤) (الحوت)، وكذلك قرية بزليانة (قرب مالقة) التي اشتهرت بوفرة الشباك التي يُصاد بها الحوت الكبير، ويحمل منها إلى الجهات المجاورة لها^(٥).

ج- الثروة الغابية:

لم يغفل الإدريسي الحديث عن الثروة الغابية التي حظيت بها بعض المناطق الأندلسية خاصة الجبلية منها، فيذكر أن جبال شلب غنية بأشجار غاباتها التي تقطع وتحمل منها إلى كل جهات الأندلس^(٦)، وكذلك في قصر أبي دانس^(٧)، أما جبال طرطوشة، فهي تشتهر بكثرة أشجار الصنوبر وتتميز أخشابها بعدم وجود نظير لها في الطول والغلظ، وهي حمراء صافية البشرة، ولن تتغير سريعاً، ولا يؤثر فيها السوس^(٨)، ويضيف بأن جبل حصن قيشاطة (قرب بسطة وجيان) تكثر به أشجار الغابات^(٩)، كما إن حصن قلصة (قرب قونكة) تتصل به جبال يكثر بها شجر الصنوبر، وتقطع بها الأخشاب التي تحمل إلى دانية وبلنسية وغيرها من مدن شرق الأندلس^(١٠).

وقد تعرض الإدريسي أيضاً لنبات الحلفاء الذي ينمو عادة قرب المستنقعات والمجاري المائية، فيذكر أن مدينة لقنت اشتهرت بذلك، ومنها يتجهز بالحلفاء إلى جميع بلدان البحر المتوسط^(١١)، كما إن حصن بطروش بمنطقة فحص البلوط (شمالي قرطبة)



تميز بوفرة شجر البلوط، وكان لسكانه اهتمام بحفظه وخدمته، وُعرفت ثماره بطعمها الفائق، وكانت غياثاً لأهل قربة خلال سنوات القحط والمجاعة^(١٠٢).

د- المعادن والصناعات:

أمدنا الإدريسي بالعديد من الإشارات القيمة عن المعادن التي توفرت بالأندلس ومناطق استخراجها، ومن أهمها الحديد حيث تركزت مناجمه في الحصن المعروف بقسنطينة الحديد^(١٠٣) (من أعمال كورة إشبيلية قرب فرنجولش)، وينظر أن بجبال هذا الحصن معادن (أي مناجم) الحديد الطيب (أي الجيد) المتفق على طبيه وكثثرته^(١٠٤)، كما وجدت مناجم له في سلطاش^(١٠٥)، وجبال طليطلة المعروفة بالشارات^(١٠٦).

أما النحاس، فكانت له مناجم في طليطلة، بينما تركزت مناجم التوتيا (أكسيد الزنك) بقرية بطرنة (قرب شلوبانية بجنوب الأندلس)، حيث يذكر الإدريسي أن بها معدن التوتيا "التي فاقت جميع معادن التوتيا طيباً..."^(١٠٨)، وتستخدم في صبغ النحاس.

كذلك هناك الذهب، الذي كان يحصل عليه من حصن المعادن (قبالة لشبونة) قرب ساحل المحيط، ويضيف أنه سُمي بذلك لأنه عند هيجان البحر (المحيط) في فصل الشتاء يقذف هناك بالذهب (التبر)، ولذا يتجه أهل تلك المنطقة إلى ذلك الموضع ويمكثون هناك طوال فصل الشتاء لاستخراجه ومعالجته من الشوائب، حيث شاهدهم بنفسه^(١٠٩)، كذلك كان لمعدن الفضة مناجم في موضع يسمى المرج قرب فرنجولش^(١١٠).

ومن المعادن التي استخرجت أيضاً من مناجم الأندلس معدن الرئيق، وينظر الإدريسي أنه زار منجماً للرئيق بحصن أبالي (شمال قربة)، وكان يعمل فيه أكثر من ألف رجل، ينقسموا إلى أربع مجموعات، فهناك مجموعة للنزول فيه وقطع الحجارة، وأخرى لنقل الحطب وحرق المعادن، وثالثة لعمل أواني سبك الرئيق، والأختيرة للأفران والحرق، ويضيف نقاً عن أهل الخبرة بالمنجم المذكور أن المسافة من وجه الأرض إلى أسفل المنجم أكثر من مائتي قامة وخمسين^(١١١).

والمج الإدريسي أيضاً إلى توفر مقاطع للرخام بحصن فريش (قرب قسنطينة الحديد) الذي يشتهر على مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب إليه "أي الرخام الفريشي" الذي يُعد أَجَل الرخام بياضاً وأحسنها ديباجا وأشدّه صلابة...".^(١١٢)



ومن ناحية أخرى، تحدث الإدريسي عن وجود مناجم للترية الصفراء، والمغرة^(١١٣) (وهو تراب حديدي أحمر اللون يستخدم في الصباغة)، وكذلك نوع من الطين أو الطفل بجبل وسهول قرية مgam (قرب طليطلة)، يصفه بأنه "نهائية في لذادة الأكل وفي نفافة غسل الشعر...."^(١١٤)، وهناك أيضاً مواد البناء مثل الجير (أو الكلس) والجص (الجبس)، حيث اشتهرت بذلك مدينة سرقسطة^(١١٥)، وجبل حصن حمة بجانة التي عُرفت بكثرة الجص^(١١٦).

وعلاوة على ما سبق تميزت الأندلس بكثرة الحمّات أي العيون المعدنية الساخنة التي ينبع بها في الاستشفاء والعلاج من بعض الأمراض، ومن أهمها حمة لشبونة، وكانت تقع بوسط المدينة، وبقصدها الناس في الشتاء والصيف^(١١٧)، وهناك حمة أخرى قرب بجانة بحصن الحمة، حيث كان يستشفى فيها أهل المريء والمناطق المجاورة خاصة في فصل الربيع^(١١٨).

أما فيما يختص بالصناعات، فقد ساعد توفر المواد الخام من معدنية وزراعية وحيوانية على قيام عدة صناعات في الأندلس، ومن أهمها حسبما أشار الإدريسي: صناعة المنسوجات التي أفرد لها نصاً مطولاً وخاصة في مدينة المريء، موضحاً ازدهار تلك الصناعة فيها، وتعدد أنواع المنسوجات، فيذكر أن بها من طرز الحرير ثمانى مائة طراز يعمل بها الحل والديبايج والسفلاطون (ينتاج من الحرير المطرز بالذهب) والأصبهاني والحرجاني والعتابي والمعاجر (نسيج شفاف تستخدمه النساء لتغطية جومهون) وصنوف أنواع الحرير....^(١١٩). كذلك كانت تصنع الثياب البيضاء في حصن بُكيران (قرب شاطبة) وبنّاع بأنثمان غالبية، وهي -على حد وصفه- من أبدع الثياب^(١٢٠)، بينما اشتهرت جنجالة بصناعة وطاء الصوف، وهو لا يمكن صنعه في غيرها لملائمة الماء والمناخ بها^(١٢١)، كما برزت قونكة كأحد مراكز صناعة الألوطية الصوفية في الأندلس^(١٢٢).

ومن الصناعات الأخرى التي اشتهرت بها الأندلس صناعة السفن لوفرة الأخشاب، وتركزت تلك الصناعة خاصة في المدن الساحلية مثل الجزيرة الخضراء التي احتوت على دار صناعة، وكذلك مدينة شلب وقصر أبي دانس وطرطوشة التي كان بها إنشاء للمركب الكبار، وفي دانية ولقت التي كانت تنشأ بها المراكب السفrière والحرايق^(١٢٣).

وهناك أيضاً من الصناعات الخشبية: صناعة القصاع والخواجي والأطباق في حصن قيشاطة^(١٢٤)، وصناعة الآلات الحربية مثل الأبراج والسلام وهم من آلات الحصار، والتي

اشتهرت بها طرطوشة^(١٢٥)، وكذلك صناعة الأثاث والأبواب وأسقف الدور والمساجد والمنابر، حيث استخدم خشب الصنوبر الطرطوشى في بناء جامع قرطبة بينما صُنعت المنبر من خشب الأنبوس^(١٢٦).

كذلك تميزت شاطبة بصناعة الورق أو الكاغد، الذي يُصنع من معجون الكتان، وكان يعتبر من أجود أنواع الورق، ولا يوجد له نظير بمعمور الأرض حسبما يذكر الإدريسي^(١٢٧).

ومن الصناعات الضرورية للسكان والتي توفرت في كل المدن والبوا迪 صناعة طحن الغلال وخاصة القمح، حيث اشتهرت بلاد الأندلس بوفرة أرحانها التي تنصب على الأنهار وتدار بقوة تيار المياه أو بالدواب، كما في وادي بجابة ووادي تاجه وقلمرية على نهر منديق، وعلى نهر مرسيء، وسرقسطة على وادي إبره وغيرها^(١٢٨).

وعلاوة على ما سبق اختصت قلعة أيبوب بصناعة الغضار المذهب أي الخزف^(١٢٩)، بينما تركزت الصناعات الحديدية خاصة في شلطيش التي "بها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن...."^(١٣٠)، وهناك أيضاً صناعة الآلات الحديدية والنحاسية في مدينة المرية^(١٣١).

٥- التجارة:

نستنتج مما أورده الإدريسي أن هناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار التجارة في الأندلس خلال عصره (عصر المرابطين)، سواء على المستوى الداخلي للمدن أو على مستوى التجارة بين المدن وبعضها البعض، ومن أهم تلك العوامل ما يلي:

أولاً: وفرة الأسواق والفنادق:

تميزت الأندلس بوفرة أسواقها التي أشار الإدريسي إلى الكثير منها، وقد قسمها إلى نوعين، فهناك أسواق يومية دائمة خاصة في الحاضر أو المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومرسيه وبلنسية والمريدة وسرقسطة ومالقة وغيرها^(١٣٢)، والنوع الثاني أسواق موسمية أو مشهودة (كما يسميها الإدريسي) أي تعقد في مواسم معينة أو فترات محددة بموضع معين وغالباً في إحدى القرى أو الحصون الكبيرة الجامحة مثل حصن بكيران وحصن أشر (قرب أرشدونة) وحصن القبذاق (من أعمال كورة جيان)^(١٣٣).



ومن الملاحظ أن الإدريسي أغفل ذكر النوع الثالث من الأسواق وهي المسماة بالأسوبعية التي نقام في إحدى القرى أو البوادي، في يوم معين من أيام الأسبوع، وهو ما أوضحته مصادر جغرافية أخرى^(١٣٤).

وجدير بالإشارة أنه امتدح العديد من المدن الأندلسية ووصف أسواقها بانها عامة مرتبة، ومن ذلك مدينة مالقة حيث يذكر أن أسواقها عامة ومتاجرها دائرة^(١٣٥)، ويرصن الحوض بالمرية عامر بالأسواق والفنادق^(١٣٦)، ومدينة شلب مرتبة الأسواق^(١٣٧)، وبقرية بزليانة فنادق^(١٣٨)، ورطبية "بها أسواق جميلة الترتيب"^(١٣٩)، والفهمين (من أعمال طليطلة "حسنة الأسواق"^(١٤٠)، وبمدينة شتتميرية الشرق (سهلة بنى رزين) أسواق قائمة^(١٤١)، ولورقة "لها أسواق"، وبالريض السوق الذي يتمركز فيه تجار من اليهود ويسميهم الراهداة، كما يقع فيه سوق العطر^(١٤٢)، كذلك احتوت قرية عذره (من أعمال المرية) على فندق للتجار^(١٤٣). ولعل من المعلومات القيمة التي زوينا بها الإدريسي وتدل على قوة ملاحظته، أنه أوضح لنا بأن بعض المدن الصغيرة تشمل على سوق واحدة دائمة مثل شلطيس ولقنت وغيرها، على عكس الحواضر الكبرى التي ضمت عدة أسواق سواء داخل المدينة وبأراضيها^(١٤٤).

ثانياً: كثرة المنازل أو المحطات على الطرق التجارية:

من الثابت أن كثرة المنازل على طرق التجارة الداخلية قد ساعد إلى حد كبير في ظل استتباب الأمن والاستقرار السياسي - على نشاط التجارة الداخلية وازدهارها، حيث أسممت تلك المنازل أو المحطات في توفير الراحة والطعام والماء لقوافل التجارية أو المسافرين بصفة عامة، ويُلاحظ أن الإدريسي أسهب في الحديث عن عدد كبير من تلك المنازل، ومن أمثلة ذلك منزل بقرية عبلة قرب حصن فنيانه (بكورة غرباطة)، ومنزل بحسن مندورج (قرب بجانة)، وكان المنزل بقرية الحصن، "وي باع بها للمسافرين الخبز والسمك وجميع الفواكه كل شيء منها في إبانه^(١٤٥)، وهناك أيضاً عدة منازل أخرى كما في حصن فنيانة وحصن مراد^(١٤٦) (قرب حصن المدور) وبحسن القليعة^(١٤٧) (بكورة إشبيلية) ومنزل أبان^(١٤٨) (قرب إشبيلية) وبقرية دشمة^(١٤٩) (قرب وادي آش) وغيرها كثير، وقد اشتملت تلك المنازل على فندق لتوفير احتياجات المسافرين أو التجار^(١٥٠).



ثالثاً- تعدد طرق التجارة:

ألمح الإدريسي في عدة مواضع إلى تعدد الطرق التجارية سواءً أكانت بحرية أم نهرية أو بحرية، ومن ذلك الطريق البري الذي يربط بين مرسيه والمرية ماراً بعدة قرى ومحصون، وطريق بري آخر يربط بين غرناطة والمرية، وطريق يربط بين بلنسية وجزيرة سُقُر وشاطبة. ومن الطرق النهرية: الطريق الذي يربط بين طليطلة وطليبرة عبر وادي تاجه ويصل حتى لشبونة على المحيط، وطريق آخر يربط بين قرطبة وإشبيلية عبر الوادي الكبير ماراً بعدة قرى ومحصون، وكذلك هناك طريق بحري يربط بين بلنسية ودانية وغيرها من مدن شرق الأندلس^(١٥١).

رابعاً- كثرة مرايسى السفن أو الموانئ البحرية والنهرية:

تحث الإدريسي عن الكثير من مرايس السفن البحرية والنهرية، التي استخدمت سواء للتجارة الداخلية أو الخارجية، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن بلنسية "تجارت وحط وإقلاع..."^(١٥٢)، ومدينة دانية تسافر إليها السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق^(١٥٣)، وقرطاجنة وهي فرضة مدينة مرسية، وبها ميناء ترسى بها المراكب الكبار والصغر^(١٥٤)، ومرسى شحانة (قرب قرطاجنة) "مرسي حسن"^(١٥٥)، أي آمن وصالح لرسو السفن، وشنتميرية الغربية بها "المراكب صادرة وواردة"^(١٥٦)، وشلباً لها مرسي في الوادي^(١٥٧) (أي على نهر شلب)، وقرية حلق الزاوية (قرب شلب) بها مرسي للسفن^(١٥٨)، وإشبيلية لها ميناء على نهرها المعروف بالوادي الكبير، وبها "بيع وشراء وأهلها ميسير..."^(١٥٩)، وقصر أبي دانس تقع على ضفة نهر شطوبير الذي "تصعد فيه السفن والمراكب السفريّة كثيراً..."^(١٦٠).

مظاهر العلاقات التجارية الداخلية والخارجية:

ألمح الإدريسي إلى بعض مظاهر العلاقات التجارية سواءً بين المدن الأندلسية وبعضها البعض، أو بين الأندلس وبلدان البحر المتوسط والمشرق، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى ازدهار تجارة، الأخشاب بين حصن قلصة (قرب قونكة) الذي يشتهر بقطع الأخشاب وبين دانية وبلنسية، حيث كانت تباع هناك^(١٦١)، كذلك هناك تجارة الفاكهة التي كانت تجلب من بجاية إلى المرية^(١٦٢)، وزبيب قرية شاط يتجهز به إلى كل جهات الأندلس^(١٦٣)،

وإقليم الشنتين الذي يكثر به التين، وبعد تجفيفه يُحمل إلى سائر مناطق غرب الأندلس^(١٦٤)، وهناك أيضاً تجار الدواب بمنطقة جبال الشارات الذين يجلبون منها الأغام والأبقار ويرتدون بها أسواق طليطلة والمدن المجاورة^(١٦٥).

أما بالنسبة للتجارة الخارجية، فتأتي على رأسها تجارة زيت الزيتون الإشبيلي الشهير، حيث أن معظم تجارة إشبيلية تعتمد عليه، فيذكر الإدريسي أنه يُتجهز به منها إلى أقصى المشارق والمغارب براً وبحراً، ويتم الحصول عليه خاصة من إقليم الشرف - كما سبق الذكر - ومن المرجح أن تلك التجارة كانت سبباً رئيساً للثراء الذي تتمتع به تجار الزيت بإشبيلية^(١٦٦).

ومن الصادرات الأندلسية أيضاً التين الماليقي الذي ذاع صيته في المشرق والمغرب على السواء، حيث كان يجفف ويُحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى بلاد الهند^(١٦٨)، وكذلك هناك الزعفران من وادي الحجارة وببياسة^(١٦٩)، والغضار المذهب (الخزف) كان يُتجهز به من قلعة أليوب إلى كل الجهات^(١٧٠)، ونوع من الطفل أو "التراب المأكول" - كما يسميه الإدريسي - كان يُصدر من قرية مجام إلى مصر والشام والعراق وببلاد الترك^(١٧١)، علاوة على ورق شاطبة المعروف بالكافد، وكان يعم المشارق والمغارب^(١٧٢)، والحفاء من لفنت تُصدر إلى جميع بلدان البحر المتوسط.

العملة والموازين والمكاييل والمقاييس

أشار الإدريسي إلى الدنانير المرابطية التي سادت في عصره (القرن ٦٢/٥١ م) في سياق حديثه عن استئجار مسكن لمدة شهر في حمة بجانة^(١٧٤)، ومن المعروف أن الدينار أو المقالل المرابطي كان من الذهب وواقي العيار، وحظي بتقة المتعاملين به سواء في بلاد المغرب والأندلس أو بين تجار الغرب الأوروبي، وكان صرفه يتراوح ما بين ستة عشر وعشرين درهماً من الفضة، لنقاوت قيمته من فترة إلى أخرى^(١٧٥).

أما فيما يتعلق بالموازين والمكاييل والمقاييس، فقد ألمح إلى الرطل الأندلسي^(١٧٦) والكيل^(١٧٧) والقامة^(١٧٨) والذراع الرشاشي، ففي سياق حديثه عن جامع قرطبة أوضح أن ارتفاع صومعة الجامع مائة ذراع رشاشي^(١٧٩).



الحواشي

(١) هناك عدة دراسات سابقة حول الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق لبعض المستشرقين والباحثين العرب من أهمها وفقاً للترتيب الزمني

Posn Boigues, *Ensayo bio-bibliografico sobre Los historiadores Y geografos arabigo-españoles*, Madrid, 1898.

جنتالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د/ حسين مؤنس، القاهرة، سنة ١٩٥٥؛
كرانتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، ١٩٦٣؛
حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط١، مدريد، سنة ١٩٧٧، ط٢،
مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٨٦م؛ السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب،
الإسكندرية، ١٩٦٧؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية د.ت،
أحمد سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، ج٢، بغداد ١٩٧٤م.

(٢) انظر الصفدي، الوفي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت
٢٠٠٠، ج١، ص ١٣٨.

Posn Boigues, Op.cit., PP 231-233.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت،
ص ٥٣٩، ٥٥٦، ٥٦٥؛ مؤنس، نفسه، (طبعة القاهرة)، ص ٢٥٦، ٢٥٧؛ أحمد سوسة،
المرجع السابق، ج٢، ص ٤٠٠.

(٤) مؤنس، نفسه، ص ٢٤٩؛ سالم، نفسه، ص ٢١٠.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق مجلد ٢، ص ٥٥١، ٥٥٤، ٥٧٤.

(٦) نفسه، ص ٥٨٨، ٥٦٤، ٥٦٨.

(٧) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٥٨، ٥٦٩.

(٨) نفسه، ص ٥٤٥، ٥٥١، ٥٥٨.

(٩) نفسه، ص ٥٥٣، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٦، ٥٦٩.

(١٠) نفسه، ص ٥٦٤، ٥٦٦، ٥٦٥، ٥٦٧؛ وراجع: (أحمد الطاهري، الفلاحة وال عمران
القروي بالأندلس خلال عصر بنى عباد، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص ١٤٥، ١٤٩).



- (١١) الإدريسي، نفسه، م ٢، ص ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٨٠؛ وراجع التفاصيل أيضاً في: ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، مجلد ٢، ج ١، (النظم والمؤسسات) ترجمة د/ علي البمبي وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٧٦-٧٧.
- (١٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ١٢٠.
- (١٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٤) نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٥) نفسه، ص ٥٤٣.
- (١٦) نفسه، ص ٥٦٨.
- (١٧) نفسه، ص ٥٥٠.
- (١٨) نفسه، ص ٥٤١.
- (١٩) نفسه، ص ٥٤١.
- (٢٠) نفسه، ص ٥٦٣، عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المريّة، ص ١١٢، ١٢١.
- (٢١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٤؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٣.
- (٢٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٦-٥٦٧.
- (٢٣) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٤١، ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٥.
- (٢٤) نفسه، ص ٥٦٣، ٥٧٥.
- (٢٥) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٦٥، ٥٦٩.
- (٢٦) نفسه، ص ٥٣٨، ٥٨٠، عن قبيلة غافق راجع: (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٨).
- (٢٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٣، ٥٧٤.
- (٢٨) نفسه، ص ٥٥٩، ٥٧٣؛ (راجع ابن حزم، نفسه، ص ٤٦١؛ عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المريّة، ص ٢١، ٢٢).
- (٢٩) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٣؛ مختار العبادي، تاريخ البحريّة الإسلاميّة، ج ٢، ص ١٦٨.
- (٣٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٣٨، ٥٤٤.



(٣١) نفسه، ص ٥٧٣؛ وراجع: مؤلف مجهول، مفاخر البرير، نشر وتصحيح ليفي بروفسال، الرباط سنة ١٩٣٤، ص ٤٥.

(٣٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٣٨، ٥٥٣؛ ابن حزم، نفسه، ص ٤٩٩، ٥٠٠؛ عبدالله عنان، دول الطوائف، ص ١٤٥، ١٤٩؛ كمال أبو مصطفى، بنو رزين ودورهم السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق، ص ١٤.

(٣٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٥.

(٣٤) نفسه، ص ٥٧١. وراجع:

J. Vallvé, Etnografia y toponimia, en Actas del II coloquio Hispano-Marroqui, Granada, 1989, P. 337.

(٣٥) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٣.

(٣٦) نفسه، ص ٥٤٣.

(٣٧) نفسه، ص ٥٥١.

(٣٨) نفسه، ص ٥٥٠.

(٣٩) نفسه، ص ٥٥١.

(٤٠) نفسه، ص ٥٥٠، ٥٥١.

(٤١) نفسه، ص ٥٨٠.

(٤٢) نفسه، ص ٧٣٣.

(٤٣) نفسه، ص ٥٤٠، ٥٦٢. وعن الرُّبْط في الأندلس راجع التفاصيل في: (سعيد بنhammadah, الماء والإنسان في الأندلس، طبعة بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٦٨، ٢٧١).

(٤٤) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٠، ٥٥٥، ٥٦٢.

(٤٥) نفسه، ص ٥٧٥.

(٤٦) نفسه، ص ٥٦٦.

(٤٧) نفسه، ص ٥٤٤.

(٤٨) نفسه، ص ٥٢٢، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٩.

(٤٩) نفسه، ص ٥٢٢.



- (٥٠) نفسه، ص ٥٥٦.
- (٥١) نفسه، ص ٥٥٦.
- (٥٢) نفسه، ص ٥٥٩.
- (٥٣) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٥٤) نفسه، ص ٥٦٨.
- (٥٥) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٥٦) نفسه، ص ٥٥٩.
- (٥٧) نفسه، ص ٥٥١، ٥٥٢. وراجع التفاصيل عن آلات الري في: (سعید بن جماده، المرجع السابق، ص ٦٠-٦٣).
- (٥٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٥.
- (٥٩) نفسه، ص ٥٦٤. عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦١.
- (٦٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤١، ٥٤٥، ٥٥١، ٥٧٥؛ عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ٦١؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ١١٨، ١٢٠.
- (٦١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦؛ وراجع ما ورد عند الغوري في (ترصیب الأخبار، تحقيق د/ عبد العزيز الأهوناني، مدريد ١٩٦٥، ص ٢).
- (٦٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٣، ٥٥٦، ٥٥٩، ٥٦٨.
- (٦٣) نفسه، ص ٥٤٩.
- (٦٤) نفسه، ص ٥٤٩-٥٥٠.
- (٦٥) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٢.
- (٦٦) نفسه، ص ٥٤١؛ وراجع العذري، نفسه، ص ٦٩، ابن غالب، قطعة من فرحة الأنفس، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، معهد المخطوطات، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٩٢، الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٢٧.
- (٦٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٢-٥٧٣.
- (٦٨) نفسه، ص ٥٧١.



- (٦٩) نفسه، ص ٥٦٥؛ وراجع: الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٣٤.
- (٧٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.
- (٧١) نفسه، ص ٥٧٠.
- (٧٢) نفسه، ص ٥٦٧؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٣٨.
- (٧٣) نفسه، ص ٥٦٩.
- (٧٤) نفسه، ص ٥٥٣.
- (٧٥) نفسه، ص ٥٦٧.
- (٧٦) نفسه، ص ٧٢٦.
- (٧٧) نفسه، ص ٥٥٠، ٥٥٨، ٥٦٨؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤١.
- (٧٨) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٧٩) نفسه، ص ٥٥٠.
- (٨٠) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٨١) نفسه، ص ٥٥٢.
- (٨٢) نفسه، ص ٥٥٣.
- (٨٣) نفسه، ص ٥٦٢.
- (٨٤) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٨٥) نفسه، ص ٥٦٢.
- (٨٦) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٨٧) نفسه، ص ٥٤٤.
- (٨٨) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٤٨.
- (٨٩) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٩٠) نفسه، ص ٥٥٢.
- (٩١) نفسه، ص ٥٥٠ - ٥٥١؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ١٨٤ - ١٨٥.
- (٩٢) نفسه، ص ٥٦٨؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ١٩٧.



- (٩٣) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٦٨؛ وراجع عن تربية النحل في بوادي إشبيلية: الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- (٩٤) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٤.
- (٩٥) نفسه، ص ٥٦٥.
- (٩٦) نفسه، ص ٥٤٣.
- (٩٧) نفسه، ص ٥٤٤.
- (٩٨) نفسه، ص ٥٥٥؛ وانظر: ابن غالب، قطعة من فرحة الأنفس، ص ٢٨٦.
- (٩٩) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٩، ٥٧٤.
- (١٠٠) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٠١) نفسه، ص ٥٥٨.
- (١٠٢) نفس المصدر، ص ٥٨٠؛ وراجع (ابن غالب، نفسه، ص ٢٨٩؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ١٩٦، ١٩٧).
- (١٠٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٤.
- (١٠٤) نفسه، ص ٥٧٤.
- (١٠٥) نفسه، ص ٥٤٢.
- (١٠٦) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٠٧) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٠٨) نفسه، ص ٥٦٤.
- (١٠٩) نفسه، ص ٥٤٧.
- (١١٠) نفسه، ص ٥٧٤.
- (١١١) نفسه، ص ٥٨١.
- (١١٢) نفسه، ص ٥٧٤؛ وانظر ابن غالب، نفسه، ص ٢٩٠.
- (١١٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦١ - ٥٦٢.
- (١١٤) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١١٥) نفسه، ص ٥٥٤.



- (١١٦) نفسه، ص ٥٦٦.
- (١١٧) نفسه، ص ٥٤٧.
- (١١٨) نفسه، ص ٥٦٦.
- (١١٩) نفسه، ص ٢٨٣ - ٥٦٣؛ ابن غالب، نفسه، ص ٥٦٢.
- (١٢٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٧.
- (١٢١) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٢٢) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٢٣) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٥٨.
- (١٢٤) نفسه، ص ٥٦٩.
- (١٢٥) نفسه، ص ٧٣٤.
- (١٢٦) نفسه، ص ٢٩٨؛ وانظر أيضاً: ابن غالب، نفسه، ص ٥٧٥.
- (١٢٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦.
- (١٢٨) نفسه، ص ٥٧٤، ٥٦٨، ٥٥١.
- (١٢٩) نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٣٠) نفسه، ص ٥٤٢.
- (١٣١) نفسه، ص ٥٦٢.
- (١٣٢) نفسه، ص ٥٧٥؛ ٥٤١.
- (١٣٣) نفسه، ص ٥٧١، ٥٧٠، ٥٥٧.
- (١٣٤) من أمثلة ذلك ما ذكره الحميري بـن سوق الثالثاء بقرية شوندر (بكرة جيان) وسوق الخميس بقرمونة، انظر: الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٥١، ٤٦١.
- (١٣٥) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.
- (١٣٦) نفسه، ص ٥٦٣.
- (١٣٧) نفسه، ص ٥٤٣.
- (١٣٨) نفسه، ص ٥٦٥.



- (١٣٩) نفسه، ص ٥٥١.
(١٤٠) نفسه، ص ٥٥٣-٥٥٢.
(١٤١) نفسه، ص ٥٥٣.
(١٤٢) نفسه، ص ٥٦١.
(١٤٣) نفسه، ص ٥٦٤.
(١٤٤) نفسه، ص ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٨، ٥٦٥، ٥٧٥.
(١٤٥) نفسه، ص ٥٦٦، ٥٦٧.
(١٤٦) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٧) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٨) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٩) نفسه، ص ٥٦٧.
(١٥٠) نفسه، ص ٥٦٦، وانظر

Imamuddin, The Economic history of Spain under the ummaydes, Dacca, 1963, P.263.

- كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٢٨٥.
(١٥١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦١، ٣٧٣، ٣٧٤. وراجع حول الطرق التجارية في الأندلس، (عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ٣٢٠، ٣٢١).
(١٥٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦.
(١٥٣) نفسه، ص ٥٥٧.
(١٥٤) نفسه، ص ٥٥٩.
(١٥٥) نفسه، ص ٥٥٩.
(١٥٦) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٧) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٨) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٩) نفسه، ص ٥٤١.



(١٦٠) نفسه، ص ٥٤٤.

(١٦١) نفسه، ص ٥٦٠.

(١٦٢) نفسه، ص ٥٦٥.

(١٦٣) نفسه، ص ٥٦٤ - ٥٦٥.

(١٦٤) نفسه، ص ٥٤٣.

(١٦٥) نفسه، ص ٥٥٢.

(١٦٦) نفسه، ص ٥٦٩.

(١٦٧) نفسه، ص ٥٤١، وراجع التفاصيل حول تجارة الزيت الإشبيلي في: (عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص ١٢٧)

Pedro Martinez Islam Y Cristianidad en la economía mediterránea, Moscú, 1970, P.10).

(١٦٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.

(١٦٩) نفسه، ص ٥٥٣، ٥٦٩.

(١٧٠) نفسه، ص ٥٥٤.

(١٧١) نفسه، ص ٥٥٢.

(١٧٢) نفسه، ص ٥٥٦.

(١٧٣) نفسه، ص ٥٥٨.

(١٧٤) نفسه، ص ٥٦٦.

(١٧٥) راجع التفاصيل حول الدينار المرابطي في: (صالح بن قرية، المسكونات المغربية، الجزائر ١٩٨٦، ص ٥٤١، ٥٤٩؛ كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ٣١٤، ٣١٥؛ Casto del Rivero, La Moneda arabigo- española, Madrid, 1933, P.35.

(١٧٦) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٧. وجدير بالذكر أن الرطل الأندلسي كان يزن ١٦ أوقية (حوالى ٥٠٤ جرام)، ولكن أحياناً في بعض الفترات يزن ١٢ أوقية. راجع التفاصيل في: J. Vallve, Medidas de capacidad, AL-Andalusxl, Madrid, 1977, P. 74.



(١٧٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٠. أما المكيل الوارد بالمتن فكان يعني في الأندلس مكيال أو معيار محدد يستخدم في وزن السوائل أو السلع والأشياء الصلبة مثل كيل الحبوب، وكان الكيل القرطبي في القرن ٤ هـ / ١٠ م يزن ستة أرطال.
راجع التفاصيل في: فالتر هننس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، سنة ١٩٤٧، ص ٣٩؛

Vallvé, Op. Cit, P.81.

(١٧٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٨١.

(١٧٩) نفسه، ص ٥٧٨. أما الذراع الرشاشي - المذكور بالمتن - فهو ينتمي إلى محمد بن الفرج القياس القرطبي المعروف بالرشاش، وقد حمله إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وكان الذراع الرشاشي هو الشائع في بلاد المغرب والأندلس، ويكون من ست قبضات أي أن طوله ٤٠ سم.

انظر (فالتر هننس، نفسه، ص ٨٨).

J. Vallve, El Codo en la España musulmana Andalus, 1978, P. 339, 350.

وعن ابن الفرج الرشاش القرطبي راجع ترجمته في (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٦٥)



البحر المتوسط في مشاريع دعاة الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي

د. لطيفة خلف العنزي

أستاذ مساعد - كلية الآداب

جامعة الملك سعود

المؤلف:

نتيجة للتغير الذي طرأ على أوروبا في أواخر العصور الوسطى أصبحنا لا نرى لدى الأوروبيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام ١٢٩٠هـ / ١٢٩١م ، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ولذلك بدأت تعلو صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددين لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خططهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وأدركوا واعضي الخطط أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفرد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، لذا كانت أهم خططهم هو إما تغيير طرق التجارة وصرفه عن المسلمين، أو إضعاف قوة المسلمين في مصر والشام عن طريق فرض حصار اقتصادي عليهم مادام أن الجيوش الصليبية قد فشلت في جميع محاولاتها لاحتلال بلادهم، لذا كانت أهم خططهم هو السيطرة على البحر المتوسط عن طريق نشر جيوشهم عليه وتحويله إلى بحيرة نصرانية تتبع بلاد الغرب الأوروبي ومن خلاله يتم السيطرة على البلاد الإسلامية المطلة عليه.



Therefore, their most important plan was either to change the trade routes and distract them from the Muslims or to weaken the Muslims' power in Egypt and the Levant by imposing an economic siege on them as long as the Crusader armies had failed in all their attempts to occupy their country, so their most important plan was to control the Mediterranean by spreading their army on it and turn it into a Christian lake that follows the countries of the European West and through that the Islamic countries overlooking it will be under their control.



اتسمت الحركة الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري وحتى الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) بسمات وخصائص معينة، كما كان لها ظواهر خاصة ود الواقع وأسباب هيأت أمامها السبيل لتنفيذ سياستها الاستيطانية في بلاد الشام. وقد تضارفت في أوروبا في هذه الآونة عوامل عديدة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى خروج الحملات الصليبية وإلى نجاحها خلال هذه الفترة التاريخية.

إلا إننا إذا حللنا هذه العوامل في الفترة التاريخية اللاحقة وأعني بذلك من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وحتى الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) نجد أنها قد تغيرت وتبدل وتتنوعت مما أدى إلى تغير في الفكرة الصليبية وكيفية تناولها والتعامل معها.

لذلك، ونتيجة لهذا التغير، أصبحنا لا نرى لدى الأوروبيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، رأينا ذلك بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام ٥٦٩٠ / ١٢٩١م، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ورغم أن هذا الحدث أثار موجة حزن شديدة في أوروبا بجميع فئاتها، إلا أنه لم تكن له ردود فعل تناسب مستوى الحدث، ولم تقم بأي مجهود حربي جديد، سوى محاولات البابوية الراعية الرسمية للحروب الصليبية التي آلمها ذلك وحاولت جاهدة أن تعبّر عن أساها بالعمل وذلك على يد البابا نيكولا الرابع Nicholas IV (١٢٩٢-١٢٨٨م) الذي أرسل رسالته إلى جميع الملوك والأمراء النصارى لدعوتهم إلى تجهيز حملة صليبية جديدة ضد المسلمين^(١). وأصدر عدة مرسومات بابوية تشمل عقوبة الحرمان الكنسي على كل من يتاجر مع المسلمين في مصر والشام وعلى كل من ينقل أي نوع من السلع والمتأجر إلى البلدان التابعة للمسلمين. ولم يقتصر هذا القرار فقط ضد المخالفين لأوامره بل اعتبرهم خونة مدى الحياة ويحرمون من حقوقهم المدنية والشخصية ولا يحق لهم كتابة وصية أو الحصول على ميراث^(٢). إلا أنه فشل في ذلك، إذ

^(١) Laurent , M. , Beautes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en sont nés , Limoges , 1859 , P.245 .

^(٢) هايد ، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٢ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ . - ٢١٥ -



إن المصالح الدينية أصبحت في ذلك الوقت أقوى من سلطة البابوية والكنيسة. فنوفي كمداً، بعد أن خاب أمله في تحريك الجهود ضد المسلمين. ولم يكن هذا التغير قاصراً على الإمبراطورية والملوك والأمراء، بل امتد ليشمل أوروبا عامة.

بدأت تعلو صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددين لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خططهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وشملت إلى جانب ذلك أفكاراً وأراء تعلم على إصلاح الخلل الذي أصاب أوروبا عامة وأدى إلى تقاعسها عن أداء الدور الذي اضطاعت به منذ عدة قرون، وكان يحدوها الأمل في أن تؤدي هذه الرسائل والخطط إلى إثارة الحماسة الصليبية وعودة الروح إلى الحركة الصليبية التي أصابها الموت، وقامت خلال القرن الرابع عشر محاولات يائسة لإحياء الروح الصليبية من جديد لتحقيق نفس الأطماء القديمة.

أدرك الغرب الأوروبي أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفرد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، وسوقاً مهمّاً للتبادل التجاري بين إفريقيا وآسيا وببلاد البحر المتوسط، ولهذا أصبح المسلمون يعتمدون على قوة وثروة هائلة مكتنفهم من الوقف في وجه الغزو الصليبي، ولهذا رأى واضعو الخطط الصليبية أن السبيل الوحيد الذي بقي أمامهم لإضعاف قوة المسلمين في مصر والشام هو فرض حصار اقتصادي عليهم مادام أن الجيوش الصليبية قد فشلت في جميع محاولاتها لاحتلال بلادهم، لذا كانت أهم خططهم هو السيطرة على البحر المتوسط وتحويله إلى بحيرة نصرانية تتبع بلاد الغرب الأوروبي ومن خلاله يتم السيطرة على البلاد الإسلامية المطلة عليه.

لذا لابد لنا في هذا البحث أن نذكر وبصورة سريعة موقع وأهمية البحر المتوسط لنتعرف على سبب تركيز دعاة الحروب الصليبية على هذا البحر في خططهم الصليبية. يعتبر البحر المتوسط من أهم البحار القارية حيث يطوقه اليابس من جميع الجهات ولا يتصل بالبحار المفتوحة سوى عن طريق ممر ضيق هو مضيق جبل طارق. ويبعد طول هذا البحر حوالي ٢٠٠٠ ميل كما إن مساحته تصل إلى ما يقرب ١٤٥,٠٠٠ ميل مربع.



ويعتبر البحر المتوسط منذ أقدم العصور مركزاً للحضارات الكبرى، فهو يربط بين ثلاثة قارات تطل عليه آسيا، وأفريقيا، وأوروبا. ولهذا الموقع أهمية كبيرة في انتعاش الحركة الاقتصادية والثقافية بين الشعوب المطلة عليه في معظم العصور التاريخية وخاصة في عصر الحروب الصليبية.

ولما قامت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري كان البحر المتوسط ميداناً لها سواء عسكرياً أم اقتصادياً، فقد فضل معظم الصليبيين ركوب البحر من أحد الموانئ الإيطالية للهجوم على المسلمين، ولم يعمدوا إلى الطريق البري إلا في الحملة الصليبية الأولى التي اندفعوا فيها رغم جهلهم بطبيعة البلاد وجرافيتها فلاقوا صعوبة كبيرة، وكذلك حملة فريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا في الحملة الصليبية الثالثة حيث قدم بحملته عن طريق البر وانتهى بغرفة وتشتت جيشه.

في هذا البحث، سنسلط الضوء على أهم خطط دعاة الحروب الصليبية الذين تناولوا في خططهم البحر المتوسط، وقد تميزت تلك المشاريع بضخامتها، إلا إننا سنتناول منها ما يخص البحر المتوسط.

أول دعاة الحروب الصليبية هو الملك شارل الثاني دي أنجو ١٢٨٥-١٣٠٩ م، الذي ينحدر من أسرة كابيه الفرنسية وهو حفيد لويس الثامن ملك فرنسا Louis VIII ١٢٢٦-١٢٢٣ م وبلانش القشتالية Blanche of Castile من ابنهما الأصغر شارل الأول، أما أمه فهي بياترس Beatrice اخت مارجريت Margaret زوجة الملك لويس التاسع Loius IX وأباها هو الكونت ريموند برنجار الرابع Raymond Berengar ، كونت مقاطعة بروفانس. وقد تولى شارل الثاني عرش نابولي بعد وفاة والده شارل الأول في عام ١٢٨٥ م^(٣).

كتب شارل الثاني ملك نابولي مشروعه الصليبي في مذكرة صغيرة عام ١٢٩١ م وقدمها إلى البابا بنيولا الرابع Nicola IV، يذكر شارل الثاني في بداية مشروعه أن القيام بحملة صليبية ضد المسلمين في الوقت الراهن يعتبر ضرورة من الجنون وعمل أخرق وطائش؛ لأن المسلمين في ذلك الوقت يتمتعون بقوة اقتصادية وعسكرية وسياسية ستمكنهم

(٣) محمود سعيد عمران، شارل دي انجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ١٢٦٦-١٢٨٥ م، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٦) م (١)، مارس، ١٩٩٨، ص ١٦٩.
- ٢١٧ -



من منع إإنزال الجيوش الصليبية على أراضيهم^(٤). ثم بدأ شارل يبين الطريقة التي يرى أنها الأجدى والأنفع في الانتصار على المسلمين فبعد أن أوضح أن مصر هي المخزن الاقتصادي للشرق والغرب رأى ضرورة فرض حصار اقتصادي، وهكذا تتضح الصورة وهي ضرورة تحطيم تجارة مصر واقتصادها؛ لأن الحرب التجارية قد تتحقق ما تعجز عن تحقيقه وسائل الحرب الأخرى^(٥)، وتنفيذ ذلك يتم عن طريق إإنزال أكثر من خمسين سفينة شراعية، وخمسين سفينة نقل، وألف وخمسمائة جندي في البحر المتوسط تجوب هذه السفن البحر المتوسط لمنع ما أسماه "المسيحيون الخونة" الذين يقومون بإمداد المسلمين بالحديد والخشب والرقيق من المماليك بهدف تزويد جيش السلطان بهم. وبضيف الملك شارل أن بهذه القوة أيضاً يجب الإغارة باستمرار على سواحل البحر المتوسط على طول امتدادها لزعزعة الأمن التجاري الإسلامي وتحطيم الموانئ الإسلامية^(٦). أما توفير تلك السفن، فيشير شارل أنه بمقدور ملك قبرص وهيئة الداوية^(٧) والإسبتارية^(٨) توفير عشرة سفن شراعية، أما ما تبقى فيفرض على السلطة البابوية^(٩).

^(٤) Delaville le roulx, J. La France en Orient au XIV siecle expeditio ns du Marechal Boucicaut, Paris, 1886, P. 17; Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, Paris,1959, P. 211.

^(٥) Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, P. 211. , Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.

^(٦) Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.

^(٧) فرسان الداوية Templars منظمة أسسها في الأصل الفارسان هيو دي بابيز Hugh de Paynes، وجونفري سانت أوميري Godfrey de Saint Omer وذلك سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨، ونظامهم قام أساساً على الحماس الديني والفروسية، وحمل السلاح وإشهاره ضد المسلمين وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء، ولقد منحهم الملك بلدوبين الثاني مكاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان فسموا بذلك " فرسان المعبد " وتم الاعتراف بهم وتعضيدهم في مجمع تروى عام ٥٢٢ هـ / ١١٣٨، من قبل القيس برنارد الكليروري، وفي سنة ١١٤٦، اعترف بهم البابا أويوجين الثالث كمنظمة خاصة لها نظمها وأهدافها في خدمة النصرانية، وكانت هذه المنظمة من أشد العناصر الصليبية عداءً للمسلمين، عنها انظر: إبراهيم خميس إبراهيم، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام (١١٩٣ - ١٢٩١ م / ٥٨٩ - ٦٩٠ هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣ م ؛ نبيلة مقامي، فرق الفرسان الراهب، القاهرة، ١٩٧٥ م.



انصح من المشروع الصليبي الذي تقدم به شارل الثاني ملك نابلي أهمية استغلال البحر المتوسط لضرب المسلمين اقتصادياً واعتباره أهم وسيلة لانتصار عليهم.

ومن الدعاة المستشار البابوي والراهب الفرنسيسكاني فيدينزيو اف بادوا Fidenzio Of Badua عسكرياً قبل أن يقرر الدخول في أخوية الرهبان الفرنسيسكانية أن فيدينزيو ثقى تدريباً عسكرياً قبل أن يقرر الدخول في أخوية الرهبان الفرنسيسكان ونظراً لجهوده تم تعينه عام ١٢٦٦م ممثلاً لهذه المنظمة في الأرضي المقدسة في بلاد الشام^(١٠). وانقل إلى هناك حيث عاش إلى أن تم طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام على يد المسلمين، ويعتبر فيدينزيو شاهد عيان لتداعي الإمارات الصليبية الواحدة تلو الأخرى^(١١). في عام ١٢٧٤م غادر فيدينزيو الشرق متوجهاً إلى أوروبا لحضور اجتماع مجمع ليون الثاني عام ١٢٧٤م برئاسة البابا جريجوري العاشر ١٢٧٦ - ١٢٧١م ومن الواضح أنه خلال الاجتماع عرض

^(٨) الاسبارارية منظمة جمعت بين الفكرين الديني وال العسكري، وترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى دير اقامة تجار أمالفي Amalfi الإيطالية في القدس في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وأنشئوا بجواره مستشفى، ومن ذلك عرفت هذه المنظمة بالاسبارارية أي فرسان المستشفى، وكان هدفهم في البداية إيواء الحاج النصارى، ومعالجة المرضى منهم، ولم تثبت هذه الهيئة أن أصبحت تؤلف قوة حرية كبرى لها شأنها بالنسبة للصليبيين، واشتركوا معهم في حملات ضد المسلمين، وقد اعترف البابا باسكال الثاني II Paschal ، بهذه الهيئة في ١٣ فبراير عام ١١١٣م، وكانت تشكل مع الداوية قوة خطيرة على المسلمين في بلاد الشام، وعندما طرد الصليبيين من بلاد الشام، اتجه الاسبارارية إلى رودس، وصار اسمهم فرسان رودس، وبعد أن طردهم العثمانيون من رودس، اتجهوا إلى مالطة عام ١٥٣٠م، فعرفوا باسم فرسان مالطة. عن هذه المنظمة وخطتها، انظر: سميث، الاسبارارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠ - ١٣١٠م، ت: صبحي الجابي، ط دمشق، ١٩٨٤م.
سامي سلطان سعد، الاسبارارية في رودس، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٥م؛

Luttrell , The Hospitallers at Rhodes, 1306- 1421 , in Setton , Vol . III.

^(٩) Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.

Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, P. 212 .

^(١٠) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano . florence , 1906 – 1927 , Vol . II, P. 2.

^(١١) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano .P.P. 2 – 3 , p. p.24 – 25 .



الأوضاع السيئة التي يعيشها الصليبيون في بلاد الشام وسقوط الإمارات الواحدة تلو الأخرى في يد المسلمين^(١٢). وطلب المساعدة من المجمع، وذلك لأن البابا جريجوري العاشر طلب منه إعداد تقرير لإعداد خطة لحملة صليبية توجه ضد المسلمين^(١٣).

وفعلاً بدأ فيينزيو في إعداد الخطة الصليبية إلا إنه قرر قبل الانتهاء من الخطة العودة إلى الشرق فزار مصر، وأرمانيا، وقبرص بالإضافة إلى جميع مدن الشام، ثم توجه إلى القسطنطينية وأسيا الصغرى وبلاط فارس، وذلك من أجل الحصول على معلومات عن الأوضاع هناك لتدوينها في خطته الصليبية. وبعد انتهاء فيينزيو من خطته قدمها إلى البابا نيقولا الرابع بعد سقوط عكا عام ١٢٩١م^(١٤).

قبل البدء في عرض خطة فيينزيو الصليبية يجب أن نوضح أنه كان ملماً باللغة العربية بحكم إقامته الطويلة في بلاد الشام. وهذا ما سيجعل لخطته أهمية كبيرة. وضع فيينزيو خطته في كتاب عنوانه: "استعادة الأرض المقدسة" *Recuperationis Terre Sancte*^(١٥). تحتوي خطة فيينزيو على تفاصيل عسكرية دقيقة أهمها تجهيز قوة عسكرية بحرية تجوب البحر المتوسط لفرض حصار اقتصادي على المسلمين، وحدد عدد الأسطول حيث يقترح أن يتكون من أربعين أو خمسين سفينة عسكرية، ولا تقل عن ثالثين لضمان نجاح الحصار، وتزويد هذه السفن بالرجال والعتاد، وأهم مهام هذه السفن هو اعتراض السفن التجارية للمسيحيين – الذين أسماه – "العصاة" لمتاجرتهم مع المسلمين ولا يلتزمون بالأوامر الصادرة من البابا بمنع المتاجرة مع المسلمين^(١٦). وتابع فيينزيو قوله،

^(١٢) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano.P.P. 2 – 3 , P.P.24 – 25 .

^(١٣) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano P. 4 , P. 9.

^(١٤) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. p. p. 5 – 6 , p.25 .

^(١٥) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P.9 .

^(١٦) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P . 41 .



إنه زيادة على ذلك ، فإن الحصار البحري لسواحل مصر والدول الأخرى الخاضعة لحكم المسلمين سيكون سلاحاً فاعلاً ضد الإزدهار التجاري للMuslimين، وذلك لجهل المسلمين بفنون الملاحة - حسب قوله - فالفائدة التي ستتحقق من الحصار ستكون أكيدة بلا شك فبمنع الواردات الغربية سي فقد سلطان المماليك الضرائب والرسوم التي يحصلون عليها ويفرضونها على البضائع الواردة إلى مصر والتي تقدر بحوالي خمسين ألف فلورين في العام وسيتم أيضاً منع وصول الإمدادات الغذائية التي يحتاجها المسلمين والتي ترودهم بها بلادهم وإذا توقفت التجارة الأوروبية، فلن يتم - حسب رأي فيتنزيو - دفع رسوم الصادرات والتي تعتبر المورد الرئيس للسلطان والذي سيتعذر لخسارته فادحة ولن تجد المنتجات المصرية منفذًا لتسويقها وبذلك تتعرض مصر ل نهاية سيئة^(١٧).

واقتصر أيضًا لضرب تجارة وطريق البحر المتوسط أن يوضع جزء من هذه السفن في البحر الأحمر لاعتراض السفن الإسلامية القادمة من الهند، واقتصر تحويل طريق التجارة الهندية من البحر الأحمر إلى طريق آخر يمر عبر بلاد فارس ثم أرمينيا، ويرى أن هذا سيحقق فوائد كبيرة منها خسارة المسلمين لتجارتهم وأهم طريق تجاري لديهم عن طريق إفراغه من تجاراتهم التي يستمدون منها قوتهم الاقتصادية^(١٨).

ويؤكد فيتنزيو على وسيلة أخرى أهم وهي إقامة العرائيل والسدود في مجرى نهر النيل؛ لأنه هو الشريان الرئيس الذي يربط المدن الداخلية في مصر بالبحر المتوسط والبحر الأحمر، حيث تصل السفن التجارية إلى ميناء عيذاب في البحر الأحمر وتنقل السلع منها عن طريق الجمال إلى النيل، فيرى فيتنزيو أنه على الصليبيين أن يقوموا بسد مصبه ومحاصرته بسفنه

^(١٧) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P.P. 46 – 47; Delaville le roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 21.

^(١٨) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. p. p . 48 – 49 .



ما يؤدي إلى إلحاق الضرر والخسائر بجميع موانئ العالم الإسلامي ويعد ويكد على ضرورة تشديد الحصار الاقتصادي على المسلمين إلى أقصى حد ممكن^(١٩).

أما الداعي الصليبي الأمير هيثوم الذي ينتمي إلى أسرة آل هيثوم ملوك أرمينيا الصغرى، والذي شغل منصب كونت مدينة كوريكوس *Corycus* وهي ثغر بحري على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى بإزاء جزيرة قبرص. ولد وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر وتوفي عام ١٣٠٨م^(٢٠).

وكان مقرّاً من عمّه الملك هيثوم الثاني ١٢٨٩ - ١٣٠٧م^(٢١) لذلك فقد أُرخ لفترة حكمه؛ لأنّه يعتبر من مؤرخي هذه الفترة ومن أبرز من كتبوا عن تاريخ أرمينية. ويعتبر كتابه الذي أله باللاتينية عام ١٣٠٦م وعنوانه زهرة تاريخ أرض الشرق *La Flor des Estoires de La Terre D'Orient* وضمنه مشروعه الذي قدمه للبابا كليمنت الخامس Clement V للاستيلاء على الأراضي المقدسة سنة ١٣٠٧م يعتبر تاريخاً لأرمينية الصغرى وملوكها ومصدراً كبيراً للباحثين المهتمين بتاريخ هذه المنطقة.

قسم هيثوم كتابه زهرة تاريخ بلاد الشرق إلى أربعة أقسام أو كتب، والكتاب الرابع، وهو الذي يهم موضوع البحث ويعتبر الأهم في كتاب هيثوم، ومن المعتقد أن ما سبقه من

^(١٩) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano.P. P.56-58.

^(٢٠) عن الأمير هيثوم انظر:

Paris, P., Hayton, Prince d'Armenie, Historien,Extrait de L'histoire littéraire de La France, Paris,1885,XXV,P.P. 479-507.

^(٢١) Crawford, P. , An Institution in crisis the military orders,1291-1310, Adissertation summitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin-Madison , 1998,P. 199.

Atiya , A.S., The Crusade in the later Middle ages, p.62.

^(٢٢) هناك نسختان للمصدر الأولى باللغة الفرنسية القديمة نشرت ضمن مجموعة مؤرخي الحروب

الصلبية-المؤرخون الأرمن، الجزء الثاني، .253-253 R.H.C., Doc. Arm., II,P.P.113-

أما الثانية فكانت باللغة اللاتينية ونشرت ضمن المجموعة نفسها، R.H.C., Doc.Arm., II, P.P. 255-363.



كتب تعتبر مقدمة لهذا الكتاب، حيث خصصه هيئوم للحديث عن مشروع حملة صليبية لاستيلاء على الأرضي المقدسة من المسلمين والوسائل الكفيلة لضمان نجاح المشروع. ويحمل عنوان^(٢٣) De Passagio Terrae Sanctae et Quae Conside Randa

.Sunt Antequam Guerra Inchaetur

بعد أن حدد هيئوم في مقدمة كتابه الوقت الذي رأه مناسباً للهجوم على المسلمين بدأ في عرض الطريقة التنفيذية لما يجب أن يقوم به الجيش الصليبي، حيث يرى توجيه حملة صليبية تتحرك على مرحلتين الحملة الخاصة أو التمهيدية ثم تأتي بعدها الحملة العامة أو الكبرى^(٢٤). الأولى الحملة التمهيدية، أو الاستطلاعية ومهمتها تجهيز وتسهيل الطريق للجيش الصليبي الكبير، فمن خلالها يمكن البابا والقادة العسكريين في أوروبا معرفة أحوال البلاد الإسلامية ومدى قوة المسلمين وطريقة قتالهم، وبالتالي يستطيع البابا الحكم هل سيتم ارسال الجيش الصليبي الكبير أم العدول عن الفكرة^(٢٥).

يرى هيئوم أنه يمكن تنفيذ الحملة الاستطلاعية بأسطول مكون من عشرة سفن شراعية تحمل على متنها ألف فارس وثلاثة آلاف جندي مشاه، تحت قيادة المندوب البابوي وقائد عسكري شجاع ومتمرس على فنون الحرب والقتال. عليهم أن يسلكوا الطريق البحري عبر البحر المتوسط ومنه يتوجهوا إلى قبرص أولاً والتزول بها ثم التوجه إلى أرمينية^(٢٦).

فضل هيئوم طريق البحر المتوسط ونصح الصليبيين به لتجنب حرارة الصيف الحارقة في الأرضي الآسيوية الداخلية وجعله أهم طريق تسلكه الحملة الصليبية المتوجهة إلى الشام مفضلاً إياه على بقية الطرق الموصلة إلى البلاد الإسلامية وبعد السيطرة على البحر المتوسط تستطيع الحملة الكبرى السيطرة بكل سهولة على الموانئ الإسلامية^(٢٧).

ومن الدعاة الصليبيين وليم دبورانت Guillaume Durant الذي تولى منصب أسقف مدينة ميند Mende في فرنسا عام ١٢٩٦ م. استمر وليم في منصبه حتى عام

^(٢٣) Hayton, *Flor des Estoires*, PP. 220–253.

^(٢٤) Hayton, *Flor des Estoires*, P.P. 235–253.

Hayton, *Flor des Estoires*, P.P. 242–243. (٢٥)

^(٢٦) Hayton, *Flor des Estoires*, P.P. 242–243.

^(٢٧) Hayton, *Flor des Estoires*, P. 248–249.



١٣٢٨ م. وفي عام ١٣٢٩ م، استدعاه البابا حنا الثاني والعشرون، والملك الفرنسي فيليب السادس دي فالوا، للقيام بمهمة في الشرق هو وبطريق القدس في ذلك الوقت من أجل التنظيم للحملة الصليبية ضد المسلمين والتي اعتم فيليب السادس شنها. فتوجه وليم ورفاقه بداية إلى مصر، ومنها اتجه إلى قبرص لاطلاع ملوكها على الأوضاع التي يعيشها الصليبيون في الشرق. وتوفي وليم ديورانت في قبرص في يوليو من عام ١٣٣٠ م، ودفن في كنيسة نيقوسيا^(٢٨).

كتب وليم ديورانت مشروعه الصليبي وقد تناول فيه خطته للاستيلاء على الأراضي المقدسة، حيث أشار ديورانت إلى ضرورة فرض حظر تجاري على مصر حتى تنهار اقتصادياً وبالتالي يتم إضعافها قبل توجيه الحملة الصليبية إليها. وعلى البابا متابعة التأكيد على الالتزام بقرارات الحظر التي تصدرها البابوية لمنع مزاولة التجارة مع المسلمين. وتكوين قوة بحرية عسكرية في البحر المتوسط لتنفيذ هذا الحصار بالتعاون مع الإسبانية في روس والمسيحيين الشرقيين في بلاد الشام ورأى أن ذلك سيساعد الحملة الصليبية للاستيلاء على الأراضي المقدسة^(٢٩). ثم تناول ديورانت الطرق المتوجهة إلى الشرق لكنه لم يكن مثل بقية الدعاة الذين يعدون الطرق الموصلة إلى الشام ومصر ويرجحون طريقاً على آخر أو يضعون الخيار أمام قائد الحملة لاتخاذ ما يراه مناسباً لقواته. فلم يذكر ديورانت في مشروعه سوى طريق واحد وتجاهله كافة الطرق وهو طريق البحر المتوسط من أوروبا إلى قبرص ومنها إلى الشام ومصر ورأى أن ذلك سيسهل عملية وصول الحملة الصليبية^(٣٠).

وبخصوص السفن والمعدات الحربية اللازمة للحملة فضل ديورانت إجراء مفاوضات مع المدن التجارية الإيطالية وهي بيزا، والبنديقية، وجنو، بحكم معرفتهم الجيدة بطريق البحر المتوسط وشدد على ضرورة التحالف فيما بينهم وترك المنازعات من أجل تقديم الأسطول أو السفن الضرورية والإمدادات والمعدات الحربية اللازمة وتحديد الوقت المناسب للحملة وقد شرح ديورانت شكل الأسطول ومكوناته شرعاً طويلاً فتحدث عن السفن الشراعية

^(٢٨) A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat , P. 1171 .

^(٢٩) A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . mollat , p. 1172 .

^(٣٠) A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . mollat , P. 1172 .



ونوعيتها وأكّد على ضرورة إِنْزَال هذا الأسطول بالبحر المتوسط بصفة دائمة لمنع المتاجرة مع المسلمين وقد كلف ديوانة المدن التجارية بمهمة تمويل الأسطول ورأى ألا تطلب مقابلًا لذلك؛ لأن هذه السفن والمعدات لخدمة القضية الصليبية التي يجب على كل الصليبيين المشاركة فيها واعتبارها جزءاً من أمور دينهم لا يقبل المساومة. وهذه السفن يجب ألا تستخدم لأغراض تجارية؛ لأنها إذا استخدمت للغرض التجاري وجب دفع أموال عنها لملوكها^(٣١).

هناك داعي من أهم دعاء الحروب الصليبية وهو فولك دي فيلاريه Foulques De Villaret المقدم الخامس والعشرون لهيئة الاستبارية، وقد صمت المصادر عن ذكر حياته الأولى والتي تشمل مولده وعائلته، ولم يعرف عنه سوى أنه من عائلة بروفانسية نبيلة^(٣٢). تولى فولك دي فيلاريه منصب رئيس الطائفة في عام ١٣٥١م بعد وفاة عمّه وليم دي فيلاريه Guillaume De Villaret في قبرص^(٣٣). وقد تولى عدة مناصب دينية قبل أن يكون رئيساً لهذه الطائفة؛ إذ تذكر المصادر أنه قبل قدمه إلى الشرق كان قائداً لمنطقة القديس جل St. Gilles جنوبي فرنسا. وبعدها في عام ١٢٩٩م نصب فولك دي فيلاريه نائباً للمقدم أبي نائباً لعمّه وليم^(٣٤).

بعد أن انتقلت بقایا الصليبيين إلى جزيرة قبرص بعد طردتهم من بلاد الشام عام ١٢٩١م فكر وليم دي فيلاريه عم فولك، في الاستيلاء على جزيرة روس وجعلها موطنًا

^(٣١) A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat , P. 1172 .

^(٣٢) A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefer , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols . 1852 , P. 65 .

A.B.F Villaret (Foulques De) , Galeries Historiques Du Palais De Versailles , Vol.6 – 9 , 1840 – 1848 , P. 56 .

^(٣٣) A.B.F. Villaret (Foulques De) , Dezobry , L.C. Et Bachelet , J.L.T . Dictionnaire General De biographie , Etc . 2Vol . 5 me ed , 1869 , P.62 .

^(٣٤) A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefer , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols . 1852 , P. 65 .



للاستبارية إلا إنه لم يحالفه الحظ إذ توفي قبل تحقيق ذلك الأمل^(٣٥). وعندما خلفه ابن أخيه المقدم فولك دي فيلاريه حاول تحقيق ذلك، وبما أن طائفته وليدة الحملات الصليبية على المسلمين، فمهما تكن منها الأسباب، فالمقدمة الأساسية تكمن في قتالهم لذلك أعد فولك دي فيلاريه مشروعًا صليبياً كبيراً وقدمه إلى البابا كليمون الخامس Clement V بهدف إلى الاستيلاء على الأرض المقدسة وعودة الصليبيين إليها من جديد فيما أعد فولك دي فيلاريه أعد هذا المشروع الخطير، فقد رأى أنه لا يمكن تفويذه وهو قابعون في جزيرة قبرص التي تقيم أحياناً علاقات ودية مع المسلمين وبالتالي تحرم فولك دي فيلاريه وطائفته من ممارسة نشاطهم الحربي ضد المسلمين وتحرمهم من أسباب وجودهم. لذلك صار على فولك دي فيلاريه أن يبحث لنفسه ولطائفته عن ميدان جديد يستنفذ فيها إمكانياته المادية وحماسه الديني هو وجميع طائفته، لتحقيق مشاريعهم الصليبية، واستئناف محاربة المسلمين سياسياً واقتصادياً وحربياً.

(٣٦)

وفي عام ١٣١٠، استطاع الاستبارية الاستيلاء على جزيرة رودس التي تعتبر من الجزر المهمة في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث تمتاز بموقعها الاستراتيجي الممتاز خاصة وأنها تتوسط قارات العالم الثلاث^(٣٧). وقد أصبحت الجزيرة منذ أن سيطر عليها الاستبارية سنة ١٣١٠ بمساعدة الجنوية وانتزاعها من الدولة البيزنطية حصنًا من الحصون الباقية لحكم الصليبيين في شرق البحر المتوسط. حيث أنهم اتخذوا منها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم كما اتخذوها مقللاً لمناؤة المسلمين وأسهمت الجزيرة في الغارات المتكررة على السواحل الإسلامية في مصر والشام وأصبحت مسمى الاستبارية منذ ذلك

^(٣٥) A.B.F. Guillaume de Villaret , Galeries Historiques Du Palais De Versailles , Vol.6 – 9 , 1840 – 1848 , P.64 .

A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefer , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols. 1852 , P. 65 .

^(٣٦) Laurent , M., Beautes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en sont nés, P. 249 .

^(٣٧) A.B.F.villaret (Foulques de), Vol. 13, P.24.

Laurent, M., Beautes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en sont nés , P.P. 254-257.



الوقت فرسان روس، حيث أطلق عليهم الغرب ذلك المسمى بعد وصول أنباء استيلائهم على الجزيرة^(٣٨). وقد فرح العالم الصليبي أشد الفرح بهذا الانتصار رغم عدم مشاركته واعتبر ذلك نصراً صليبياً ومقدمة للاستيلاء على الأماكن المقدسة في الشام وأصدر البابا مرسوماً عام ١٣١٠ م منح فيه الجزيرة بأكملها للإسبتارية^(٣٩).

عرض فولك دي فيلارية في مشروعه على البابا كيفية التعامل مع المسلمين وذلك بفرض حصار اقتصادي كبير لمنع أولئك الخونة من إمداد المسلمين بالمتطلبات العسكرية الخاصة. وفي رأيه يجب إرسال خمس وعشرين سفينة شراعية من نوع قادس^(٤٠) عليها قوى قبرصية ومن فرق الداوية والإسبتارية تجوب البحر المتوسط لتعزيز الحظر التجاري على مصر وقطع الإمدادات عنهم. ثم أكد فولك دي فيلارية للبابا أن هذا الأسطول يجب إرساله في الوقت الحالي حتى لا يعطي فرصة للعرب المسلمين لتسليح أنفسهم ومساعدة الإيطاليين لهم. وهذا يؤكد أن فولك دي فيلارية كان يؤمن بعدم جدوى أي عمل عسكري كبير ضد المسلمين ما لم يسبق شن الحرب الاقتصادية التي تضمن عدم وصول السلع الحرية المحرمة إلى الموانئ الإسلامية. ويستأنف كلامه قائلاً: "... هكذا، عندما يبدأ

^(٣٨) A.B.F.Villaret (Foulques de), Galeries Historiques du palais de Versailles, VOL.6-9, 1840-48,P.58.

A.B.F.Villaret (Foulques de), Feller,F.X.de Biographie universelle, etc. 8Vol. Nouvelle ed.1851,P.59.

Laurent, M., Beautes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en Sont Nes , P.257.

^(٣٩) Reg. Clem.V,P.2148.

^(٤٠) قادس أو بطرس: والبطة مركب للحرب أو التجارة، والجمع بطرس، وهي سفن عظيمة الحجم كثيرة القلوع، وقد يصل عدد القلوع في البطة الواحدة إلىأربعين قلعاً، وتشهر هذا النوع من السفن في أيام الحروب الصليبية، فقد كان هذا النوع من السفن من أشهر أنواع سفنهم، فيشحنونها وقت الحرب بالآلات، والأقوات والميرة والرجال، والمقانلة والأسلحة وألات الحصار، وبعد محمولها بآلاف الخلق، ولها أسطح عالية، وطبقات كل طبق خاصة بفئة من الجيش، يفرش بالبسط وغيرها، وتنبع لعدد كبير من الجندي يصل إلى نحو سبعين جندي. انظر :

محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥ م، ص ٤٠.



الوُعظ بالحرب الصليبية فإنه يجب تجميع وإرسال خمس وعشرين سفينه شراعية كبيرة تسمى قادس مجهزة بـ رجال أشداء. هذه السفن إضافة إلى السفن المقدمة من قبل ملك قبرص والكنيسة ومن عندنا – يقصد الاستبارية – سوف تكون قادرة على منع سفن أولئك المسيحيين الأوغاد من الحصول على منفذ سريع إلى الإسكندرية أو أراضي مصر. إننا نعتقد أن هذا الأسطول الصغير يجب إعداده في الحال حتى يتسع له ويسرعه نقلِّص الزمن المتاح للعرب المسلمين لتسلیح أنفسهم والتزود من المواد المذكورة أعلاه^(٤١).

بعد تنفيذ عملية الحصار، يقترح فولك دي فيلاريه على البابا أن يعدَّ أسطولاً آخر يتراوح عدد سفنه ما بين خمسين إلى ستين سفينه شراعية كبيرة، نصف هذه السفن تكون من سفن النقل الكبرى القادرة على حمل أربعينَة إلى خمسينَة حصان. ونصح بضرورة استئجار الجنود المرتقة وخاصة الرماة والفرسان والمしゃة المسلمين تسلیحاً كاملاً وقد ركز على الرماة لأنهم هم الذين سيقومون بشن غارات خاطفة على السواحل الإسلامية، في البحر المتوسط سواء في مصر أو الشام، وذلك قبل الحملة الصليبية الكبرى بسنة واحدة. هذا الأسطول مهمته الإغارة على شواطئ المسلمين لتدمير المنشآت الساحلية بها. ويكون ذلك على شكل سلسلة من الغزوات أو الغارات هنا وهناك، أي ينتقل من شاطئ إلى آخر لتدميره. هذه الغارات في رأي فولك دي فيلاريه تؤدي ليس فقط إلى شل حركة الدفاع البحرية عند المسلمين ولكن إلى حيرتهم من وجهة الصليبيين الحقيقة مما يسهل نزول قوات الحملة الرئيسية عند وصولها^(٤٢). كما إن تلك الغارات المنقرضة على شواطئ المسلمين تؤدي إلى تدمير امداداتهم، وقتل جنودهم، وبشكل عام إنهاك الجيش الإسلامي وزعزعة توازنه وانشغاله بالرد على الهجمات الصليبية. ولنترك للقارئ أن يضطلع بنفسه على تلك الخطة التي ذكرها فولك ليلى مدى مكره وخبثه يقول: (... فيما بعد يتطلب الأمر تجميع أسطول أكبر من أجل إضعاف العرب المسلمين وبلاهم الساحلية حتى يتسع للحملة

^(٤١) Housley, N., *Documents on the later crusades, 1274–1580*, London, P.42.

^(٤٢) Delaville le Roulx, J., *Les Hospitaliers en Terre Sainte et Achypré 1100–1310*, Paris, 1904, P.P. 269–271.



القائمة أن تنزل البر بسهولة وسلامة ويمكن تنظيمها هكذا، عقب تجميع خمسة وعشرين سفينه يجب الإسراع في تنظيم خمسين أو ستين سفينه شراعية كبيرة. نصف هذه السفن تكون من النوع الدائري البدن وقدر على حمل أربعين ألفاً أو خمسين ألفاً حسان، لمدة سنة كاملة قبل وصول الحملة يجب أن تعمل هذه الأساطيل على طول الخط الساحلي للسلطان والذي يستغرق عبوره أكثر من أربعين يوماً وينقل وبهبط هذا الأسطول الصغير في مكان بعد آخر، وينزل الخيالة والمشاة أولاً وهم يشنون الغارات ويسببون الضرر والخراب في المناطق الساحلية لمدة نصف يوم تقريباً ويتوقف ذلك على الأحوال المحلية. على هذا النحو ، عندما يشاهد العرب المسلمين أسطول المسيحيين عازماً على إنزال رجاله فإنهم سيضطروا لإبقاء قواتهم المسلحة ومشاتهم وخياتهم تروح وتغدو من مكان إلى آخر على طول الساحل ويستخدموا الخدع في التظاهر بأن الرجال ينزلون من السفن بينما عملياً لا شيء من ذلك يحدث ، من ثم ، يبتعد الأسطول لمسافة مسيرة أربعة أو خمسة أيام أو أبعد ما يكون وذلك خلال يوم واحد أو ليلة واحدة ومن ثم يقوموا بإنزال القوات وأنشاء ذلك ولتكرار مجيء وذهاب القوات المسلحة لمواجهة العرب المسلمين ستستنزف أسلحتهم وحيواناتهم ويستهلكوا كل ما لديهم. والمدنيون سوف يهجروا قراهم ومستوطناتهم وأراضهم التي يحصلون منها على قوتهم وسوف تتدحر أحوالهم إلى الحد الذي عندما تصل الحملة، سوف تحقق أكثر مما يتحققه جيش يفوق حجمها ثلاثة مرات) ^(٤٣).

ثم يذكر فولك دي فيلاريه الطريق الذي يجب أن تسلكه الحملة فقال أن الحملة الصليبية المتوجهة إلى الأرضي المقدسة في الشرق لها طريقان إما برأ عن طريق آسيا الصغرى، أو بحراً عن طريق البحر المتوسط. فالطريق البري هو نفس الطريق الذي سلكته الحملة الصليبية الأولى الناجحة في نظر فولك دي فيلاريه إلا إنه رغم ذلك لم يجذب ذلك الطريق؛ لأن قواد الحملة فقدوا أثناء ذلك الطريق الطويل الشاق تسعة عشرار الجيش حتى وصلوا إلى إنطاكية، وأن نجاحها في الاستيلاء على إنطاكية والأماكن المقدسة رغم

^(٤٣) Housley, N., Documents on the later crusades, P.43.



الصعوبات التي واجهتها تم بمعجزة، ربما لا تتكرر في نظر فولك دي فيلارية^(٤٤)! أما مشاكل البحر في الطريق الثاني لحملة عسكرية كبرى مثل هذه فقد حبذ فكرة إنزال الفرق العسكرية في مختلف الموانئ في البحر المتوسط الإسبانية، والفرنسية، والإيطالية وبعدها يتم تركيزها في جزيرتي قبرص وروادس. وبدأ يبين المشاكل البحرية في البحر المتوسط التي لا يمكن تخطيها تقريباً؛ وذلك لأنّه من الصعب أن تسير حملة كبيرة مكونة من مئات السفن المحملة بالفرسان والعتاد والمؤن لتصل مباشرة إلى الأراضي الإسلامية ثم تقوم بشن هجومها عليها مباشرة. فقد رأى فولك دي فيلارية أنه من الصعب تحقيقه، وإذا أرادت الحملة التوجه إلى الأراضي الإسلامية بجيوش متفرقة فسيؤدي ذلك إلى قيام المسلمين في بلاد الشام بانتظارهم وإبادتهم فرقة وراء أخرى، ورأى أن تجزئة الجيش تؤدي إلى إضعافه، وبالتالي إذا علمت باقي فرق الجيش بما حل بإخوانهم الذين سبقوهم فسيؤدي هذا الوضع المأساوي إلى تثبيط عزيمة الباقيين^(٤٥). ثم ختم رأيه بقوله: "النتيجة ضمنية وليس ظاهرية، ولكنها رغم ذلك واضحة فبكل بساطة حملة صليبية كبيرة غير معقولة في الوقت الحالي"^(٤٦).

حيث اقترح مرة أخرى، إرسال بعثة عسكرية صغيرة للإغارة، وإرسال بعثات أيضاً مماثلة لها للإغارة بين الحين والآخر. وقرر أن تضم تلك البعثة العسكرية ألف حسان، أي ألف فارس وأربعة آلاف من الجنود الرماة الذين لهم الدور الكبير في هذه الغارات التي تتطلب الرماة المهرة، وسيمكث هؤلاء هناك خمس سنوات للقيام بشن هجمات متلاحقة على سواحل المسلمين في مصر أو الشام. كما رأى تجهيز ستين سفينة شراعية لإرسالها إلى هناك وتمكن ثمانية أشهر من كل عام لتكون على مقرية من شواطئ قبرص لفرض حصار اقتصادي على الأراضي الإسلامية.

^(٤٤) Kedar & Schein, Un project de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital, 1306–1307, BEC137 (1979), P.215.

^(٤٥) Kedar & Schein, un project de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital, 1306–1307, BEC137 (1979), P.215.

^(٤٦) Kedar & Schein, un project de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital, 1306–1307, BEC137 (1979), P. 217.



قام فولك دي فيلارية بحث الأمم النصرانية على قطع العلاقات التجارية مع مصر وعزلها اقتصادياً عن طريق أسطول الحراسة الذي أشار إليه آنفاً. إضافة إلى منع أي نوع من أنواع الاستيراد والتصدير عبر البحر المتوسط لأي تجارة متوجهة إلى الأراضي الإسلامية، وطالب كذلك بتحويل تجارة الهند من طريق البحر الأحمر إلى بلاد أرمينيا والتي من خلالها يتم نقل التجارة إلى البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا وذلك مادامت أوروبا تستغنى عن بضائع الشرق الأقصى.^(٤٧)

أما مشروع هنري الثاني دي لوزجانان ملك قبرص فكان لا يقل خطورة عن سبقه حيث تعتبر قبرص بحكم موقعها قرب السواحل الإسلامية في البحر المتوسط دائمة الخوف على مركزها، الأمر الذي جعل ملوكها إما يقومون بشن الغارات على المسلمين أو بدعة الغرب الأوروبي للقيام بحملة صليبية ضدهم، كما إن الهجوم الدائم من قبل المسلمين على أرمينيا المجاورة لهم جعلهم يشعرون باقتراب دورهم. وعند اجتماع مجمع "فيينا" ١٣١١ – ١٣١٢ لمناقشة الحملة الصليبية على المسلمين أرسل الملك هنري الثاني مشروعه إلى البابا كليمنت الخامس حيث سلم مندويه هذا المشروع شخصياً إلى البابا نفسه^(٤٨).

بدأ هنري مشروعه بتوضيح نقطه مهمة، وهي أنه قبل البدء في شن حملة صليبية ضد المسلمين، يجب أولاً إضعافهم اقتصادياً مما سيؤدي إلى إضعافهم عسكرياً، وبما أنه على دراية كبيرة بالنشاط التجاري للمسلمين رأى أن الحظر التجاري على مصر والشام والبلدان الإسلامية الأخرى سيكون أداة فعالة، ثم أخذ يوضح حجم السفن والجنود التي ستقوم بهذه المهمة، حيث أشار بتجهيز ما يقرب من خمسة عشر إلى عشرين سفينة قوية، وتسلیحها تسليحاً جيداً، على أن تطلق تلك السفن لتقوم بحراسة البحر المتوسط لإنقاء القبض على ما أسماهم المسيحيين الخونة الذين ينقولون المالكين أي العبيد الجدد إلى

^(٤٧) Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siècle, P.81.

^(٤٨) للاطلاع على هذا المشروع انظر ،

A.B.F. Boutaric , Notices et extraits de documents inédits relatifs à l'histoire de France sous Philippe le Bel , P.P. 117 – 123.

وقد حل هذه المذكرة Maslatrie في كتابه Histoire de chypre , vol . III , P.P. 118-125 .



السلطان؛ لأنهم في عملهم هذا يعززون الجيش الإسلامي. كما أنهم يقومون بنقل المؤن والمواد العسكرية للعدو. وأكد الملك هنري أن الشرط الأساسي لنجاح الأسطول في مهمته هو استقلاليته عن سلطة المدن التجارية الإيطالية كالبنديقية، وجنوا، وبيزا؛ لأن ذلك سيحول له حرية الحركة وتحقيق النجاح المطلوب؛ لأنه فقد الثقة في ولاء تلك المدن للقضية الصليبية وكان يخشى استغلال هؤلاء فرصة ارتباطهم بالأسطول لتعزيز مصالحهم الدينية – كما وصفها – الخاصة بالتبادل التجاري مع المسلمين^(٤٩).

ثم تابع الملك هنري كلامه بأنه إذا ما تم مراعاة القيود وتفيذ الحظر بمراقبة السفن في البحر المتوسط بشكل صارم لمدة عامين أو ثلاثة فسوف تنهار قوة مصر الملاحية وستتضرب مواردها... كلف هنري الثاني الأسطول المرابط في البحر المتوسط بمهمة أخرى وهي أن يلحق به فرقة من الفرسان ورماة السهام البارعين الذين لديهم القدرة على مقاومة رماة المسلمين المهرة حتى يقوموا بشن غارات فجائية على المدن الساحلية للمسلمين على البحر المتوسط تؤدي إلى إلحاق الضرر البالغ بها، كما أنهم سيثيرون الرعب في قلوب المسلمين ولعل تكرار هذه الغارات بين الفينة والأخرى سيساعد على تحقيق الهدف، وسيضعف المسلمين وسيدمر بلادهم تدميراً كبيراً عندئذ سيصبح الوقت موائماً للحملة الكبرى التي ستكون قادرة على تحقيق النجاح إذا تم تنفيذ هذه المقترنات أولاً^(٥٠).

وبذلك نرى أن مشروع هنري متشابه مع مشروع فولك دي فيلارية زعيم الاستبارية الذي رأى وجوب شن غارات متفرقة على السواحل الإسلامية لتشتيت جهود المسلمين وزعزعة صفوفهم وتخريب المدن الساحلية حتى تتمكن الحملة من النزول بها بكل سهولة.

أما من ناحية الطرق، فقد رجح الملك هنري طريق البحر المتوسط إلى قبرص ولا يرى طريقاً غيره لأهميته العسكرية في السيطرة على السواحل الإسلامية حسب قوله. وقد رجح الهجوم مباشرة على مصر من قبرص لأن مدة الرحلة من قبرص إلى مصر عن طريق البحر قصيرة و مباشرة، تبلغ فقط خمسة أو ستة أيام ولا يشكل النزول عقبه كبيرة^(٥١).

^(٤٩) Maslatrie, *Histoire de Chypre* , Vol. 2, P.P. 119 – 120 .

^(٥٠) Maslatrie, *Histoire de Chypre* , Vol. 2, P. 121.

^(٥١) Maslatrie, *Histoire de Chypre* , Vol. 2, p.p. 122 – 123.



ومن واضعي المشاريع جاكويز دي مولاي آخر رئيس ومقدم لطائفة كهنة المعبد الداوية. عاش في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلادي، ولد في مدينة مولاي Molay في فرنسا^(٥٢)، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته إلا إنه ولد بين عام ١٢٤٠-١٢٤٤ م^(٥٣). من أسرة نبيلة في فرنسا^(٥٤). وفي عام ١٢٩٨ م، انتخب جاكويز دي مولاي رئيساً لمنظمة الداوية^(٥٥).

اهتم دي مولاي في مشروعه الصليبي بشن حرب صليبية حربية بين المسلمين والصلبيين يكون البحر المتوسط ميداناً عسكرياً لها، لأن في رأيه أن المماليك لا يمتلكون خطراً بحرياً على الصليبيين فهم لا يملكون أسطولاً قوياً يجوب البحر المتوسط إضافة إلى عدم خبرتهم في القتال البحري لذا - فمن وجهة نظره - فهم لا يشكلون خطراً على الصليبيين الذين يصفهم دي مولاي بالمهارة في الحروب البحرية وأضاف دي مولاي بضرورة وضع سفن عسكرية مهمتها مراقبة البحر المتوسط لمنع التجارة مع المسلمين واهتم بنوعية السفن التي تحمل الجنود ورأى عدم استخدام السفن الشراعية مثل هذه في الحملات العسكرية، وإنما يستعاض عنها بالسفن الكبيرة المعروفة باليطسة؛ لأنها تسع أربعة أضعاف

^(٥٢) A.B.F. Molay (Jacques de), Voy. Biogr. Univ., t. XXIX, P.276.

^(٥٣) A.B.F. Molay (Jacques de), see Templars, knights Hist. Litt. De la France, XXVII, 292–293, 382–386, Two chaps. Written by Renan: Viollet. Les Interrogatoires de Jacques de Molay (Paris, 1910), Besson, Etude sur Jacques de Molay, (Besancon 1877), schottmuller, Der untergang des Templerordens (2 Vol., Berlin, 1887). Lavocat, Proces des freres de l'order du Temple (Paris, 1888). Rastoul, les Templiers (Paris, 1905).

A.B.F. Molay, (Jacques de), P.274, P.306.

^(٥٤) A.B.F. Molay, (Jacques de), Feller, f. X. de Biographie universelle, etc. 8 vol. Nouvelle ed. 1851, P.306.

^(٥٥) A.B.F. Molay (Jacques de), Mennechet, E. le plutarque Francais, etc. 6 vol. 2 me ed. 1844–47, P.290.

A.B.F. Molay (Jacques de), Fourquet, Emile les hommes celebres et les personnalites marquantes de France- comte du I^e siecle a nosjours. 1929 (19), p.274.



ما تحمله السفينة الشراعية، وبالتالي نقل التكلفة المالية للحملة. وهذا النوع من السفن اعتاد الجنوية على استخدامه لاتساعه؛ لأن الأسرعة فيه تصل إلى أربعين شراعاً^(٥٦).

رأى دي مولاي أن يعهد بقيادة هذه الحملة إلى "روجر دي لوريا" Roger De Lauriaالأميرال الأرغوناني المشهور في أوروبا قائد الأسطول الأرغوناني في البحر المتوسط^(٥٧). لأنه في رأيه قائد خبير بالشئون البحرية فقد كان روجر دي لوريا من الشخصيات العسكرية البارزة في عصره، وعمل قائداً للأسطول الأرغوناني الذي فرض سيادة أرغون البحرية في غرب البحر المتوسط، وتميز دي لوريا بمعلوماته العسكرية في فهم استراتيجية الحرب البحرية والتكتيك، والقدرة والسرعة في المناورات^(٥٨).

وللحطة التي أعدها وليم آدم أهمية خاصة، فهو داعي صليبي ومنصر نشط جاب الشرق من أجل الدعوة للنصرانية على المذهب الكاثوليكي وقد عرف بلقب الدوميني

^(٥٦) Crawford, P., An Institution in crisis the military orders, 1291–1310, Adissertation summitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of= Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin–Madison , 1998, P. 90.

^(٥٧) Crawford, P. , An Institution in crisis the military orders, 1291–1310, Adissertation summitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin–Madison, 1998, P.90.

Brehier , L. L'eglise et l'orient au moyen age les croisades,P. 255.

Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 57.

وكان رو杰 دي لوريا من أشهر القراصنة الذين يغبون على سواحل بلاد أفريقيا خاصة بعد استيلاء الأرغونيين على جزيرة جربة حيث أتخذها قاعدة لعملياته العسكرية ضد المسلمين هناك ويتبين ذلك في رسالة وجهها إلى الملك الأرغوناني جيمس الثاني سنة ١٣٠٣ م قال فيها: "أُبقي في خدمتك ما أبقاني الرب حيا ، من أجل محاربة المسلمين" .

Dufourcq, C. E., L' espagne catalane et Le Magre b au XIII et XIV. Paris, 1966 , P.426.

^(٥٨) Crawford , P., An Institution in crisis the military orders, 1291–1310, Adissertation summitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin–Madison , 1998, P. 92 .



المنصر. ولد وليم آدم في إقليم لانجودوك Languedoc الذي يقع في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا، فيما بين عامي ١٢٧٥-١٢٨٠، والأرجح عام ١٢٧٥م. ولم تتحدث المصادر عن عائلته. إلا إنني أتوقع أنه ينحدر من عائلة نبيلة نظراً لما تلقاه منذ صغره من عناية في الناحية التعليمية والتي لا يقدر عليها في ذلك الوقت إلا أبناء النبلاء^(٥٩).

انتبه البابا كليمنت الخامس للقيام بأعمال تصويرية في الشرق. فسار عبر الطريق البري من ناحية أوريا الشرقية حتى وصل عام ١٣٠٧م إلى آسيا الصغرى، فظل متوجداً في القسطنطينية في تلك السنة، ثم أبحر عن طريق بحر ايجية ثم البحر الأسود عن طريق مضيق البوسفور والدرنيل، ثم بعد عبوره البحر الأسود انتقل عن طريق البر إلى أرمينيا الصغرى ومنها إلى بلاد فارس وهناك أخذ يدعوا إلى النصرانية فترة ليست بالقصيرة ثم سافر إلى الهند وووظ هناك عن العهد الجديد (إنجيل)^(٦٠). ثم توجه مع أحد رفقاء إلى المحيط الهندي وعن طريقه زار عن في بلاد اليمن وجال في تلك الأنحاء حتى وصل إلى أثيوبيا^(٦١).

يعتبر وليم من أول الدعاة الذين خططوا لمشاريع صلبيّة يستطيع أن يصل بنفسه إلى بلاد الحبشة ويزور تلك الأماكن ويشاهد مضيق باب المندب الذي تصل من خلاله البصائر الهندية إلى بلاد المسلمين في مصر والشام، وهي في الواقع نقطة في غاية الأهمية بالنسبة للأفكار التي دونها في مشروعه من أجل إعداد حملة صلبيّة للاستيلاء على الأرضي الإسلاميّة. كما تجول في بعض المناطق المختلفة في المحيط الهندي وتعرف على سواحله واستمرت رحلته في المحيط الهندي فقط حوالي عشرون شهراً عاد بعدها على نفس خط سيره إلى فرنسا ومنها إلى أفينيون مقر البابوية الجديدة وذلك عام ١٣١٦-١٣١٧م^(٦٢)، ولذلك تميز وليم آدم بإمامته بأمور الشرق وأخباره.

^(٥٩) A. B. F.. guillaume Adam , l'Academie des sciences d'outre – mer . hammes et destins , 7 vols. 1975 – 1986 , p . 73

^(٦٠) Kohler Ch . Guillelmus Adae, R. H. C. Hist . Arm .Vol. II, P. 542.

^(٦١) A. B. F. Guillaum Adam, L'academie des sciences d'outre – mer , Hommes et d'estins , 7Vols. , 1975–1986 , Jean richard , P . 73; R. H. C. Hist. Arm. P. 550.

^(٦٢) R. H. C. Hist. Arm. P. 550.

Memoires de la societe royale de geographie d'egypte , Vol.V, P. 62.



وفي تلك الفترة، ألف كتابة والذي ضمن فيه مشروعه الصليبي الذي حوى العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التي جمعها خلال رحلته تلك والتي دعى فيها أوروبا لإعداد حملة عسكرية كبيرة للاستيلاء على الأرضي المقدسة في الشام والقضاء على المسلمين والكتاب هو كيفية سحق المسلمين *Démodé Saracenos Extirpandi* وقدم هذا الكتاب إلى البابا حنا الثاني والعشرون ١٣١٦-١٣٣٤ م^(٦٣).

عرض وليم آدم وبكل جرأة في بداية خطته أن سبب قوه المسلمين هو مصادر ثروتهم التي تعتمد على المتاجرة مع الأمم المجاورة لهم. ولهذا يرى وليم أنه من أكثر الأسلحة فاعلية لإضعاف مصر وتوجيه ضربة قاتلة إليها هو محاولة عزلها^(٦٤).

زيادة على ذلك يرى وليم أنه على البابوية اتخاذ إجراءات أكثر صرامة في تنفيذ الحظر وهو وضع أسطول كاف في البحر المتوسط ليقوم بالمحافظة على قرارات الحظر. واشترط في هذا الأسطول أن يكون أكثر جدية في التنظيم عن الأسطول السابق الذي قام البابا بتجهيزه لنفس الهدف، لأن البابوية قد خُدعت في مسألة سفن الحصار التي رأت وضعها في البحر المتوسط، فيقول انه ما إن تم تمويل السفن التي أمرت البابوية بها على مدار العام، لم ينزل منها إلى البحر سوى أربعة فقط في مدة ستة أشهر، كما إن هذه السفن لم تُعد وتسلح تسلیحاً جيداً حتى إنها لم تتمكن من الصمود في معركة أمام ثلاثة من سفن الأعداء. ثم يُضيف مع ذلك، فإن الحظر المكون من أربع سفن لم يُعمل به إلا خلال أشهر الشتاء، علما بأن موعد الحملة قد حدثت في الصيف. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن القائد العام على تلك السفن المكلف بتنفيذ الحظر لم يأبه بتقديمه، وعلل وليم ذلك بأنه هذا القائد لا يستفيد من هذه السفن المصادر كغنية حرب له ولجنوده مما يؤدى إلى عدم تحمسه للعمل وبالتالي لا يبالي بتنفيذ الحظر^(٦٥).

^(٦٣) A. B. F. Guillaum Adam, L'academie des sciences d'outre – mer , Hommes et d'estins , 7Vols. P.73 ; R. H. C . Hist . Arm , P . 542 ; Al Phandery , P., La chretiente et lidee de croisade. P. 241.

^(٦٤) Guillelmus adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II, P. 528, P. 537, P. 823.

^(٦٥) Guillelmus adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol. II, P.P. 526-527.



يتبع وليم آدم مشروعه بضرورة إعلان البابا الحظر على البحارة الذين يعتمدون على العلاقات القائمة بين الترار والمسلمين. وإذا لم يرتدعوا أشار وليم على البابا اقتراحاً جديداً على مشاريع الدعاة الصليبيين وهو أن توضع حراسه بحرية مشددة في جزيرة خيوس^(٦٦) Chios في بحر إيجه وذلك لسبعين أو لهم حكام تلك الجزيرة من أسره آل زكريا الجنوبيه^(٦٧) Zaccharia أراد وليم أن تكون الحملة تحت قياده أحد أحفاد بندیتو زكريا

(٦٦) تعتبر جزيرة خيوس من أغنى جزر بحر إيجه وأكثرها خصوبة، والمكان الوحيد في العالم وقذاك الذي كانت تنمو فيه أشجار المصطكي وقد ارتبطت شهرتها وأهميتها التجارية بإنتاج المصطكي التي كانت تصدره إلى معظم بلدان العالم آنذاك واشتهرت هذه الجزيرة لدى الغرافين والمؤرخين المسلمين باسم "جزيرة المصطكي". انظر.

القلقشندى، صبح الأعشى، ج، ٨، ص ١٥؛ العمري، التعريف، ص ٩٥.

رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمه، حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨ م ، ص ١٠ .

Miller, w., " genoese in Chios" , E. H. R., xxx (1915), P.P. 418-432.

(٦٧) كانت طرابلس الشام في عام ١٢٨٦/١٢٨٧ هـ قومونا جنوباً برئاسة أحد الشخصيات الجنوبيه وهو بندیتو زكريا، وأعلنت جنوه بموجب ذلك حمايتها لمدينه طرابلس، ولهذا كان فتح السلطان قلاون لطرابلس ضروريه قويه للنشاط التجاري لا في الشام فحسب بل في شرق البحر المتوسط، وضروريه قويه كذلك إلى آل زكريا، وعندئذ بدأ آل زكريا بأعمال قرصنة انتقامية ضد المسلمين لما حل بهم في طرابلس. وقد ذكرت المصادر تلك الأعمال التي قام بها بندیتو زكريا، وعندما عادت العلاقات الجنوبيه المصرية في معاهده عام ١٢٩٠ استمر آل زكريا في قرصنته، الأمر الذي جعل الحكومة الجنوبيه تعلن أمام السلطان أنها غير مسؤولة عن أعمال القرصنة التي يقوم بها رعاياهم أمثال آل زكريا، وكانت رافضه تماماً ما يقوم بها بندیتو هذا. ولكن بندیتو استمر يبحث له عن مقر ليزاول نشاطه التجاري إلى أن تنازل الإمبراطور البيزنطي عن جزيرة فوكايه لمانويل زكريا؛ لأنه كان يتمتع عنده بحظوظه كبيرة واحتكر آل زكريا تجارة الشعب هناك ومن ثم سيطر بندیتو زكريا الجنوبي على جزيرة خيوس في عام ١٣٠٤ م بعد أن تعرضت مستعمرتهم في فوكايه إلى الأخطار بسبب سيطرة الأتراك العثمانيين على تلك الأماكن في آسيا الصغرى وبعض جزر البحر الأسود. وكان بندیتو يزيد حماية ممتلكاته في فوكايه وقد طلب من إمبراطور القسطنطينية أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية فوكايه وتتأخر رد الإمبراطور فبادر بندیتو بالاستيلاء على "خيوس" التابع للقسطنطينية، ولم يكن في مقدور الإمبراطور أندرونيك الثاني أن يطرده منها وبالتالي سيطر آل زكريا الأسرة الجنوبيه على الجزيرة، وعهد له الإمبراطور بحكمها لمدة عشر سنوات، دون أن يدفع جزءه عنها، وإن يستخدم إيرادات الجزيرة في أعمال الدفاع، ومن ثم انتقلت الجزيرة إلى حكم ورته. لكن كان الإمبراطور بقلدهم منصبهم وظل علم الإمبراطور يرفرف على الجزيرة، إلا أن آل زكريا = تمنعوا بحكم مستقل



Bendito-Zaccharia القصية الصليبية ويدرك أن بينتو وابنه باليولوج Paleologue قد دفعا مبالغ مالية كبيرة من حسابهما الخاص لصالح القضية الصليبية^(٦٨)، ولهذا رأى وليم أنهما جديرين بمهمة متابعة الحظر التجاري على المسلمين في البحر المتوسط. السبب الثاني، موقع الجزيرة ذو الأهمية الكبيرة والذي يقع على الطريق البحري بين القسطنطينية والإسكندرية، وباستطاعة آل زكريا في خيوس قطع الاتصال التجاري بين مصر من جهة وبين خان مغول الفجاق^(٦٩) والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى^(٧٠).

اقتصر وليم آدم في مشروعه ضرب حصار حول مصر على هذا الحصار لا يكون فقط في منطقة البحر المتوسط - كما ذكرنا سابقاً - لكن في المحيط الهندي أيضاً، وهذه الفكرة لم يسبق أحد من الدعاة إليها، ولعله استمدتها من رحلاته في المحيط الهندي ومشاهداته

= تماماً وكأنهم أمراء مستقلون عن الإمبراطور إلى إن تمكن البيزنطيون من طردتهم نهائياً منها عام ١٣٢٩م. وعن آل زكريا وتجارتهم في خيوس. انظر:

ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والصور، ص ١٦٥ - ١٦٦.

عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، سوريا، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٢٨٠ - ٢٨١ و ص ٢١٩.

هайд، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ٢ ، ص ٥٩ - ١٠٢ ، ص ١٢٤-١٢٢ و ص ١٤٧.

(٦٨) كان من أبناء باليولوج زكريا ، مارتينو زكريا (١٣١٤-١٣٢٩م) وهذا يعاصر وليم آدم ، وقد تميز مارتينو بشجاعته ونجاحه وخاصة في حروبها ضد الأتراك، واكتسب لنفسه مركزاً كبيراً بالحماية التي أحاط بها المسافرون الغربيون، حتى أن فيليب دي فالوا المطالب اللاتيني بعرش القسطنطينية منحه لقب ملك "آسيا الصغرى وطاغيتها" كما منحه البابا هنا الثاني والعشرون بالتزامه بالحظر العام المفروض على الاتجار مع المسلمين، تصريحاً بتصدير المصطكي إلى الإسكندرية اعترافاً بالخدمات التي أدها للصلبيين. ولهذا امتحن وليم آدم هذه الأسرة وشعر أنها هي الكفيلة بإنجاح الحظر.

انظر، هайд، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ٢ ، ص ١٢٣ . Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle , P. 72.

(٦٩) عن مغول الفجاق انظر: محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، ص ٧٠-٧٦.

(٧٠) Guillame Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P.P. 531-533.



عن قرب للطرق التجارية هناك والتي تسلكها التجارة الشرقية المتوجهة إلى مصر، لذ، فهو يعلم أن مصر كانت تستمد احتياجاتها ليس فقط عبر البحر المتوسط وإنما أيضاً عبر البحر الأحمر ومن هذا الطريق كانت تحصل على التوابيل الآتية من الهند والشرق الأقصى بالإضافة إلى إنه على علم بالإجراءات المتبعة ضد تجار البحر الأحمر، ولهذا عرض وليم في مشروعه إنشاء أسطول قوي في المحيط الهندي تكون مهمته الحيلولة دون وصول متاجر الهند إلى عدن فيضطر التجار إلى المرور عن طريق الخليج العربي ومنه إلى نهر نجلا ثم شمالاً عبر آسيا الوسطى حتى يصل إلى أرمينيا ومن ميناء أرمينيا "أياس" تنقل التجارة عبر البحر المتوسط إلى أوروبا^(٧١). وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع، لذلك نراه يقدم بعض الموضوعات التي استند عليها لتنفيذ هذه الفكرة، بقوله إن المشروع لا يعد مستحيلاً، فيكتفي أن تتدخل الكنيسة وتأمر ببناء ثلاث أو أربع سفن في المحيط الهندي لمنع مرور التجار إلى عدن، ثم يحاول إقناع البابا بأن الجنوية حاولوا تنفيذ هذا المشروع من قبل لأسباب تجارية، وبفضل مساعدة خان مغول فارس أرغون Arghun ١٢٨٤ - ١٢٩١م، فقام الجنوية بإعداد سفينتين في بغداد وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات ومنه تتوجه إلى المحيط الهندي عبر الخليج العربي من أجل حماية مضيق عن، إلا إنه أوضح أن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوية لكنه عاد وبين أن هناك بعض الصعوبات التي قد تعيق تنفيذ المشروع لكنه قدم لها الحلول التي يراها مناسبة والتي استفادها من خبرته في تلك الأماكن التي زارها بنفسه^(٧٢). ومن الصعوبات التي حددتها وليم في كيفية الحصول على هذه السفن، أنه اقترح بناء سفن في جزيرة هرمز في الخليج العربي، ولعله يقصد جزيرة قشم الحالية وكانت من

^(٧١) Guillame Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II,p. 553

Al phandery, op. cit. p. 242

Delaville le Roulx, op. cit. p. 75.

^(٧٢) Guillelmus Adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II,p .551.

Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 75.



ضمن أملك مغول فارس في ذلك الوقت - أو جزيرة لكيف في المحيط الهندي، أو في مدينة بومباي في الهند، أو مدينة تانا على ساحل المحيط الهندي شمال بلاد الهند حالياً أو مدينة كولوم Colom، وتسمى كولومبو حالياً وتقع في جزيرة سيلان ويضيف أنه يجب أن يتم إعداد السفن في تلك البلاد بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر، ويوضح أن هذا الأمر ممكن؛ لأن تجار عن يتجرون مع الهند، ولكنهم ليس لديهم أي علاقة ببلاد فارس وجزر الأرخبيل الهندي لأنهم - على حد قوله - على عداء دائم مع حكامها^(٧٣). ويضيف وليم أن بناء السفن في تلك المناطق سهل للغاية وذلك لتوفر أخشاب البناء بكثافة مثل أشجار الثك والصندل وغيرها^(٧٤). بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يدعو إلى الخوف من هجوم مباغت لل المسلمين لتلك المناطق تعد من المرافئ التجارية لبلادهم، ويضيف أن شعوب تلك المناطق أيضاً تشجع على القيام بمشروع يستهدف القضاء على ازدهار تجارة التجار المسلمين؛ لأنهم يكرهونهم ويحسدونهم على غناهم ويفضلون التعامل مع السفن النصرانية، ولهذا سيساعدون السفن الصليبية في مهمتها. كما إن خان مغول فارس يتطلع إلى تأسيس قوة بحرية على الخليج العربي، وبهذا يمكن الصليبيون بالتعاون معه من تحقيق هدفهم وإغلاق مضيق باب المندب في وجه سفن المسلمين^(٧٥).

وهكذا، إذا تحققت كل تلك الأمور فلا يتبقى لتنفيذ المشروع سوى ميناء آمن. وقد ضمن وليم آدم الحصول عليه بسهولة في المحيط الهندي الذي يضم كما يقول أكثر من عشرين ألف جزيرة معظمها مهجورة، وخصص وليم جزيرة هرمز (قسم الحالية) في الخليج العربي الخاضعة لنفوذ مغول بلاد فارس. لتكون ميناء لتلك السفن المسلحة؛ لأنها تتميز بأفضل الشروط المناسبة لرسو تلك السفن. فهناك على - حد رأيه - يمكن للسفن أن تظل بها شتاء دون خطر، ويمكن إصلاح أعطالها أي القيام بصيانة تلك السفن وتخزين

^(٧٣) Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 75.

^(٧٤) Guillelmus Adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R. H. C. Arm. Vol. II, P.P. 550 – 552.

^(٧٥) Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R. H. C. Ar. Vol. II, P. 554.



البصائر التي يتم الاستيلاء عليها دون خوف من هجوم الأعداء بل على العكس فإن مغول فارس شجعوا هذا المشروع. وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان، فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل " ديف " على وجه التحديد^(٧٦). فإذا تجهزت تلك السفن فستقوم بحراسه مضيق عدن ويقول وليم عن ذلك الموقع، أنه يتواضع من الناحية الجغرافية مع الهدف المرجو تحقيقه، حيث ذكر أنه توجد به ثلاثة جزر تحمي ذلك الموقع وتحمي السفن المبحرة في البحر الأحمر. وكل سفينة تمر في ذلك مضيق لا بد لها من المرور على تلك الجزر، ولعل ذلك كان لإيقاع البابا بمشروعه الذي اعتبر البعض صعوبة تحقيقه فإذا نظرنا إلى جميع التسهيلات السابقة إضافة إلى أوضاع تلك الجزر التي أشرنا إليها أمراً سهلاً؛ لأن الذين يسكنونها كانوا من النصارى الضعفاء الذين لا يستطيعون مقاومة المهاجمين من المسلمين أو من غيرهم، فهم يفرون دائمًا من الغزارة ويلجؤن إلى الكهوف بالجبال العالية الموجودة بتلك الجزر. ولهذا سيد الصليبيون دعمًا قوياً من سكان تلك الجزر؛ نظراً لكراسيتهم للMuslimين الذين – يقول عنهم وليم – أنهم في نزاع دائم معهم. ويري وليم أنه من السهل وضع سفن في مواجهة المضيق لسد طريق التجارة إلى مصر. والواقع، إن وليم آدم بوصفه شعوب تلك الجزر إنهم شعوب نصرانية وأنه يرغب البابا في حمايتهم. ولهذا يرى وليم أنه لا يوجد ما تخشاه السفن الصليبية لتنفيذ هذا المشروع^(٧٧).

ولدينا داع آخر وضع خطة صليبية لا نقل خطورة عن سبقه هو الداعي الصليبي مارينو سانلودو الذي يحتل مكانة مهمة بين دعاة الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي؛ نظراً لأنه بدنفي الأصل. فهو من المدينة التي ارتبطت بالعالم الإسلامي بعلاقات متميزة اقتصادية وسياسية سطرت تاريخ العصور الوسطى.

^(٧٦) Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P. 554.

Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P. 552.

^(٧٧) Delaville le Roux , J. La France en Orient au XIV siècle. P. 77.

ولد مارينو سانودو في مدينة ريفالتو Rivoalto أكبر أقاليم البندقية في عام ١٤٧٠م. اهتم مارينو سانودو منذ صغره بمتابعة أحوال الأرضي المقدسة، ولهذه الغاية عبر البحر المتوسط خمس مرات ليذهب من البندقية إلى قبرص وأرمانيا والإسكندرية ورووس كما تنقل مراراً بين الإسكندرية وعكا وعاش في الحي البندقي في عكا عام ١٤٨٦م لبعض الوقت، وكان هدفه كما يقول : "لخير النصرانية جماء والوصول إلى النتيجة التي من الممكن أن يتحققها البابا بإذلال وإبادة أعداء الإيمان المسيحي وخاصة سلطان مصر وإمبراطور التتر والأتراك الذين أخضعوا جزر اليونان حتى المورة وفي نفس الوقت شد أزر ملك أرمانيا بالإضافة إلى حث البابا على اقتلاع وتبييد تلك الملة التي نشرها محمد "صلى الله عليه وسلم " ^(٧٨).

ويقول مارينو موضحاً هدفه الذي ذكرناه أعلاه في مقدمته "التحقيق هذا المشروع" عبرت البحر خمس مرات لأذهب تارة إلى قبرص وطوراً إلى أرمانيا أو الإسكندرية ومرة أخرى إلى رووس، لكنني قبل أن أخوض هذه المغامرة، أقمت طويلاً في الإسكندرية وعكا دون أن أخالف المنع الذي فرضته الكنيسة تحت طائلة العقوبة، على كل حال، فإني قضيت معظم حياتي في جزر اليونان ولذلك، أعتبر أنني مطلع جيداً على حالتها وخاصة على الوضع في المورة ^(٧٩) Amorea.

كما طاف مارينو بالعديد من الدول الأوروبية بالإضافة إلى أفريقية، حيث زار مارينو الحبشة وقد ذكر في كتابه هذه الرحلات العديدة التي أكسبته خبرة واسعة في شؤون الشرق وشئون البحر مما جعله يجرؤ على الكتابة في الأمور البحرية لسعة اطلاعه بها ^(٨٠). وبعد عمل مرضٍ، استغرق حوالي السنتين عشرة سنة انتهى سانودو من إعداد كتابة سنة ١٣٢١م، وقدمه للبابا حنا الثاني والعشرون. واختار له عنواناً هو "أسرار

(٧٨) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها" ترجمة الأب سليم رزق الله، دار الريحاني، لبنان ، ط ١ ، عام ١٩٩١م، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٧٩) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها" ، ص ٥٥ .

(٨٠) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها" ، ص ٤٥ .



المؤمنين بالصلب لاسترجاع الأرض المقدسة والمحافظة عليها Secreta
Fidelium Cruces^(٨١).

ركز مارينو سانودو في مشروعه الصليبي على نكر البحر المتوسط والذي يطلق عليه بحراً يقصد أنه بحيرة مسيحية تتبع أوروبا، ورأى أن السبيل الوحيد للاستيلاء على الأرضي المقدسة بالشام ومصر هو عن طريق السيطرة على البحر المتوسط وإمكانية تحقيق هذا يتطلب الأمر أن يأمر البابا بتجهيز عشر سفن مسلحة مهمتها مراقبة البحر المتوسط ويعين عليها الريان الذي يجب عليه أن يتخذ كافة التدابير التي تحول دون المتاجرة مع المسلمين بهدف ضربهم اقتصادياً أولاً قبل البدء بحملة عسكرية كبرى^(٨٢)، وهذه السفن تحتاج لمدة تسعه أشهر فقط لتسليحها ويجب كذلك تزويدها بطاقم مدرب، وشدد على تسليحهم تسليحاً جيداً كما أوضح لنا أن هذه السفن الحربية إن كانت قليلة ومعدة إعداداً جيداً، ومجهزة تجهيزاً وافياً فهي أفضل وأحسن من سفن كثيرة تقfer إلى هذا الإعداد^(٨٣). وأن يكون الريان الذي يقودها حاذفاً وله قدرة على تقدير الأمور وأن يكون الأسطول الذي يقوده مدرياً ومسلحاً، وعلى دراية بالمعلومات الملاحية في البحر المتوسط ومنتظماً ودقيقاً وأن يكون سريع الحركة والتنقل، واختار أن تكون السفن من نوع الشواني^(٨٤)

^(٨١) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحافظ عليها"، ص ١٧ ؟

Kunstmann , F., Studien über Marino Sanudo den Älteren, Munich, 1855, P.P. 4-5 ; Simonsfeld , (Neues Archiv, VII, 43-75).

^(٨٢) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحافظ عليها"، ص ١٧ .

Delville le Roux , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 37.

^(٨٣) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة والحافظ عليها"، ص ١٧٧ .

^(٨٤) شيني والجمع شواني، وهي السفينة الحربية الكبيرة، ويستدل من النصوص التاريخية العديدة أن الشيني هو الأصل الذي ينبع منه أسماء السفن الحربية الأخرى وملحقاتها، فكل سفينة حربية شيني تحمل اسمًا معيناً يدل على وظيفتها فمنها الغراب، والطريدة، والجفنة، وغيرها. انظر: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٢٠٠؛ ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ٣٧٧؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٥١.



لكونها أنساب السفن لعبور البحر، فهي تشبه سفن البنادقة الضخمة والتي كانت تعرف بالغليون^(٨٥) وهي التي تتسع لحمل بضائع كبيرة وفي وسط كل سفينة منها ينصب برج يبلغ طوله عشرين قدمًا ، وعرضه بعرض السفينة التي تحمله ويكون ارتفاعه بالقدر الذي يمر من تحته المقاتلون وهم واقفون، أما مؤخرة كل سفينة فيوضع بها المعدات الحربية وتتركز حسب نصيحة الخبراء المختصين بذلك، وعلى رأس السفينة توضع آلات الرماية بالعدد الكافي، وأن تختار بعض السفن التي تكون أكبر حجمًا لتجهيز باب يفتح في مؤخرتها لنقل المؤن وليسهل إصعاد الخيول إليها، بالإضافة إلى بعض السفن غير المسلحة لنقل المواد الغذائية والذخائر، ويحث على وضع رسومات وألوان وأعلام لإلقاء الرعب في قلوب أعدائه المسلمين^(٨٦). ثم أفرد فصلاً عدد فيه أصناف الأسلحة الدفاعية والهجومية التي يحتاج إليها الجيش وهي في الواقع الأسلحة المستخدمة في الحروب في تلك الفترة^(٨٧). كما قرر أن يكون ضمن معدات الجيش الأبواق والمزامير والطبول وكل أنواع الموسيقى العالية الرنين للإثارة حماس وعزائم الجيش عند سماعها ومن ناحية أخرى، فهي تثبت الرعب في قلوب الأعداء^(٨٨). أما الريان فعليه تأمين مراقبة البحر المتوسط لمدة عام، ويتلقى أوامره من قبل البابا نفسه^(٨٩). وأن يمنح امتيازات تشجيعية لكل طاقم السفينة ووفق رأى سانودو فعليه أن يمنحهم كل ما يستولى عليه وبهذه الطريقة يزدادوا يقظة ونحوه لكشف وملاحقة كل من

^(٨٥) الغليون: سفينة حربية ذات أربعة صوار وليس لها مجاديف وتحتوي على ساحتين للقتال في المقدمة والمؤخرة، ويعتبر من السفن الشراعية الممتازة ذات الأسلحة الثقيلة، ولذلك عملت فتحات خاصة لها على جانبي ساحة القتال. انظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٣٦٠.

^(٨٦) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١٧٩ - ١٨٠.

^(٨٧) كالسيوف والدروع والتروس والنبال والرماح. انظر، مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلبيب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١٨٢ - ١٨٥.

^(٨٨) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلبيب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١٨٢ .

^(٨٩) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلبيب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١٢٢ .



تسوغ له نفسه مخالفة هذا التحريم^(٩٠). وحرص سانودو أن يكون هؤلاء البحارة من سكان المناطق الساحلية الأوربية الواقعة على البحر المتوسط لدرایتهم وخبرتهم بالبحر واقتراح جنوداً من ألمانيا رغم عدم وقوعها على ساحل البحر المتوسط؛ وذلك لأن بعض شواطئها شبيهة بشواطئ مدينة البندقية الواقعة على البحر المتوسط، وبالتالي فإن هؤلاء الجنود سيستطيعون الإبحار في البحر المتوسط ومشاركة إخوانهم الصليبيين التصدي للسفن التجارية الإسلامية. معنى ذلك أن سانودو اشترط على من يحارب المسلمين عن طريق البحر أن يكون على دراية بشؤنه. أي أن سانودو جعل البحر المتوسط ميداناً عسكرياً لمواجهة السفن الإسلامية. واقتراح أيضاً أن على القائد البحري أن يرسل أمامه سفينتين تستكشفان البحر للكشف عن الجزر والصخور ومراقبة الخلجان حتى ينذر الجيش البحري خلفه بالخطر إذا شعروا به. وأن لا يترك المجال للسفن الإسلامية أن تتغفل بين السفن الصليبية ويؤكد على ضرورة أن تطارد السفن الصليبية سفن الأعداء وهم المسلمون، وأن يضع على السفن الصليبية شارات سرية تميزها عن سفن الأعداء^(٩١).

ويحاول سانودو أن يثير حماس النصارى بمقاطعتهم لطرق التجارة التي تمر بأراضي السلطان، حيث يذكر أن النصارى عندما كانوا يحتلون الشام كانت تجارة الهند تصلهم عن طريق الخليج العربي ثم بغداد إلى أن تصل إلى موانئ الشام وكانت تصدر بكميات كبيرة جداً إلى أوروبا عن طريق البحر المتوسط الذي أسماه سانودو بحرنا لكي يذكر البابا أنه في يوم ما كان معظم القاطنين حول هذا البحر من النصارى، أما الآن، فهي أقل بكثير وذلك لسيطرة المسلمين على تلك البضائع واستيفائهم الجمارك الباهضة، كما إن ذلك الطريق صالح للعبور أكثر من الطريق الآخر الذي يمر ببلاد سلطان مصر، يقول سانودو: "في الزمان الماضي كان القسم الأكبر من السلع و التوابيل الهندية المرسلة إلى الغرب تمر ببغداد وتنقل منها إلى

(٩٠) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلib في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١١٩.

(٩١) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلib في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ٢٣٤.



بحربنا - يقصد البحر المتوسط - عن طريق إنطاكية وقليقيا وكان عندنا وقتئذ منتجات الهند بكميات أكبر وثمن أقل مما هي عليه في الوقت الحاضر^(٩٢). وبالنسبة للطرق التي رأى سانودو أن يسلكها الجيش للوصول إلى الشرق، فقد أصر على طريق البحر المتوسط وأن يتجه الجيش من أوروبا إلى مصر مباشرةً وحدد في تقريره مبررات الاتجاه إلى مصر، حيث أوضح أن أرض مصر أسلم صحيحاً ومياها أكثر غزوة، وفيها من المؤن ما يكفي لسد احتياج الجيش فمثلاً فيها كميات لا تعد من الأسماك كافية لتغذية الجيش بأكمله، وأوضح ضرورة التوجه بالحملة مباشرةً إليها دون العرج على غيرها من المناطق طالما أن الهدف واضح وهو توجيه الضربة إليها مباشرةً، لماذا إذا ينحرف الجيش إلى مناطق غيرها ولا تستغل حماسته مباشرةً في المواجهة العسكرية^(٩٣).

وأوضح سانودو بعد ذلك الخطة التي يجب اتباعها عند الوصول إلى الهدف، حيث تبدأ أولاً بالاستيلاء على نهر النيل لأنهم إذا سيطروا عليه فسينجحوا بعد ذلك في احتلال جميع مناطق مصر ويخرّبونها برمتها وبذلك يكون البحر المتوسط تحت سيطرة الأوروبيين فقط. وبعد الهيمنة على النيل والاستيلاء عليه يتمكنون مباشرةً من الاستيلاء على رشيد التي يرى سانودو أهميتها الكبيرة، وقرر ضرورة بناء قلعة حصينة بها مباشرةً ثم استيطان النصارى بها لتنفيذ المخطط الصليبي وفق السياسة المرسومة ضد مصر، وإذا نجت تلك العمليات بهذا التنظيم الدقيق فسيتم احتلال بقية الأقاليم المصرية في الحال ولن يتمكن المصريون من حراستها ولا الدفاع عنها، ولن يمكن المسلمين بعد ذلك من الإقامة بينهم أو إمداد أنفسهم بالغذاء الذي يقيم أولدهم؛ لأنهم يعتمدون تماماً على النقل النهري عبر النيل في وصول المواد الغذائية من مناطق مصر المختلفة، فإذا سقط في أيديهم فسيعجز المصريون عن الاستعاضة عنه بطرق بحرية أخرى أو بحرية لأن الجنود النصارى سيؤمنون ويحرسون ما استولوا عليه، ولن يمكنوا أحداً من النفاذ منه إلى جانب كثرة الصحاري التي تحيط

(٩٢) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٩٣) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأرضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ١٣٩ - ١٤٣.



بالبلاد والتي تعتبر عائقاً في حركة نقل المواد الغذائية كما إن هذا الحظر التجاري لن يكون على هذه السلع الداخلية، وإنما للسلع الخارجية أيضاً التي تصل من مناطق أعلى النيل والحبشة وسيؤدي ذلك في النهاية إلى فرار المصريين من الأرض وتركها بحجة الجوع والخوف^(٩٤).

وبالسيطرة على البحر المتوسط، يعد ساندو المزايا التي سيحصل عليها الأوروبيين منها: أنه سيكون بإمكان أساطيل الصليبيين بعد ذلك ارتياه بأمان حاملة الجنود والغذاء إلى جميع المناطق التي يرغبون في الوصول إليها وانتزاعها من الأعداء ولا يستطيع أحداً مقاومتهم أو إلحاق الأذى بهم^(٩٥).

وعن طريق ذلك البحر يتمكن الصليبيون من نقل الأساطيل والجيوش لاحتلال أراضي الشمال الأفريقي، وكذلك جزر اليونان التي يعيش بها المنشقون عن الكنيسة الرومانية -كما يطلق عليهم ذلك- ويحسن ساندو ذلك المشروع في عين البابا، إذ يذكر له أنه بعد أن يستولى النصارى على تلك الأراضي في مصر والشام سيكون في إمكانهم التحكم في الطرق التي توصلهم إلى بحر الهند يعني بذلك البحر الأحمر والمحيط الهندي الذي يعني البابا بإخضاعه لسيادته^(٩٦).

تبين لنا من خلال استعراض مشاريع دعاة الحروب الصليبية أنهم أجمعوا جميعاً على ضرورة سيطرة أوروبا على البحر المتوسط؛ لأنه من خلاله سيسهل احتلال كل البلاد الإسلامية الواقعة على سواحله، وهذا يؤكّد أهمية موقع البحر المتوسط، فهو الميدان العسكري الكبير الذي يجب أن تبدأ الحملة العسكرية التمهيدية في مياهه قبل النزول إلى البر الإسلامي، ويفكّر أيضاً أنه همة الوصول بين الشرق والغرب.

^(٩٤) مارينو ساندو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ٢٥٢؛ ٢٥٢.

Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 39.

^(٩٥) مارينو ساندو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ٢٥٣-٢٥٢.

^(٩٦) مارينو ساندو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفظ عليها"، ص ٢٥٩-٢٥٨.



قائمة المختصرات:

قائمة المصادر العربية:

- ابن عبد الظاهر، (محب الدين عبد الله ٦٢٠ - ٥٦٩٢هـ):

A. B. F.	Archive of Biographique Francaises.
Cam- Med. Hist.	Cambridge Medieval History
R. H. C. Hist- Arm	Recueil des historiens des Croisades, Historiens Armeniens.

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجار، القاهرة، ١٩٦١م.

- الفقشندي، (أبو العباس أحمد بن علي ت ٤١٨ / هـ ٨٢١):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٩ - ١٩٢٢م.

المراجع العربية والمعربة:

- ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

- سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأنارها الباقية، القاهرة، ١٩٧٥،

- سميث، الاستمارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٣١٠-١٠٥٠م، ت. صبحي الجابي، ط. دمشق ، ١٩٨٤م.

- طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن جبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص ١٠.

- عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، سوريا، ط ١ ، ١٩٨٠م.

- محمد ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥م.

- نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، القاهرة، ١٩٧٥م.



- هايد، ف.: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد رضا
محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٤ أجزاء، ١٩٩٤ م.

المصادر الأجنبية المعاصرة:

- مارينو سانودو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصلب في استرجاع الأرضي المقدسة
والحافظ عليها، ترجمة الأب سليم رزق الله، دار الرياحاني، لبنان، ط١، عام ١٩٩١ م.

المصادر الأجنبية:

- A. B. F. Molay, (Jacques de) , See Templars, Knights , Hist. Litt. De la France, XXVII, two chaps. Written by renan : Viollet. Les Interrogatoires de Jacques de Molay, Paris, 1910.
- A. B. F. Molay (Jacques de) Fourquet, Emile, les hommes celebres et les personnalites morquantes de Franche – Comte du IV esiecle a nos jours, 1929.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Mennechet, E. Le Plutarque Francais. 1844 – 47.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Chronique de Saint – Denis .
- A. B. F. Molay (Jacques de) , Histoire genealogique de la maison de France. In Galeries Historiques du PalAis de Versailles . 1840 – 1848.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Pierre Dupuy , hist. De le Condamnation des Templiers, Raynouard, (P. M. J.) Histoire critiquet apologetique de l'ordre des checalrers du Temple de Jerusalem.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Baluze, Vitae paparum Anenionensium, Colon.
- A. B. F. Villaret (Foulques), Galeries Historiques du palais de versailles. 1840 – 1848 .
- A. B. F. Villaret (Foulques), Raynaldi , Dnnal. Ecclerast., 1306, Fleury, vol. XIX.
- A. B. F. Villaret (Foulques), Dictionnaire des personnages historiques Francais. 1962.
- A. B. F. Les Chevaliers de L' Annonciade, Paris.



- Acta Aragonensia : Quellen Zur deutschen, Italienischen, Franzosischen, spanischen, zurkirchen – und kulturgeschichte aus der diplomatischen korrespondenz Jaymes II. (1291–1327) , ed. Heinrich Finke, Vols. 1–111, Berlin Leipzig, 1908 – 1922, Vol. III repr. 1966.
- Archives, O'Histoire Doctrinale et Litceraire du moyen age, Quarante – Sixieme Annee, 1971 , Paris, 1972.
- Archives, Biographiques Francaises, Molay (Jacques de), Voy Biogr. Univ., T. XXIX.
- A. B. F. Boniface. Les Registstres, ed. Digard, G. and others (Bibliotheque des ecoles francaises de Athenese et de Rome, ser.1 (Paris,1884–1939).
- Archives Biographiques Fransaices, Guillaume Nogaret, Dbzobry, L. C. at Bachblht, J. L. T. Dictionnaire general de Biographie, etc. 5me ed. 1869.
- Archives Biographiques Fransaices, Guillaume Nogaret, Hoefer, J. C. F. Nouvelle Biographie generale, etc. 46 vol. 1852.
- Archives Biographiques Fransaices, Guillaume Nogaret, Feller, F. X. de Biographie Universelle, 8. Vol. Nouvelle ed. 1851.
- Archives Biographiques Fransaices, Guillaume Nogaret, Biographie Toulousaina, 1823.
- Guillelmus Adam , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II.
- Miller, W. " Genoese in Chios" , E. H. R., XXX (1915).
- Guillame Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II.
- A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat.
- Hetoum of Gorigos, "La flor Historiarum Terre Orientis" in **RHC. Arm.** **Vol. II.**
- Kedar & Schein , Un project de passage particulier propose par l'Ordre de l'Hopital 1306 – 1307. Bec 137, 1979.



- Maslatrie, L., Traitee de Paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les Arabes de L' Afrique Septentrionale au moyen – age, Paris, H. plon. 1865.
- Regestum Clementis Papae V, ed anon, Benedictine Monks, I– VI and appendices I, Rome, 1885–1892.

المراجع الأجنبية:

- 1 – Alphandery, P., La Chretiente et L'idee de croisade, Paris, 1959.
- 2 – AtiyA, A.S., – The Crusade in the later Middle ages, London, 1938.
 - The Crusade of Nicopolis, London.
- Brehier, L. L'Eglise et L'Orient au Moyen Age les Croisades, Paris , 1928.
- Crawford, P., An Institution in crisis the military orders, 1291–1310. Adissertation supmited in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy history at the University of Wisconsin–Madison, 1998.
- Dufourcq, C. E., L' Espagne catalane et Le Magre b au XIII et XIV. Paris, 1966.
- Delaville Le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle expeditio ns du Marechal Boucicaut, Paris, 1886.
 - Les Hospitaliers en Terre Sainte et Achypré 1100–1310, Paris, 1904.
- Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente Francescano . Florence , 1906 – 1927 , Vol . II.
- Luttrell , The Hospitallers at Rhodes, 1306– 1421 , in Setton , Vol . III.
- Paris, P., Hayton, Prince d'Armenie, Historien,Extrait de L'Histoire litteraire de La France, Paris,1885,XXV.
- Housley, N., Documents on the later crusades, 1274–1580, London.
- Kunstmann, F., Studien über Marino Sanudo den Älteren, Munich,1855, P.P. 4–5 ; Simonsfeld , (Neues Archiv, VII, 43–75).



المجلات العلمية:

- محمود سعيد عمران، شارل دي انجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ١٢٦٦ - ١٢٨٥ م، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٦) م (١)، مارس، ١٩٩٨ م، ص ١٦٩.

الرسائل العلمية:

- إبراهيم خميس إبراهيم، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام (١١٩٣ - ١٢٩١ م / ٥٨٩ - ٦٩٠ هـ)، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣ م.
- سامي سلطان سعد، الاستبارية في روس، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٥ م؛

ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي

بين الصراع السياسي والخلاف المذهبي

(١٣٧٤-٩٥٦ هـ / م ٢٠٢١-٣٤٥)

د. فريد عبد الرشيد فريد سليم

مدرس التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسلیط الضوء على ظاهرة من أكثر الظواهر غموضاً وإبهاماً في تاريخ الغرب الإسلامي بعذونبيه، وهي ظاهرة نبش القبور والسلط عليها بالإحرق والتخييب، وقد تتوعد دوافع وأسباب تلك الظاهرة باختلاف طبيعة الظروف المؤدية لارتكابها وشخصية مرتكبها وضحاياهم، وتتأيي الصراعات السياسية والمذهبية التي سيطرت على تاريخ الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة على رأس الدوافع والأسباب المؤدية لارتكاب هذا الفعل الشنيع، وارتبطة تلك الصراعات في الغالب الأعم بالرغبة في الانتقام من الخصوم والثوار والمناوئين الذين خاضوا في هذه الصراعات بانتهاك وأستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم إمعاناً في التشفى والانتقام منهم، رغم أن الإسلام في شريعته لم يدعُ إلى تخريب القبور أو حتى المساس بها كما نهى عن التمثيل والعبث بالجثث.

وقد توصلت الدراسة إلى أن هذا الفعل الشنيع لم يصل إلى حد الظاهرة الإجرامية؛ لأسباب عدة منها إحاطة هذا النوع من الجرائم بسياج من السرية والكتمان، فضلاً عن إحجام المؤرخين عن التأريخ له، كما أن الواقع التاريخي العياني يؤكد أن تلك الانحرافات لم تكن طابعاً غالباً، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.



Abstract :

This study seeks to shed light on a phenomenon that has been considered one of the most mysterious and ambiguous phenomena in the history of the Islamic West, this is the phenomenon of digging up graves, as well as the domination of graves by burning and vandalism, as the motives and reasons behind this phenomenon varied due to the nature of the circumstances leading to its perpetration, the personality of its perpetrators and their victims, the political and sectarian conflicts that dominated the history of the Islamic West during that period were at the top of the motives and reasons led to the perpetration of such a heinous act, in most cases, such conflicts were associated with the permissibility and violation of the sanctity of their graves after their passing away, as a way to further Underestimating and take revenge on them despite the fact that Islam, in its legislation, has not called for the destruction of graves, or even harming them, it also forbade mutilation and tampering with corpses, and the study concluded that this heinous act hasn't reached the level of a criminal phenomenon; that has been for many reasons, including surrounding such type of crimes with a fence of secrecy and concealment, as well as the reluctance of historians to chronicle such a matter, and the historical reality confirms that these deviations did not constitute a dominant nature, but rather affected individuals, and such deviations could not form a prominent current in Islamic West society.

مقدمة:

كان من الطبيعي أن يظل التاريخ لظاهرة نبش القبور في المجتمع الإسلامي محفوفاً بالمحاذير والمخاوف، ومن ثم أحجم المؤرخون عن التاريخ لتلك الظاهرة، باعتبارها موضوعاً محظياً وغامضاً، خصوصاً مع تحريم الإسلام لهذا الفعل القبيح، والاختلاف البالغ بين الرؤية الإسلامية النظرية وبين الواقع التاريخي العيانى. ويعزى الأمر دون شك إلى أن الكيانات السياسية التي عرفها الغرب الإسلامي عبر تاريخه الطويل قد اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحالم، ليسوا أعداء ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفاراً – وهم إخوان لهم في الدين – يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، بل والسلط على قبورهم بالنبش والتخريب إمعاناً في التشفى والانتقام منهم، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد اغتصاب هؤلاء الموتى في قبورهم دون مراعاة لحرمة الأموات، باعتبار ذلك مصيراً محتوماً لكل من نلأ حكمهم أو خالف مذهبهم.

رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة – على اختلاف مذاهبهم – قد انفقوا على عدم جواز نبش قبور المسلمين أو حتى المساس بها إلا بمسوغ شرعي، غير أنه لم يلتفت في الغالب إلى هذا الحكم الفقهي في خضم الصراعات والحراب الدموية بين الأمراء والحكام المتنازعين على السلطة، والذين لم يدخلوا جهاداً في تحفيتها جانبأً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبممارسة فقهائهم، ينطوي على استباحة تكفير الخصوم والمناوئين، إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلين بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين، الذين يجوز استحلال دمائهم وانتهال حرمة قبورهم، من خلال تأويل النص المقدس وتوظيفه وتطويعه لخدمة هذا المنظور السياسي، الذي لعب فقهاء السلطة دوراً هاماً في الترويج له، مادام الأمر يتعلق بمصلحة القابعين على رأس السلطة. وهذه الصورة على وجه الخصوص جديرة بالدراسة والبحث.

أولاً: النبش في اللغة والاصطلاح:

إن محاولة التأريخ لظاهرة نبش القبور في تاريخ الغرب الإسلامي يستلزم استحضار التعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهوم "نبش القبور"، حيث تحلينا المعانى المختلفة على أن لفظة "النبش" في اللغة يقصد بها نبش الشيء ينبوشه نبشاً: استخرجه بعد الدفن، ونبش الموتى: استخراجهم، والنباش : الفاعل لذلك، وحرفته النباشة. والنباش: نشك عن الميت وعن كل دفين^(١).

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ففي اصطلاح الفقهاء النباش هو من يفتح القبور عن الموتى ليسرق أكفانهم وحليهم بعد دفهم^(٢)، وهناك فرق بين نبش القبور بغرض التشفي والانتقام من أصحابها وبين الكنزيون الذين ينهمكون في البحث عن الكنوز المدفونة في أساسات الأبنية الأثرية القديمة، ينبعون "الأرض ويتلذبون العمارت والمقابر أحياناً"^(٣).

ثانياً: المرجعية الفقهية لحرمة الأموات في الإسلام:

جعل الله تعالى حرمة المسلم من أعظم الحُرمات، وحرمة المسلم غير مقيدة بحياته، بل هي باقية في الحياة وبعد الممات، ويجب صونها والذبُّ عنها في كلّ حال، ولا شك أن في نبش القبور ونقل ما بقي من آثار الموتى انتهاك حرمة أوجب الله تعالى حفظها وصيانتها والدفاع عنها؛ وعليه لا يجوز نبش قبور المسلمين ولا الكشف عن موتاهم بعد دفهم وإهالة التراب عليهم بلا مسوغ شرعى، وذلك باتفاق الفقهاء؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الميت؛ لأن

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، مادة نبش، ج ٤، ص ٤٣٢٤.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط ٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م، مادة نبش، ص ٨٩٧، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٤، ص ١٨.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٢٧٤. يشير الوزان إلى وجود جماعة في مدينة فاس يدعون الكنازين، كانوا يقومون بالبحث عن الكنوز في المباني الأثرية وفي المقابر والأضرحة أيضاً، لأنهم مقتعمون بأن الرومان حينما رحلوا عن إفريقيا، دفعوا في ضواحي مدينة فاس عدداً وافراً من الأشياء الثمينة التي لم يتمكنوا من حملها معهم. نفس المصدر والصفحة.

المكان الذي يدفن فيه المسلم يعد وقفاً عليه ما دام شيئاً منه موجوداً فيه حتى يفني، فإن بقي شيئاً من أعضائه فيه، فحرمته باقية كما لو بقي جميعه، وحرمة المسلم ميتاً حرمته حيّاً^(١). ولما في نبش القبر من التعدي على الميت والتمثيل به والإهانة له وهنّاك حرمته وتكسير عظامه، وكسر عظم المؤمن ميتاً كسره حيّاً، فمن فعل ذلك فقد أتى ذنباً عظيماً، وارتكب جرماً كبيراً، وعرض نفسه للعن؛ لما ورد عن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لعن المخنق والمختفية"^(٢)، أي نباشي القبور^(٣).

ويعلق ابن عبد البر على هذا الحديث بقوله: "وفي لعن رسول الله صلي الله عليه وسلم النباش دليل علي تحريم فعله، والتغليظ فيه"^(٤). وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: "كسر عظم المسلم ميتاً كسره وهو حي"^(٥). وقد نهي الرسول صلي الله عليه وسلم عن المثلة، وترك الإنسان دون دفن مثلاً، وكان قد أوصى عليه السلام إذ قتل بنى قريظة أن تحفر خنادق ويلقوا فيها، كما "أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقدوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث"^(٦).

(١) ابن مفلح المقسى: كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ٢٠٠٣، ج٣، ص٣٨٩-٢٨٨؛ أبي زكريا بن شرف النووي: كتاب المجموع، شرح المهذب للشيرازي، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، ج٥، ص٢٧٣؛ ابن الهمام الحنفي: شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرزاق غالب المهدى، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢٠٠٣، مج٢، ص١٤٩؛ ابن الخطاب المالكي المغربي: مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط ، ط٢٠١٠، مج٢، ص٥٥٢.

(٢) مالك بن أنس: الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي الأنطليسي، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج١، ١٩٩٧، ص٣٢٥.

(٣) سمي النباش مخنق؛ لإظهاره الميت وإلزامه إياه بعد دفنه من قبره؛ لأن أخفقت تكون بمعنى سترت وبمعنى أظهرت. ابن عبد البر القرطبي: الاستئثار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه المروط من معانى الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد المعطى أمين قلعي، دار قتبة للطباعة والنشر، دمشق _ بيروت، دار الوعي، طب_ القاهرة، ١٩٩٣، مج٨، ص٣٤٣.

(٤) ابن عبد البر القرطبي: الاستئثار، مج٨، ص٣٤٤؛ الحسن البصري: التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس، تحقيق سيد كسرامي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ٢٠٠٧، ص٢٢٢.

(٥) مالك بن أنس: الموطأ، مج١، ص٣٢٥.

(٦) ابن حزم: المحلي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ، ١٣٤٩هـ، ج٥، ص١١٧.

واستناداً إلى حرمة نبش القبور والتعرض لها، اختلف الفقهاء في قطع يد النباش الذي ينبع قبور الموتى فيسرق أكفانهم بين قولين: الأول، لا قطع على النباش ولو كان القبر في بيت مقفل، وهذا قول أبي حنيفة. والقول الثاني: وجوب قطع يد النباش، وهذا قول المالكية^(١) والشافعية^(٢) والحنابلة^(٣)، وهو قول ابن الزبيير وعائشة رضي الله عنها^(٤)، وقال به من التابعون التابعون عمر بن عبد العزيز^(٥).

ويدل أصحاب القول الأول على صحة قولهم بما رواه الزهري من أن مروان بن الحكم أتى "بِقَوْمٍ يَخْتَفُونَ الْقَبُورَ - أَيْ يَبْنِشُونَهَا - فَضَرِبُوهُمْ وَنَفَاهُمْ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ"، فكان هذا اتفاقاً من بقى من الصحابة في عهد مروان على عدم قطع يد النباش. ويدل أصحاب القول الثاني على صحة قولهم بقوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبُوا نَكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَكِيمٌ﴾^(٦)، وهذا نص عام، فوجب أن يكون على عمومه في النباش وغيره؛ لأن النباش سارق^(٧).

وفي السياق ذاته، لا يعتبر الاعتداء على جثث الميت أو رفاته جريمة واقعة على الميت باعتباره إنساناً، ولا يعتبر الميت هو المجنى عليه، وإنما يحرم الاعتداء على رفات الأموات باعتبارها شيئاً محترماً لدى الجماعة ولها حرمة في نفوسهم، فالمحنـى عليه في الجريمة هو الجماعة، والشريعة تعاقب مرتكبها باعتباره معتدياً على حرمة الأموات أو حرمة المقابر^(٨).

(١) ابن عبد البر القرطبي: الاستئنـار، مجلـة، ٨، ص ٣٤٤.

(٢) أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعـي رضـي الله عنهـ، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عاـلـي أحـمـد عبدـ المـجـودـ، نقـيـمـ مـحمدـ بـكـرـ إـسـمـاعـيلـ وـعـبدـ الفـتاحـ أـبـوـ سـنـةـ، طـ١ـ، دـارـ الكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ، جـ١ـ٣ـ، صـ٣١٣ـ.

(٣) ابن قدامة: المغنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركـيـ عبدـ الفتـاحـ مـحمدـ الـحلـوـ، طـ٣ـ، دـارـ عـالـمـ الـكـتبـ لـلـطـبـاعـةـ وـالـنـشـرـ، الـرـيـاضـ، ١٩٩٧ـ، جـ١ـ٢ـ، صـ٤٥٥ـ.

(٤) الماوردي: الحاوي الكبير، ج ١٣، ص ٣١٣.

(٥) البيهـيـ: السنـنـ الـكـبـيرـ، تـحـقـيقـ مـحمدـ عـبدـ الـقـادـرـ، طـ٣ـ، دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ، ٢٠٠٣ـ، جـ٨ـ، صـ٤٦٨ـ.

(٦) سورة المائدـةـ، الآيةـ رقمـ ٣٨ـ.

(٧) أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير، ج ١٣، ص ٣١٣؛ ابن قدامة: المغنى، ج ١٢، ص ٤٥٦.

(٨) عبد القادر عودـةـ: التشـريعـ الجنـائيـ فـيـ الإـسـلـامـ مـقـارـنـاـ بـالـقـانـونـ الـوضـعـيـ، دـارـ الـكـاتـبـ الـعـرـبـيـ، بـيـرـوـتـ، (ـدـتـ)، جـ١ـ، صـ٣٩٩ـ.

وعليه، فإن التحرير هو الأصل في نبش قبور المسلمين، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا في حالات معينة بينها الفقهاء، منها جواز نبش قبر الميت الذي دفن بغير غسل أو بغير صلاة ما لم يتغير، إذا كان في نبشه مصلحة تتعلق به من زيادة البركة له، فإن خشي عليه التغير فلا؛ لما في ذلك من انتهاك لحرمة^(١).

ومن هذه الحالات أن تكون الأرض التي دُفِنَ فيها الميت مغصوبة^(٢)، فإذا دُفِنَ ميت ميت في أرض مغصوبة فيستحب لصاحب الأرض ترك هذا الميت في قبره حتى يبلّى ويصبح تراباً^(٣)، ويكره نبشه حينئذ^(٤)، فإن لم يقبل صاحب الأرض بقاء الميت في قبره وأراد إخراجه منه فله نبش القبر وإخراج الميت منه باتفاق المذاهب الأربعية^(٥).

أضف إلى هذا، أن يكون قد سقط مع المُتوفى مال أثناء دفنه، فيجوز في هذه الحالة نبش قبره لاستخراج المال؛ إذ تتوفر على إشارة تخص أحد الأشخاص كان يعمل ناظراً على المارستان بفاس، ويتولى تجهيز الموتى بيده وقد جيء إليه ذات يوم بميت غريب، فلما أراد غسله، وجد معه بضعة دراهم، فوضعها في الأرض ليذهب بها إلى بيت المال، فلما كفنه، اندرجت معه في الكفن؛ فنسيها، فلما وضع عليه التراب، تذكرها. فنبش عليه؛ لإخراجهها فوجد الدرارم مسمرة في بدنها، من رأسه إلى قدمه، فرد عليه التراب، وقال: لعله من الذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله^(٦).

(١) محمد بن إدريس الشافعى: الأم، تحقيق وتخریج رفعت فرزى عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر ٢٠٠١م، ج٢، ص٦١٢؛ ابن رشد القرطبي: المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، ط١، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٣٣؛ أبي الحسن الماوردي: الحاوى الكبير، ج٣، ص٦٢.

(٢) الموسوعة الفقهيّة، ج٣٩، ص٤١٧.

(٣) ابن قدامة: المغني، ج٣، ص١٥٠؛ أبي زكريا النبوى: كتاب المجموع، ج٥، ص٢٦٨.

(٤) ابن مفلح المقدسى: كتاب الفروع، ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨.

(٥) أبي الحسن الماوردى: الحاوى الكبير، ج٣، ص٢٧؛ ابن قدامة: المغني، ج٣، ص١٥٠؛ ابن الهمام الحنفى: فتح فتح القدير، ج٢، ص١٤٩؛ ابن عبد الكريم الراغبى الفزوبينى: العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٥٥.

(٦) ابن إدريس الكتانى: سلوة الأنفال ومحاتنة الأقياس بين أقرب من العلماء والصلاحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتانى وحمزة بن محمد الطيب الكتانى وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص١٩٥.

وبالمثل فإن كتب الحسبة قد استطردت في الحديث عن حرمة نقل الموتى بنبش قبورهم دون مسوغ شرعي، فنصت على أن لوالى الحسبة أن يمنع من نقل الموتى من قبورهم إذا دفعوا في ملك أو مباح إلا في أرض مخصوصة، فيكون لمالكها حينئذ الحرية في أن يأمر من دفنه فيها بنقله منها^(١).

أما قبور الكفار، فيجوز نبضها وتخريبها إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك باتفاق المذاهب الفقهية، واعتمدوا في هذا الرأي على حديث بناء مسجد النبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ كان بموضعه قبوراً للمشركين فأمر بنبضها وجعلها مسجداً^(٢)، بل إن بعض الفقهاء يرون بأن نبض قبور الكفار المشركين لا يشترط أن يكون لغرض فيه مصلحة أو حاجة لدى المسلمين؛ لأن المشرك لا حرمة له حياً وميتاً^(٣). أما أهل النمة من اليهود والنصارى فلا "يجوز نبض قبورهم لاتخاذ مسجد ولا غيره"^(٤).

ورغم أن الإسلام في تشريعاته - كما بينا - لم يدع إلى نبض قبور المسلمين أو المساس بها، كما نهي عن العبث بالجثث والتمثيل بها، إلا أن المسلمين قد مارسوا ذلك الفعل الشنيع المنكر في فترات متفرقة من تاريخهم؛ حيث تطالعنا دراسة النصوص المصدرية على معطيات كثيرة تؤكد في وضوح أن المسلمين قد مارسوا نبض القبور وتنميرها في أوقات الصراع السياسي على السلطة، وكذا في أوقات توهج الخلافات المذهبية بين طوائفهم المختلفة.

ثالثاً: ظاهرة نبض القبور في صدر الإسلام:

تعود أول إشارة إلى ظاهرة نبض القبور في تاريخ الإسلام إلى العهد النبوى، حيث نكرت بعض المصادر أن قريش أثناء حربها مع النبي صلي الله عليه وسلم حاولت نبض قبر أمه آمنة بنت وهب، وذلك حين خرج قريش لملاقاة جيش المسلمين في غزوة أحد،

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٧٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، دار السلام، الرياض، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٦٧٩.

(٣) ابن بطال: شرح صحيح البخاري، تعلق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط ٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٨١.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

وكانت قريش قد نزلت حينئذ بمنطقة تعرف باسم "الأبواء"^(١)، فطلبت هند بنت عتبة^(٢) من زوجها أبي سفيان بن حرب ومن معه نبش قبر أم النبي "فاستشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة متانا"^(٣).

وفي عهد الخليفة الراشدة، وتحديداً في أحاديث الصراع السياسي بين المسلمين علي الخليفة، أو ما يعرف بالفتنة الكبرى التي حدثت وقائعها في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وانتهت بمقتله، لم يكن الثائرون عليه بقتله وطرح جثته علي الأرض لثلاثة أيام دون دفن، أو حتى التمثيل بجثته ورمي نعشة بالأحجار زيادة في التكبيل به، بل إنهم زدوا الأمر سوءاً فلم يسمحوا له أن يدفن في جنازة تليق به وبمقامة الجليل، فلم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء، ففنت جثته ليلاً بمقدمة (حش كوكب)، وهي مقبرة مجاورة لمقابر اليهود خوفاً من ترصد الثائرين لجنازته^(٤).

وعلي هذا النحو، ظل مكان دفن عثمان - رضي الله عنه - مجھولاً بين النخيل إلا من بعض الصحابة خشية أن يُبْشَّش قبره ويُعْبَث به، ففي أثناء دفنه حاولت إحدى بناته الصراخ والبكاء عليه، فنهرها الصحابة؛ وقالوا لها: "إنا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء أن يُبْشِّشوْه"^(٥).

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وبمدينة الأبواء يوجد قبر آمنة بنت وهب أم النبي صلي الله عليه وسلم. الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٧٩.

(٢) كانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم، وأمرت نساء قريش بارتكاب هذا الفعل الشنيع، مثل جذع الأنوف والأذان. الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، طبعة عالم الكتب، (د.ت.)، ج ١، ص ٢٧٤.

(٣) الواقدي: كتاب المغازي، ج ١، ص ٢٠٦.

(٤) دفن سراً في مكان يدعى "حش كوكب"، وهو مكان كان اليهود يدفون فيه موتاهم. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط ١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٦٥؛ الطبرى: تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٧م، ج ٤، ص ٤١٢؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.)، ج ٥، ص ٥٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مجل ٣، ص ٦٩-٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، ج ٧، ص ١٩٠-١٩١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط ١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٣٠.

(٥) الطبرى: تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤١٣.

وُعرف العصر الأموي هو الآخر ظاهرة نبش القبور وتخربيها، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بنى أمية عندما أمر واليه علي المدينة بنبش قبور الصحابة من شهداء معركة أحد، وكان عذرها في ذلك هو حاجته إلي إنشاء عين ماء بتلك الناحية، فأمر معاوية عامله علي المدينة بنبشهما، فأخرجوهم رطباً يتثرون، يحملون علي عنق الرجال كأنهم قوم نائم، فإذا أصابت المساحة^(١) أصبع رجل منهم انفطرت دماؤه^(٢). ولعل من سخرية الأقدار أن قبر معاوية بن أبي سفيان هو أول قبر سيتعرض للنبش والتخريب بمجرد صعود الدولة العباسية واستيلاتها علي حاضرة الأمويين دمشق. وننور علي إشارة أخرى تعود إلي عهد الأمويين، نستشف منها مدى الاشتغال الذي كانت تعاني منه الدولة الأموية في أواخر عمرها، والذي أضر بها ضرراً بلغاً، هذه الإشارة تتعلق بمروان بن محمد^(٣) آخر خلفاء الدولة الأموية، الذي قيل عنه: "إنه نبش علي يزيد بن الوليد وأخرجه من قبره وصلبه"^(٤).

وشهد العصر العباسي ظاهرة نبش القبور وتخربيها علي نطاق واسع، فصار من الصعب أن تسكت عنها المصادر، فقد بالغ العباسيون في التكيل بخصوصهم الأمويين بعدما اسقطوا دولتهم وعولوا علي استئصال شأفتهم^(٥)، ولم تقف روح الانتقام الذي أضمره العباسيون

(١) المساحة: معرفة من الحديد. ابن منظور: لسان العرب، مادة مسح، ج ٤٦، ص ١٩٩.

(٢) ابن المبارك: كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزهه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (ديت)، ج ١، ص ١١٢؛ للمزيد انظر الواقي: كتاب المغازى، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١، ج ٣، ص ١٠؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٣، ص ١٨٣.

(٣) بويغ بالخلافة في دمشق سنة ٥٤٤/١٢٧م بعد خلعه لإبراهيم بن يزيد، ولم يكفل مروان بخلعه بل قتلته وصلبه، وكانت نهاية مروان بن محمد مأساوية عندما قُتل سنة ٥٤٩/١٣٢ علي أيدي جنود العباسيين بمصر، وزالت ب نهايته دولة بنى أمية. المسعودي: مروج الذهب ومعاذن الجوهر، اعتنى به وراجعيه كمال حسن مرعي، ط ١، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦١، ٦٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٥٩.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ونكر فضلها، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامه العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٣١، ص ٦٣.

العباسيون لبني أمية عند حد نهائية دولتهم أو حتى قتل الأحياء منهم وصلبهم ومصادرتهم أموالهم^(١)، بل وصل الأمر بهم في عهد أبي العباس السفاح^(٢) إلى حد التمثيل بموتاهم وبنش قبورهم^(٣).

نذكر من ذلك ما تعرض له أهل مدينة دمشق من تسلط العباسيين بهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، حيث تشير المصادر أن "عبد الله بن علي"^(٤) أمر عند دخوله دمشق بوضع السيف في رقاب أهلها، وأباح القتل فيها ثلاثة ساعات، فقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً^(٥). كذلك لم يسلم الأمويون الأموات من بطش العباسيين، الذين صبوا عليهم جام غضبهم وتقنوا في التكيل بهم، عندما قام قائد جيوشهم "عبد الله بن علي" ببنش قبور بني أمية وإحراق عظامهم بالنار^(٦)، فتسلط على قبر معاوية بن أبي سفيان بالنخش والتخريب، فلم يجد فيه إلا خططاً مثل الهباء، وبنشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كالرماد، وبنش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً، لم يبل منه غير أربعة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٨٥م، ص٤٠٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٥، ص٧٨.

(٢) أول من جلس على عرش الخلافة العباسية، بطبع مدينة الكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، واستقرت يده على أرض العراق وخراسان والجazan وبلاط الشام ومصر عدا بلاد الأندلس التي استقل بها عبد الرحمن الداخل، قضى معظم عهده في محاربة الأمويين والقضاء عليهم، وتوفي أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ٥٢.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج١، ص٢٦٠.

(٤) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم السفاح والمنصور، افتتح مدينة دمشق حاضرة الأمويين سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، ج٣١، ص٥٤.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ج٦، ص٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٤، ٤٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٥.

ثم صلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح^(١). فلما رأى بنو أمية ذلك "اشتد خوفهم وتشتت شملهم، واختفى من قدر منهم على الاختفاء"^(٢)، ولم يفلت منهم إلا من كان رضياعاً أو هرب إلى الأندلس^(٣).

لم يتوقف نبش القبور في العهد العباسي عند حد الصراع السياسي مع الأمويين، بل تعداد ليشمل الخلاف المذهبى مع العلوبيين، عندما أساء الخليفة العباسي "المتوكل على الله" إلى نفسه بسياساته العنيفة التي انتهجهها في معاملته ضد العلوبيين الشيعة، فبلغ بهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بنى العباس من قبله، عندما أمر جنوده سنة ١٥٠هـ / ٥٣٣هـ بنبش قبر الحسين بن علي رضي الله عنه في كربلاء وما حوله من الدور، وأن يحرث بالحيوانات وبذير، ويُسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إيتائه^(٤). وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التي ألحقتها بالعلويين بسببه في المساجد والطرقات؛ حيث "تألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراة"^(٥).

رابعاً: ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي:

لا يوجد في تاريخ الغرب الإسلامي بعديته ظاهرة أكثر غموضاً وإبهاماً من ظاهرة التسلط على القبور بالنسب والتخريب والتدمير، ولا عجب في ذلك، فالمؤرخون اعتبروا مثل هذه الأفعال الشنيعة مروقاً وخروجاً على الدين، وبالتالي لم يوردوا أخبارها إلا بحيرة وحذر كبار، ومن ثم لم يخصصوا لها سوى إشارات خجولة في مؤلفاتهم. والأغرب من ذلك، أن هذه الظاهرة كانت أقل الظواهر تعرضاً لتحامل المؤرخين على من قاموا بارتكابها، فلم يستنزلوا عليهم العונات أو حتى كالوا لهم كل أصناف الشتائم والنحوت النميمية، واكتفوا فقط

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ٥، ص ٧٨؛ التوبيري: نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة إبراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج ٢٢، ص ٥٠؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٢٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ٥، ص ٧٨.

(٣) التوبيري: نهاية الأدب في فنون الأدب، ج ٢، ص ٢٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٥.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٨٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٥.

بذكر هذه الممارسات في فقرات هزلية تميزت بالاختزال الشديد المقتصر على خبر النبش وحده، دون الخوض في تفاصيله وجزئياته، في حين أُسْدِل ستاراً من الصمت على وقائع هذه الأحداث المؤلمة في بعدها التاريخي، وهو أمر طبيعي؛ إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطة هي من قامت بارتكاب هذه الأفعال المحرمة، وموقع المؤرخ الرسمي من السلطة، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم.

الأسباب المؤدية إلى نبش القبور:

طالعنا مصادر الغرب الإسلامي على معطيات كثيرة تؤكد على ممارسة المسلمين لظاهرة نبش القبور وتخربيها، رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة - على اختلاف مذاهبهم - قد انقووا على عدم جواز نبش قبور المسلمين أو المساس بها إلا بمسوغ شرعي، فإن هذا القاعدة الفقهية المجمع عليها لم تصمد أمام المطاحنات والحروب الدموية للحكام علي السلطة، إمعاناً منهم في إذلال الخصوم والمعارضين، فلم يدخلوا جهداً في تحويتها جانباً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبمباركة فقهائهم، ينطوي على استباحة تكثير الخصوم والمناوئين؛ إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلين بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين^(١)، وعندما يجوز استباحة دمائهم وانتهاك حرمة قبورهم. فتأويل النص المقدس وتوظيفه وتطويعه جرى لخدمة المشروع السياسي للفرق والمذاهب^(٢).

وبذلك اتخذت القوى السياسية في الغرب الإسلامي من هذا المنظور مرجعية فقهية ومسوغاً شرعياً للتعامل مع الخصوم والمناوئين معاملة الكفار، الذين يجوز جهادهم وإزهاق أرواحهم، وانتهاك واستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم عن الدنيا، ولعب فقهاء السلطة دوراً هاماً

(١) نبه أخوان الصفا إلى التعصب المذهبي الذي حدا بالفرق الإسلامية إلى أن "يكفر بعضهم ببعض، ويبتiera بعضهم من بعض، ويرى كل واحد منهم حل أخذ مال مخالفيه، ويشهد عليهم بالكفر والزنقة والخلود في النار": رسائل أخوان الصفا، القاهرة، ١٩٢٨م، ج ٣، ص ٥٣٧؛ للمزيد انظر ابن عساكر: تبيين كتب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٣٠هـ، ص ٤٠٥ - ٤٠٧.

(٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الإزدهار، سينا للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٠.

في الترويج لهذا المنظور السياسي، وهو ما عبر عنه ابن حيان^(١) حين قال: "الأمراء القاسطون قد نكروا .. عن نهج الطريق .. والفقهاء أنتمهم صموم عنهم، صروف عما أكده الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين أكل من طوائهم خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم".

وهكذا، اعتمد الفقهاء والسياسيون على هذا المسوغ، فاعتبروا كل من يخالف مذهبهم وناؤاً حكمهم كافراً يجوز قتله واستحلال حرمته، ومن ثم شكل الصراع السياسي على السلطة بين هذه القوي المتصارعة أحد الأسباب الرئيسية في بروز ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي، وأن السياسة في رأي أحد الباحثين^(٢) لعبة خطيرة لا تستقيم لصاحبها على الدوام، فإن تاريخ الفترة محل الدراسة مليء بالرجال الذين تم التكيل بهم لمعارضتهم للحاكم أو ثورتهم عليه، أو تدبيرهم الخطط للإطاحة به، وكثير من هؤلاء الذين نكل بهم كانوا إما وزراء أو قضاة أو متصرفون. فالتاريخ ليس أكثر من صورة للجرائم والمحن^(٣)، أو حيل ومكائد يدبّرها الأحياء للأموات^(٤).

وانطلاقاً من المسوغ ذاته، فإن أغلب الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة قد تعرضوا لأكثر من وسيلة من وسائل التكيل والإذلال المعروفة آنذاك، كحز الرؤوس وتعليقها^(٥)،

(١) نقل عن ابن سام: *الذخيرة في محسن أهل الجزيرة*، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، ق ٣، مج ١، ص ١٨٠-١٨١.

(٢) بسم عبد العظيم: *شعر الأسر والسجن في الأندلس*، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٣.

(٣) حضر محمد: *الاغتراب والتطرف نحو العنف: دراسة نفسية اجتماعية*، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٣.

(٤) بدوي عبد الرحمن: *موسوعة الفلسفة*، ج ٢، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٠٧.

(٥) تفوق إشارات المصادر المتعلقة بتلك المظاهر عن الحصر ينظر على سبيل المثال ابن سام: *الذخيرة*، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٨؛ نفسه، ق ٢، مج ١، ص ٢٦-٢٧؛ ابن الأبار: *الحلة السيراء*، تحقيق حسين مؤنس، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٢٤، ٢٧٠؛ نفسه، ج ٢، ص ١٩٤، ٢٤٦؛ ابن سعيد: *المغرب في حل المغرب*، تحقيق شوقي ضيف، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ج ١، ص ٢١٣؛ ابن عذاري: *بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج ٣، ط ٣، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٣٥؛ ابن أبي زرع: *الأئمـس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، دار المنصور للطباعة والوراقـة، الـرباط، ١٩٧٢م، ص ٩٤؛ ابن الخطيب: *الإحاطة في أخبار غـرانـاطـة*، تحقيق محمد عبدالله عـنـان، ط ٢، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٣م، مج ١، ص ٤٥٧.

والصلب ل كامل الجسد^(١)، والطواف بالأجساد والجثث^(٢) والذبح^(٣) والسلخ^(٤)، ويترا
الأعضاء^(٥)، وجز شعر الرأس وحلق اللحية^(٦)، وإحراق الجسد بالنار^(٧)، والتسلط على القبور

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٧٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٢٩٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤، تحقيق إحسان عباس، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٧٥-٧٤؛ نفسه، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تارويت وأخرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص ٥١؛ ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب، ص ١٩٤، ١٩٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٠.

(٢) ابن بسام: النخبة، ق ١، مج ١، ص ٤٥؛ نفسه، ق ٣، مج ١، ص ٥٢٥-٥٢٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٧٣؛ نفسه، قسم الموحدين، ص ٤١؛ ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب، ص ٢٦٠-٢٦١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٧٣؛ نفسه، النخبة السنوية في تاريخ الدولة المرinية، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١١٧؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٨٦-٤٨٧؛ نفسه، ج ٣، ص ٥١٧؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والجم والبيرر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ٦، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٥٥-١٥٤؛ الحميري: الروض المعارض في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٧٥؛ الوشريسي: المعيار المغربي والجامع المغربي عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨١م، ج ١، ص ٢٢.

(٣) للمزيد انظر القاضى عياض: ترتيب المدارك وتقرير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج ٧، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢م، ص ١١١؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٠٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٩٥؛ التجانى: رحلة التجانى، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٨١م، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤) كان ابن مرذيش عندهما اشتنت عليه الأمور في الأندلس، يعذب علي الأموال، ويرتكب في شأن تحصيلها القبائح، فيسلخ الوجوه، وينفخ في الأبار. ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٢٥١.

(٥) ابن بسام: النخبة، ق ١، مج ١، ص ٤٦؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١١٥، ٢٠٧؛ ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص ٣٤٨-٣٤٧؛ التجانى: رحلة التجانى، ص ٢١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٢٥.

(٦) ابن بسام: النخبة، ق ٤، مج ١، ص ١٢٤؛ ابن سعيد: المغرب في حل المغارب، ج ١، ص ١٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤، ص ٧٦؛ قسم الموحدين، ص ٥٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٥٦؛ Vincent Lagardere: Histoire et Societe en Occident Musulman Au Moyen Age, Madrid, 1995, P.53.

(٧) ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب، ص ١٩٠، ١١٣؛ ابن أبي زرع: النخبة السنوية، ص ٣٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيما بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، ط ٢، دار المكشف، بيروت، ١٩٥٦م، ق ٢، ص ٢٦٣، ٢٣٩؛ ابن غازى: الروض المحتون في أخبار مكناة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٠.

القبور ببنشها وإحراق ما بها^(١) إمعاناً في التشفى والانتقام من الخصوم، وغير ذلك من مظاهر المثلة والتشهير التي ارتكبت بحق المعارضين والمناوئين بهدف إدخال الرعب في نفوسهم وإثارة الخوف والهلع لديهم، وإبراز قوة السلطة التي اتسمت آنذاك بطابع الاستبداد^(٢)، حيث كانت القسوة سمة الفترة وطابع العصر الوسيط في الغرب الإسلامي.

أما العامل الثاني في بروز ظاهرة نبش القبور، فهو الصراع الدائر بين أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة سواء في المغرب أو الأندلس، عندما اتخذت القوى السياسية وكذلك الفرق الإسلامية المختلفة من الخلافات المذهبية ذريعة لاتهم بعضهم بعضًا بالزنقة والكفر، مما يساعده استحلال القتل وارتكاب المحرمات، فالدولة العامرة مثلاً، أشعلت حرباً لا هوادة فيها على الفكر المستثير، فطاردت الفلاسفة وبعض الشعراء، وضيق الخناق على الفكر العقلي^(٣)، لأن الكتب الفلسفية والكلامية تُعد من الكتب المذمومة بالأندلس، وتؤدي ب أصحابها إلى التكيل والقتل. فكل العلوم عند الأندلسيين ذات حظ واعتناء إلا الفلسفة والتجريم، اللذين يلصقان ب أصحابهما لقب زنديق، فيلحق ويقتل وتحرق كتبه ومصنفاته؛ حيث يقول المقري: " وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتجريم، فإن لها حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتجريم، أطلق عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان؛ تقريباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت"^(٤).

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٤٤؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوات فاس الكبير، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٦٢-٦٣؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٣) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٠٧.

(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مج ١، ص ٢٢١.



ولما كان المذهب المالكي هو المذهب المعترف به رسمياً في الأندلس، فإن الفقهاء المالكين كانوا يقومون باضطهاد كل من يتبع مذهباً فقهياً يخالف مذهبهم، بل ربما اتهموه بالزنقة، فهم "لا يعرفون إلا كتاب الله، وموطأ مالك فإن ظهروا على حنفي أو شافعى نفوه، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى أو نحوهما ر بما قتلوا"^(١).

وفي بلاد المغرب، لم يسلم الفاطميون الشيعة من هذا المسوغ، حيث أدرجهم أهل السنة ضمن الأعداء الكافرين، فخصصوا مؤلفات لـ "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد"^(٢)، وهناك من أفتى بأن "جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الكفر"^(٣)، وهناك من صنفهم في إحدى مقاماته علي أنهم "الكفرة المارقون .. أبان فيها كفرهم وزندقتهم"^(٤)، بل وصل الأمر إلى حد نعتهم بـ "الإلحاد المارقين عن الدين إخوان الشياطين"^(٥)، الذين يستحل "انتهاك حرماتهم واستحلال محارمهم"^(٦).

وعلي كل حال، لقيت هذه الفتاوي الفقهية ترحيباً واسعاً من جانب القوى السياسية، مادامت تضفي مشروعية مطلوبة على أفعالهم الشنيعة تجاه خصومهم ومناوئيهم، ففي القيروان وخلال القرن الثالث الهجري/ الناسع الميلادي، وبسبب الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة، تعرض أبو إسحاق بن البردون، وأبو بكر بن هذيل للضرب والتكميل والقتل، ثم ربطت أجسامهما بالحبال، وجرتهما البغال مكتشوفين، ثم صلبا نحو ثلاثة أيام ثم أنزلوا ودفنا^(٧). وفي إفريقية، ومع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادي، قتل الشيعة

(١) المقسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٣٦.

(٢) ابن عليون: التذكرة في ملوك طرابلس وما كان بها من الآخيار، تحقيق الطاهر أحمد، طرابلس، ١٩٦٧م، ص ٢٥.

(٣) عياض: ترتيب المدارك، ج ٤، ص ٣٧٦.

(٤) المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقيته، ج ٢، تحقيق بشير البخش، مراجعة محمد العروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص ٧٥.

(٥) ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ١٨٠.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج ٥، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (د.ت)، ص ١١٨-١١٩.

الشيعة حيث وجدوا وأحرقوا بالنار^(١). وقد تطور الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك كما سنرى لاحقاً.

وكانت تهمة الزندقة إذا لحقت بالمرء عرضت دينه للنقد، وعندئذ لا يسلم من البطش والملحقة، فالفقهاء المالكية لم يتورعوا عن إلصاق تهمة الزندقة والكفر بالمرء عند أولئك بادرة منه للتكير الحر، ومن الذين رموا بالزنقة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، الذي كان هدفاً للمكائد والوشایات والتهم بالطعن في العقيدة، وانتهى الحال بنكتبه بعد أن قبض عليه بفاس التي التجأ إليها، بعد أن حُكم عليه في غرناطة بتهمة الزندقة، فقتل بسجنه على يد خصومه، الذين لم يتورعوا عن نبش قبره وإحرار جثته بالنار^(٢).

نخلص من خلال هذا العرض إلى القول بأن قوى الغرب الإسلامي السياسية اعتبرت أعداءها ومناوئيها كفاراً، يجوز إذلالهم والتکيل بهم، واستباحة قبورهم والسلط عليها بالنبش والتخييب حتى بعد مغادرة الحياة، ومن خلال هذه الدراسة سنحاول أن نميّز اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت - ولا تزال - غامضة في هذا الشأن.

(١) مظاهر نبش القبور في الغرب الإسلامي:

كان من الطبيعي أن يعرف مجتمع الغرب الإسلامي كمثيله في المشرق الإسلامي ظاهرة نبش القبور وتخييبها عبر تاريخه الطويل، وهذه الظاهرة على وجه الخصوص جديرة بالبحث والدراسة، لتشعب مناخيها وشموليها على مجالات جغرافية متعددة، وإنضوائها تحت كيانات سياسية ومذهبية مختلفة، فضلاً عن الطابع العسكري الذي غلف تاريخ الغرب الإسلامي بغلاف دموي. لذلك سوف نعمل خلال هذه الدراسة على إبراز حوادث نبش القبور في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال استحضار مجالى المغرب والأندلس، مع مراعاة الترتيب التاريخي والزماني للعصور المختلفة.

(١) التجانى: رحلة التجانى، ص ٢٦٥، الهدى روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقيا في عهد بنى زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، نقله إلى العربية حماد الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١، ص ١٨١.

(٢) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص ٦٣-٦٢؛ المقري: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

ففي بلاد المغرب، وخلال العهد الفاطمي، الذي شهد احتدام الصراع المذهبى بشكل كبير بين المعز لدين الله^(١) الشيعي وبين أهل السنة بالقيروان، حيث لم تلق سياسته - رغم مقدرته في المداراة والمداهنة - قبولاً لدى أهل السنة ومشيخة القيروان الذين ظلوا على عدائهم للفاطميين الشيعة، يحثون الناس على بغضهم والكفر بمذهبهم وعدم الرضوخ لهم، ولم يرهبهم ما تعرضوا له من بطش وأذى على أيدي الفاطميين الشيعة^(٢).

وبلغ من عداء المعز لأهل السنة أن أمر بن بش قبر عقبة بن نافع^(٣) وإحرق بقاياه بالنار، وبعث لأداء هذا الفعل الشنيع خمسمائة من الشيعة ما بين فارس ورجل، توجهوا

(١) المعز لدين الله: هو أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي، ولد بالمهديّة في ١١ رمضان سنة ٩٣٢/٥٣١٩، ولـ أمر الدولة الفاطمية بعد وفاة أبيه سنة ٩٤١/٥٣٤. وكان عمره وقتها ٢٤ عاماً. كان يتطلع إلى غزو الديار المصرية منذ اليوم الأول لخلافته، فكان له ما أراد على يد قائد جيوشه جوهر الصقلي بكل سهولة ويسر سنة ٩٦٩/٥٣٥، توفي بالقاهرة المنسوبة إليه في ربيع الأول سنة ٩٧٦/٥٣٦٥، بعد أن دامت ولايته ٢٣ سنة. ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، دراسة وتحقيق التهامي نقرة عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١، ص ٨٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢١، ٢٢٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيما يوحي قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، ق ٣، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٤٨-٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ج ١، ص ٥٩٩.

(٢) يدل على شدة مقاومة البربر للفاطميين ورفضهم لهم كتاب ورد إلى المعز من صافي الراكيكي عامله على قصر الأفريقي يذكر له فيه تناصر البربر عليه وتخريبيهم لمنطقته، وأنه خائف على نفسه من الهلاك. جونز: سيرة الأستاذ جونز، ص ٩٣.

(٣) عقبة بن نافع: كان من خيار الولادة، قدر له اكتساب بلاد المغرب حتى أقصاه، ولد في أوائل الهجرة النبوية، وتولى إمارة جيش إفريقية مرتين: الأولى من سنة (٥٠-٦٧٠/٥٥٥-٦٧٤)، والثانية من (٦٠-٦٨٤/٥٦٤-٦٨٤) وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد، اشتهرت ولايته الأولى بتأسيس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية لجيوشه سنة ٦٧٠/٥٥٠، ومنذ تأسيس هذه المدينة اتخذت العمليات العسكرية في المغرب طابعاً ثابتاً مستقراً، إذ كانت هذه العمليات من قبل مجرد غارات تقوم بها القوات الإسلامية ثم تعود بعدها إلى برقة أو مصر دون أن يكون هناك أثر ملموس يدل على معنى الفتح والاستقرار. أما ولایة عقبة الثانية فقد اشتهرت - بعد تأسيسه لمدينة القيروان كنقطة ارتياز عسكرية - بحملته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي في أقصى المغرب. ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبد الله أنس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٥٤-٦٠؛ البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت.)، ص ٧٣-٧٤؛ ابن الأبار: حلة السيراء، ج ٢، ص ٣٢٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٨، ٢٩، ٣٠.

ج米عاً إلى قبر عقبة بن نافع بمنطقة تهودة^(١) لتنفيذ ما أمرهم به المعز. وكان سبب نبش قبر عقبة بن نافع أن المعز أراد تحريف قبلة مسجد القิروان سنة ٩٥٦/٥٣٤٥، وهي قبلة التي كان عقبة قد قام بتوجيهها وتعيينها حين بني مسجد القิروان، فتذمر أهل القิروان من ذلك، وقالوا: إن الله عز وجل يمنع المعز من تحريفها بدعاه عقبة بن نافع الذي توجه إلى الله به وقت تأسيسه جامع القิروان، فلما دنوا من قبره وحاولوا نبشه كما أمرهم المعز "هبت ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة وقوعت رعد قاصفة كانت تهلكهم، فانصرفوا ولم يعرضوا له"^(٢)، ويقال: إن هؤلاء الشيعة خافوا من العودة إلى المعز خشية أن يتكل بهم بعد إخفاقة في مهمتهم، فتاهوا في صحراء إفريقيا حتى سمعوا أنه هلك، فحينئذ أتوا إلى أوطانهم معتبرين مستبصرين^(٣).

وفي نهاية حصر الخلافة الأموية في الأندلس، وتحديداً في عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد بن الحكم^(٤)، يسرد لنا صاحب النكارة^(٥) الأسلوب المستعمل في قتل هذا الخليفة ونبش

(١) في أثناء عودة عقبة بن نافع من المغرب الأقصى بلغته فيما يبدو أخبار مقلقة جعلته يبعث بمعظم جيشه إلى القิروان ويستقي معه عدداً قليلاً من جنوده، فاعتتم كليلة زعيم البرير الفرصة كي ينتقم من عقبة الذي أساء معاملته، فهاجمه عند بلدة تهودة في أرض الزياب، حيث دارت معركة غير متكافئة من الناحية العددية استشهد فيها عقبة وأصحابه الذين بلغ عددهم زهاء ثلاثة من كبار الصحابة، ودفنوا هناك. ابن خالدون: العبر، ج ٦، ص ١٤٦ - ١٤٧؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج ١، ص ٣٩.

(٢) البكري: المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط ٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكم، تونس، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٧٤٢ - ٧٤٣؛ نفسه، المغرب، ص ٧٤.

(٣) مؤلف مراكشي مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦، ص ١١٤.

(٤) هشام بن الحكم: ولد بقرطبة سنة ٩٣٤/٥٣٥، وكان والده الخليفة الحكم المستنصر يتطلع إلى أن يلي عهده بعد أن تقدمت به السنون، فنشأ هشام كبقية أبناء بني أمية في جو قربة وضاحيتها الزهراء الحفلة بفنون المتعة والرفاهية، وتعلق به والده الحكم؛ لأنَّه لم يعش له من الولد غيره، فاختار له أفضل المؤيدين من الذين كانت ترثى بهم قربة، وكان يبلغ من العمر عند موته أبيه الحكم الثانية عشرة، فويوم بالخلافة يوم الإثنين ٣ صفر ٩٧٦/٥٣٦٦، فحكم الأندلس محجوراً عليه تحت ظل العماريين. ابن حيان: المقبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٢٠٦؛ ابن سعيد: المغرب في حل المغارب، ج ١، ص ١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٤٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٤٣ ، ٤٤.

(٥) ابن بسام: النكارة في محسن أهل الجزيرة، مج ١، ق ١، ص ٤١ - ٤٢.

قبره علي يد خصمه وعدوه علي بن حمود^(١)، الذي كان يبحث عنه أشد البحث بعد دخوله قصر الخلافة بقرطبة، فذكروا له أنه قتل وعندما "عرض عليه قبره، أمر علي بن بشة، فأخرج الشخص، وشهد أنه هشام .. وما كان في جسده شيء من أثر السلاح، فتوهم فيه الخنق، وأمر علي بتجهيزه إلى أهله، وأنذر طبقات الناس للصلوة عليه، فدفن لزيق أبيه الحكم".

في حين يرى ابن الأثير أن الخليفة هشام المؤيد لم يُقتل، بل خُلع علي يد محمد بن هشام بن عبد الجبار^(٢) بعد أن حكم البلاد ثلاثة وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام^(٣)؛ حيث أخفاه ابن عبد الجبار عن أعين الناس لفترة من الوقت ليخلو له الطريق نحو الحكم، وتصادف أن مات في تلك الفترة نصراني، والبعض يقول يهودي، يشبه المؤيد إلى حد كبير، فأبزرته ابن عبد الجبار للناس، وذكر لهم أنه المؤيد هشام، فلم يشكوا في موته، وصلوا عليه ودفنه في مقابر المسلمين، وكان ذلك في ٢٨ شعبان سنة ٤٩٩ هـ / ١٠٠٩ م^(٤).

ويتفق ابن عاصم مع ابن الأثير فيما ذهب إليه بشأن مصير الخليفة هشام المؤيد^(٥)، عندما قرر أن "الذي صلب كان غير جثمان الذي طلب، وذلك الرأس الذي طيف به علانية

(١) علي بن حمود: مؤسس الدولة الحموية في الأندلس، بعد انفراط الخلافة القرطية بها سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، ومقتل سليمان بن الحكم الأموي، حيث بايعه الناس وتلقب بلقب المتكفل على الله، وقتل علي يد غلامه الصقالبة في ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م، وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٠٠، ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢٦؛ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط ١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩ م، ص ٤٩-٥٠.

(٢) ابن عبد الجبار: كان شاباً مغامراً من شباب بنى أمية الأندلسين، قاد بعض شباب بنى أمية للانقلاب على العاربيين، فبِرَّ مؤامرة لخلع عبد الرحمن شجول من الإمارة بقرطبة، مستغلًا في ذلك خروجه من قرطبة لقتال النصارى، وبالفعل نجح ابن عبد الجبار في تنفيذ ما سعى إليه هو وأصحابه، عندما تمكنا من اقتحام قصر قرطبة، وقتل صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر، فبايع محمد بن عبد الجبار لنفسه بالإمارة وبایعه أصحابه، واتخذ لنفسه لقب المهدي، وأرغم هشام المؤيد على التنازل له بعد أن مكث في منصب الخلافة ٣٣ سنة. كان ذلك في ١٧ جمادى الأولى سنة ٤٩٩ هـ / ١٠٠٩ م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٧٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط ١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٣ م، ص ٢٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٣٧٠.

(٥) عاد الخليفة الأموي هشام المؤيد وتولى الخلافة ثانية في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م. (ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠١-١٠٠)، ثم خُلع ثانية سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م. (نفسه والجزء، ص ١١٣)، وبعد ذلك غاب عن الناس خبره واختلف في أمر مصيره. ابن عذاري: البيان، ج ٣، ص ١١٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، مج ٥، ص ٢٢.

كان غير رأسه، ومن قال: إنه كان، فهو عندهم كاذب لا محالة، ويزعمون أن ذلك الذي قتل هو رجل كان يشبهه، فشبهه لهم به، وليس هو..^(١)، وسواء صحت روایة نبش قبر الخليفة الأموي هشام المؤيد، أو أن الذي تم نبش قبره شخص آخر يشبهه، فإن أحادثها تومئ بشيوع هذا النوع من الجرائم في الأندلس.

وخلال عهد الدولة العاميرية في الأندلس، لم نعثر على إشارات تقييد بشيوع ظاهرة نبش القبور خلال هذا العصر، إلا أننا عثنا في المقابل على إشارة في غاية الأهمية عن قيام المنصور بن أبي عامر^(٢) بحماية قبر أحد القديسين النصارى من التخريب والنبش خلال غزوته على ناحية شانت ياقب^(٣) Santiago في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٧م، التي تمثل أكثر الأماكن قسيمة لدى النصارى؛ إذ كانت تلك الناحية مستقرًا لكنيسة شانت ياقوب مركز أسبانيا النصرانية، ومزارها المقدس ورمز علاقتها الروحية، وكان لشانت ياقوب مكانة مميزة لدى الأسبان؛ إذ كانت منزلتها عندهم تأتي بعد القدس وروما^(٤).

(١) ابن عاصم: جنة الرضا في التسلیم لما قرر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع والنشر، عمان،الأردن، ١٩٨٩م، مج ١، ص ١٨١.

(٢) المنصور بن أبي عامر: استقره الخليفة الحكم المستنصر ولده هشام، فترقى أمره حتى بلغ ما بلغ من الجاه والسلطان، وصارت الدولة والعرش والقصر وال الخليفة الصبي وأم الخليفة، كل هؤلاء طوع بمنيه. اتخذ لنفسه لقب الملك، وأصدر أوامره بأن يخاطب بالملك المنصور، فقام "بتغيير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إثابة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوط بأخشن دياسة؛ فانتقمت له الممالك". ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص ٣٠. كانت حياته نشاطاً متواصلاً دام خمساً وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوماً، قضتها كلها في جهاد النصارى المتاخمين لحدوده، ورغم اشتداد وطأة المرض عليه إلا أنه استمر في قيادة جنده طيلة أربعة عشر يوماً، حتى فاضت روحه بمدينة سالم في ٢٧ رمضان سنة ٩٣٩هـ/١٠٠٢م. ابن بسام: النخبة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤، مج ١، ص ٧٣-٧٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٩٣؛ المراكشي: المعجب، ص ٣٨-٣٩؛ المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٤٠٢، ٤٠٠.

(٣) كنيسة عظيمة، تقع في ثغور ماردة، وهي مبنية على جسد يعقوب الواري، يذكرون أنه قُتل في بيت المقدس، فوضعه تلامذته في مركب، فجرى به المركب في البحر الشامي، إلى أن خرج به إلى البحر المتوسط، حتى انتهى به إلى موضع الكنيسة، فبنيت الكنيسة عليه وسميت باسمه، يقصدها الناس من بلاد الفرنجة وروما والقدسية في يوم معروف جعل عيده لها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٤٨.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٤٨؛ المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٤١٤-٤١٥؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الخلقة الأموية والدولة العاميرية، ص ٥٥٩ - ٥٦١.

وقد احتلت كنيسة شانت ياقب تلك المكانة لوجود قبر بها يزعمون أنه قبر الحواري يعقوب أحد حواري عيسى عليه السلام، والذي كان أسقفاً لبيت المقدس، وقد خرج من القدس ليبشر بدين المسيح، حتى وصل هذه البقعة، ولما مات بعد عودته إلى بلاد الشام حمل أصحابه جثته ودفنوها بهذه الكنيسة، وسميت الكنيسة باسمه سانت يعقوب؛ وتقديساً له حفظ النصاري باسمه وكانوا يحجون إليه ويعتكفون عنده^(١).

حرص المنصور بن أبي عامر في هذه الغزوة على الوصول إلى كنيسة شانت ياقب لتحطيم الأسطورة الحربية لشانت ياقب المزعوم، وطعن الأسبان في صميم زعامتهم الدينية. إذ كان المعتقد لدى النصارى الأسبان أن شانت ياقب يخرج للمحاربين علي هيئة ملاك بيده سيف ويمتطي فرساً أبيض ثم يأخذ في معاونتهم علي قتال المسلمين إلي أن يتحقق لهم النصر، لدرجة أنهم أطلقوا عليه Matamoros أي قاتل المسلمين^(٢). والمهم في هذه الرواية أن المنصور بن أبي عامر عندما اقتحم شانت ياقب بالقرة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمي لم يتعرض لقبر القديس شانت ياقب بأية أذى، لأنه من الحواريين، بل أنه وكل به من يحفظه ويدفع الأذى عنه، باعتباره مكاناً له قدسيته عند النصارى^(٣)؛ وخوفاً من تخريب القبر أو نبوشه، وهي واقعة تبين بجلاء مدى التسامح الديني السائد في الأندلس آنذاك.

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢-٥٤٨٤ هـ ١٠٣١ م)، وهو العهد الذي اتسم بالتفكك والانقسام السياسي، وتقاسم الصراع الداخلي بين ملوك هذه الدوليات، واستتصار بعضهم بقوى النصرانية علي بعضهم الآخر، ومحاولة كل منها الاستيلاء علي إمارة جاره، لم يسلم الوزراء الذين خاضوا في الصراعات السياسية آنذاك من نبش قبورهم بعد رحيلهم، فقد تعرض وزير دولية ومدير سلطانها أحمد بن عباس للتكميل والإذلال والسجن وحز الرأس، والسلطان علي قبره بالنبوش والتخريب بإيعاز من خصمه ملك غرناطة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق، ٢، ص ٦٧.

(٢) أحمد مختار العادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص ٢٣٢.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق، ٢، ص ٦٧؛ المقري: نفح الطيب، ج، ١، ص ٤١٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعرفة، لبنان، ١٩٦٣م، ص ٣٣٢.

باديس بن حبوس^(١)، بسبب معارضته لقاء الوزير اليهودي إسماعيل بن نخلة^(٢) على رأس حكومة غرناطة.

ويرجع سبب تحامل ابن عباس علي باديس إلي أن ابن عباس عربي يكره البربر ويحقر اليهود، فتحامل علي باديس وامتعض من سيده زهير لتحالفه مع ذلك البريري الذي استوزر يهودياً^(٣)، وكان ابن عباس هذا قد أرسل رسائله من قبل إلي حبوس بن ماكس والد باديس، وكذلك إلي رؤساء قبيلة صنهاجة التي ينتهي إليها حبوس يطلب منها فيها إبعاد

(١) باديس بن حبوس: يكنى أبا مناد، ولـي عرش غرناطة بعد موت أبيه، وتنازل شقيقه الأصغر بلقين له، وبمساعدة وزير أبيه إسماعيل بن نخلة، حكم غرناطة وما حولها في الفترة من ٤٢٩-٤٦٧هـ / ١٠٣٧-١٠٧٤ م. للزيد انظر الشتريني: النخبة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) إسماعيل بن يوسف بن نخلة: ولـد في قرطبة في ربيع سنة ٩٩٣هـ / ٥٣٨٣ م، حيث تلقى تعليمه التلمودي بها، درس النحو حتى أصبح متـكـناً من الأدب العربي والـعـبرـي، وأصبح قـارـئـاً على نظمـ الشـعـرـ بالـعـربـيـةـ وـالـعـبـرـيـةـ، انتقل بعد ذلك للاستقرار في مـالـقـةـ سنـةـ ٤٠٤هـ / ١٠١٣ مـ، وـكـانـ يـكتـسـبـ رـزـقـهـ مـنـ بـيعـ التـوـابـ، وـفـيـ أحـدـ الـأـيـامـ طـلـبـتـ مـنـهـ جـارـيـةـ أـنـ يـكـتـبـ لـهـ خـطـابـاًـ تـرـفـعـهـ إـلـيـ أـمـيرـ غـرـنـاطـةـ حـبـوـسـ بـنـ مـاـكـسـ، فـكـتـبـ لـهـ، وـعـنـدـماـ وـصـلـ الـخـطـابـ إـلـيـ وـزـيـرـ حـبـوـسـ أـبـيـ العـبـاسـ بـنـ الـعـرـيفـ، أـعـجـبـ بـالـأـسـلـوبـ الـذـيـ كـتـبـ بـهـ الـخـطـابـ، وـسـأـلـ عـنـ كـاتـبـهـ، وـعـرـفـ أـنـ إـسـمـاعـيلـ بـنـ نـخـلـةـ الـيـهـودـيـ، فـقـابـلـهـ الـوـزـيـرـ أـبـيـ العـبـاسـ، وـعـرـضـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـمـلـ مـعـهـ فـيـ خـدـمـةـ أـمـيرـ غـرـنـاطـةـ حـبـوـسـ، فـوـافـقـ إـسـمـاعـيلـ وـرـحـلـ مـعـهـ إـلـيـ غـرـنـاطـةـ، حـيـثـ عـيـنـهـ الـوـزـيـرـ جـاـيـاـ لـأـمـوـالـ الـمـلـكـةـ، فـجـنـيـ إـسـمـاعـيلـ أـمـوـالـ طـائـلـةـ مـنـ هـذـهـ الـوـظـيـفـةـ، وـعـنـدـمـاـ تـوـفـيـ الـوـزـيـرـ أـبـيـ العـبـاسـ، اسـتـغـلـ إـسـمـاعـيلـ ذـلـكـ وـظـلـ يـتـقـرـبـ مـنـ أـمـيرـ غـرـنـاطـةـ حـبـوـسـ، وـيـظـهـرـ بـدـهـاءـ خـيـرـتـهـ وـقـدـرـتـهـ، إـلـيـ أـنـ أـصـدـرـ حـبـوـسـ أـمـراـ بـتـعـيـنـ إـسـمـاعـيلـ مـسـتـشـارـاـ لـهـ وـوـزـيـرـ أـوـلـ لـمـلـكـتـهـ لـعـدـمـ تـقـهـ فـيـ الـعـربـ وـالـبـرـبرـ، وـأـصـبـحـ اـبـنـ نـخـلـةـ بـنـلـكـ أـوـلـ يـهـودـيـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ يـقـلـدـ مـنـصـبـ الـوـزـرـةـ، وـتـوـفـيـ سنـةـ ٤٤٨هـ / ١٠٥٦ مـ فـحـزـنـ لـمـوـتـهـ يـهـودـيـ الـأـنـدـلـسـ وـيـهـودـ الـخـارـجـ. اـبـنـ بـلـكـينـ: مـذـكـرـاتـ الـأـمـيرـ عـبـدـ اللهـ آخـرـ مـلـوكـ بـنـيـ زـيـرـيـ بـغـرـنـاطـةـ الـمـسـمـاـةـ بـكـتـابـ التـبـيـانـ، نـشـرـ وـتـحـقـيقـ إـلـيـ بـرـوـفـسـالـ، دـارـ الـمـعـارـفـ، الـقـاهـرـةـ، ١٩٥٥ـ مـ، صـ ٣٠ـ ٣١ـ؛ ابنـ عـذـاريـ: الـبـيـانـ، جـ ٣ـ، صـ ٢٦٤ـ ٢٦٥ـ؛ ابنـ الخطـيبـ: الـإـحـاطـةـ، جـ ١ـ، صـ ٤٣٨ـ ٤٣٩ـ؛ محمدـ بـحـرـ عبدـ المـحـيدـ: الـيـهـودـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ، الـقـاهـرـةـ، ١٩٩٢ـ مـ، صـ ٣٩ـ.

Ashtor, Eliyahu: The Jews of Moslem Spain, Vol 1, 1979, P.391; Ashtor,: The Jews, Vol 2,P.52, 56-58; Gonzalo Maeso, David,: Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963, P. 75.

(٣) دوزي: ملوك الطوائف ونظارات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ م ص ٢٨؛ محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١ م، ص ١١١.

الوزير اليهودي ابن نغدله^(١) من حكومة غرناطة، مبيناً لهم مدى فداحة الجرم الذي يرتكبونه ببقاء هذا اليهودي في منصبه، مذكراً إياهم بأنه أصل الشر في المملكة^(٢).

ورغم تلك المحاولات، لم يلق طلب وزير المرية ابن عباس أي استجابة من حبس ولا رؤساء صنهاجة، بسبب ما كان لهذا اليهودي من خصال وصفات^(٣) جعلت حبس وابنه باديس يتمسكون به رغم إهانته لدينهم، عندما "جاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام"^(٤)، بل تعدي الأمر ذلك، عندما صار البعض من المسلمين ينافقونه، خوفاً من سطوه "حتى كان يغسل يده من القبل، ويُتمدح بالطعن على الملل"^(٥)، كما أن دولتهم تعرضت لمقاطعة

(١) إشارت إليه المصادر الإسلامية باسمه العربي الذي عرف به بين المسلمين، إذ كان من عادة النصارى واليهود في الأندلس أن يحملوا أسماءً عربيةً إلى جانب اسمهم الذي يعرفون به بين أقرانهم. وظهر الاختلاف واضحاً بين المصادر الإسلامية في ضبط اسمه، فابن بسام ينته بـ"إسماعيل بن النغريلي" (الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦١). وصاعد الأندلسي = يذكره باسم "إسماعيل بن الغزال". (طبقات الأئم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م، ص ٩٠). وأبن سعيد الأندلسي ذكره باسم "إسماعيل بن نغرل" (المغرب في حل المغرب، ج ٢، ص ١١٤). وأبن عذاري يقول "إسماعيل بن نغرلة". (البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦١). ويشير إليه ابن الخطيب بـ"إسماعيل بن نغرلة" (أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣٠). في حين يسميه المقرى بـ"إسماعيل بن نغدلة" (فتح الطيب، مج ٤، ص ٤٢٢)، وهي التسمية الأقرب إلى الصواب؛ لأن اللقب الذي أطلقه إسماعيل علي نفسه هو "تاغيد"، ويعنى بالعبرية الحكم أو المدير أو الأمير. ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦٧؛ أبن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٣، ص ٨ من مقدمة المحقق.

ولقب "نغلة" الذي أورده المقرى استقر عليه كل من ذويه وأنخل بالثنيا. ملوك الطوائف، ص ٣٩؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٥.

(٢) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.70-71.

(٣) كان في "اليهودي من الكيس والمداراة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله (حبس) لذاك استيحاشَا من غيره .. ولأن هذا اليهودي ذمي، لا تشرف نفسه إلى ولاته". الأمير عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣١. ويصفه ابن الخطيب نقلاً عن ابن حيان بقوله "وكان هذا اللعين في ذاته، على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمـل الرجال عـلماً وحـقـماً وفـهـماً وذـكـاءً وـدـهـاءً ومـكـراً .. وـعـرـفـةـ بـزـمـانـهـ، وـمـدـارـةـ لـعـوـهـ، وـاسـتـسـلـالـ لـحـقـودـهـ بـحـلـمـهـ". الإـحـاطـةـ، ج ١، ص ٤٣٨. وأغلب الظن أن ذلك الصفات هي التي ساعدت صاحبها على أن يستحوذ على عقل وإحساس كل من حبس واباديس.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦٦.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة.

خلفها بسبب هذا اليهودي، وإزاء هذا التعتن قام الوزير أحمد بن عباس بإيغار صدر أميره علي باديس، وتمكن من الواقعية بينهما، عندما اقنع أميره زهير بإلغاء الحلف الذي كان بين المريية وغرناطة، فألغى الحلف الذي كان في غاية الأهمية لغرناطة، الإمارة الصغيرة التي تتعرض لأطماع الإمارات المجاورة لها^(١). كما وجه وزير المريية ضربة أخرى لغرناطة، عندما أوعز إلى أميره زهير بعدد معايدة صداقة مع صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالي الذي يعود بنسبة إلى قبيلة زناتة المنافسة لصنهاجة^(٢).

ولعل سبب تمسك الأمير باديس بابن النغلة اليهودي، هو الدور الكبير الذي قام به هذا الوزير من أجل تولية باديس عرش غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس سنة ٥٤٠ هـ / ١٠٢٦ م، حيث أسرهم في إقناع حبوس قبل وفاته بأن يعهد لباديس من بعده، كما حدث بلقين على التازل لأخيه، وأقنع من استطاع من زعماء صنهاجة بمناصرة باديس، ولذلك عندما مات حبوس، قام عدد من زعماء صنهاجة بمبایعه بلقين، لكنه رفض قبول البيعة، وأعلن أنه سيبایع لأخيه باديس حسب رغبة والده^(٣). وهكذا نجح الوزير اليهودي فيما سعي إليه، وصدق ظنه في باديس الذي قدر جهوده في خدمة والده حبوس، وفي العمل من أجل وصوله إلى عرش غرناطة، فقام بتكلفه بمنصب الوزير الأول لمملكة غرناطة^(٤).

لم يضعف هذا الأمر من عزيمة ابن عباس، الذي استمر في محاولاتة المتكررة لإيقاع باديس بالتخلي عن وزيره اليهودي، فبعث إليه برسالة يبين له فيها الإثم الكبير الذي يقترفه بتولية يهودي على رقاب المسلمين، ويؤكد أن إبعاده سيؤدي إلى إحلال السلام بين مملكتي المريية وغرناطة، وأن بقاءه سيؤزم العلاقة بين غرناطة ومن حولها من الممالك المتحالفه، إلا أن باديس لم يستجب لطلب ابن عباس ورفض إبعاد الوزير اليهودي، وأرسل قاضي غرناطة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦-٢١٧؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.71-72.

(٢) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.72.

(٣) ابن بلقين: منكريات الأمير عبدالله، ص ٣٤؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص ٢٨؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.72.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٨؛ أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣٠.

إلى زهير صاحب المرية ليقنعه بتجديد معايدة التحالف بين إمارتيهما، لكن زهير رفض طلبه^(١).

وفي شوال من سنة ٥٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م حل زهير فجأةً دون سابق إنذار على أرض مملكة غرناطة ومعه وزيره ابن عباس وفرقة من جيشه وعسكر على مقربة من باب مدينة غرناطة، دون أي مراعاة للقواعد والمراسيم المعهود بها في الزيارات أو عند الالتقاء بين إمارات الطوائف^(٢)، وكان زهير يهدف من زيارته تلك إلى إهانة باديس وإخافته^(٣)؛ حيث أقبل ضارياً سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده .. حتى وصل إلى باب غرناطة^(٤).

كان من الطبيعي أن يستثير هذا التصرف المشين غضب وكراهيّة باديس، ولكنه رغم كل هذا، أخفى امتعاضه من هذا التصرف، واستقبل زهير بكل حفاوة وترحاب، ولم يظهر له شيئاً من غضبه. وفي غرناطة دارت بينهم عدة مفاوضات باعت بالفشل^(٥)؛ بسبب تشدد موقف زهير ووزيره ابن عباس؛ حيث كان المطلب الوحيد لهم، هو إزاحة الوزير اليهودي، الذي يرفض باديس أن يتخلّى عنه^(٦)، ورغم ذلك لم ييأس باديس الذي أرسل أخاه بلقين رسولاً من قبله إلى ابن عباس لتصفية الخلافات القائمة بين الإمارتين، فلم يجد بلقين إلا التعتن والجحود من جانب ابن عباس، الذي رد على بلقين عندما حاول أن يستعطفه باكيًا ومعانقاً^(٧) "وفر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة، فإنها لا تترك أي أثر في

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P. 74.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩.

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣٢ - ٣٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P. 75; Dubnov, Semon, Markovic, :History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973, P.625 .

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٥٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٦) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.75.

(٧) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦١.

نفسى^(١). وعندما عاد بلقين إلى أخيه باديس أفضى إليه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس، فأجمعوا على محاربة زهير والإيقاع بوزيره الملعون ابن عباس.

ولما أخذ زهير في الانصراف ومن معه إلى المرية، فوجئوا بكمين أعد لهم باديس بإحكام في إحدى ممرات جبال غرناطة الضيق؛ حيث أرصد لهم الخيل في كل مضيق، ودارت عليهم الدائرة^(٢)، وخلال تلك المعركة تمكن جنود باديس من قتل حاكم المرية زهير الصقلي^(٣)، وأسر وزيره ومدبر سلطانه والغالب علي أمره ابن عباس، الذي سيق إلى سجن غرناطة، وبذل في فداء نفسه أموالاً كثيرة، كما جاء مبعوث ابن جهور صاحب قربة ليتوسط في الإفراج عنه^(٤)، لكن باديس رفض ذلك، وأمر بقتله وحز رأسه، ووريت الرأس خارج قصر الإمارة، وكان ذلك في آخر شوال ٥٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م^(٥)، متأنلاً لإثارته الفتنة، ونقم ونقم عليه أشياء كثيرة قبل ذلك، من أقاويل خشنة ومعاملات قبيحة عرفه بها^(٦)، منها أن ابن عباس هذا هو الذي دفع زهيراً إلى رفض التحالف مع باديس، وأشار عليه بضرورة غزو باديس في عقر داره^(٧)، فقد بلغ من تأثير ابن عباس على أميره زهير أنه "كان لا يحدث أمر إلا بإشارته وبعد مشاورته"^(٨)، وكان هدف ابن عباس من وراء تلك الواقعة هو التخلص من أميره زهير؛ لينفرد بحكم دولة المرية؛ لذلك سعى إلى هلاكه وحرص على زواله^(٩).

(١) دوزي: ملوك الطوائف، ص ٢٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩١.

(٣) نفسه والجزء، ص ١٧١-١٧٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٤؛ ابن عذاري: البيان، ج ٣، ص ١٧١؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص ٣١، ٣٢.

(٥) ابن بلقين: منكريات الأمير عبدالله، ص ٣٥؛ ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٤؛ ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٢٠٦؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص ٣٣.

(٦) ابن بلقين: منكريات الأمير عبدالله، ص ٣٥.

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٨) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩-١٧٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦.

وعلى كل حال، نبش قبر أحمد بن عباس في اليوم التالي لقتله بالإضافة رأسه مع جسده؛ حيث ينكر أحد الموالى أن باديس قال له: "خذ رأسه وواره مع جسده، فنبشت صداح وأضفته إلى جسده بجانب قبر أبي الفتوح - سينكر لاحقاً - قتيل باديس أيضاً، وقال لي: ضع عدواً إلى جنب عدو إلي يوم القصاص"^(١). وُعرف عن ابن عباس هذا أنه "من أشد الناس حماقة واستخفافاً، مُثيراً للشر، مؤرضاً بين الملوك؛ وكان الغالب على أمر زهير؛ إذ لم يكن زهير يصلح لشيء لغباؤه وجهله"^(٢). ولذاك سُر ابن نعذلة اليهودي كثيراً بمقتل ابن عباس^(٣).

وبالمثل، فإن مثل هذا المناخ لا يمكن إلا أن يفرز ثقافة ال欺辱 والإذلال والتكميل وارتكاب المُحرمات، فقد بُرِزَ خلال عهد باديس أيضاً ظاهرة اغتصاب الموتى في قبورهم دون مراعاة لحرمة الأموات، فقد كلام الصنهاجيون باديس بن حبوس في جثة أصحابهم المقتول مع أبي الفتوح الجرجاني^(٤)، وكان أبو الفتوح من مشجعي يدير بن حبابة ومحرضيه ومحرضيه على القيام على ابن عمه باديس^(٥)، فأمر بإسلامها إليهم، فخرجوا بها على نعش إلى المقبرة من فورهم، فأصابوا قبراً قد احتقر لميت من أهل البلد، فاغتصبوا فيه صاحبه

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٨.

(٢) ابن بلقيس: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٣٤.

(٣) Dubnov,: History of The Jews from The Roman Empire, Vol.2, P.626.

(٤) أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، ولد في بغداد سنة ٩٦٠ هـ / ٥٣٥ م حيث تلقى تعليمه، ثم هاجر إلى الأنجلترا سنة ٩٤٠ هـ / ١٠١٥ م، وعندما التحق بخدمة باديس بن حبوس تورط في شؤون السياسة، ولحقته تهمة التبيير ضد باديس مع ابن عمه يدير بن حبابة، فقبض عليه قداح عبد باديس، وحلقت رأسه، وأركبوه على بغير وخلفه عبد أسود ضخم يوالي صفعه، ثم ألقى في حبس ضيق ومعه رجل من أصحاب يدير أسر في الواقع بين باديس وإسماعيل بن عباد، فأقام في الحبس إلى أن قدم باديس وضربه بالسيف وحز رأسه في ٢٨ محرم سنة ٩٤٣ هـ / ١٠٣٩ م، وأمر باديس غلامه بضرب عنق الآخر، ودفن الجرجاني إلى جانب أحمد بن عباس. ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، مج ١، ص ١٢٤؛ ابن بشكوال: الصلة، ج ١، رقم ٢٩٣، ص ٢٠٦؛ الصوفي: الوفي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركتي مصطفى، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢٨٩؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتململة، مج ٥، س ٨، ص ٣٣٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٥٥ - ٤٥٨.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١، ص ٤٨٢؛ بال شيئاً: تاريخ الفكر الأنجلوسي، ص ١٠٧ - ١٠٨.

وصبوا صاحبهم فيه، فواروه التراب من غير غسل ولا كفن، وانطلقوا لسبيلهم، وعجب الناس من جرأة هؤلاء الصنهاجيين وتسامحهم في الاغتصاب حتى الموتى في قبورهم^(١). وباستحضار المسوغ السالف، يمكن لنا أن نفترس لماذا استحلت هذه الكيانات السياسية قتل خصومهم ومناوئيهم، بل ونبش قبورهم وانتهاك حرماتهم إمعاناً في شهوة الانتقام، طالما أن الأمر يتعلق بمصلحة القابعين على رأس الهرم السياسي.

وفي عهد بنى يفرن ملوك فاس، كانت كرامات تميم بن زيرى أمير بنى يفرن سبباً في نبش قبره بعد وفاته، حيث تشير رواية ابن أبي زرع أن هذا الأمير كان مولعاً بجهاد برغواطة، فكان يغزوهم في كل عام مرتين، فيقتل ويسيى منهم، إلى أن توفي سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م. وعندما قتل ولده في حرب لمتوترة سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م، أتوا به ليديقوه إلى جانب قبر أبيه تميم، فسمعوا من قبره تكبيراً عظيماً وتشهداً، فنبشوا قبره فوجدو لم يتغير منه شيء. وتصادف أن رأه أحد قرايته في منامه في تلك الليلة، فسألته عن هذا التكبير والشهاد الذي سمعوه عند قبره، فقال: "ملائكة وكلهم الله بقبرى يكرون وبهلوون ويسبحون ويكون أجر ذلك لي فلا يقطع لي عمل إلى يوم القيمة، فقال له : وبما ثلت ذلك وبلغت من الله تعالى هذه المنزلة حتى أكرمك هذه المكرمة؟ قال : بجهادى في الكفارة برغواطة وفعلى فيهم في كل سنة"^(٢).

إذا كانت النصوص التاريخية لا تسعفنا في رصد نماذج واضحة لظاهرة نبش القبور خلال عصر المرابطين، فإننا نتوفّر على نازلة في غاية الأهمية تبين بوضوح شيوخ تلك الظاهرة في المجتمع الأندلسى، أوردها الفقيه أبو الوليد بن رشد القرطبي^(٣)

(١) عبد الملك المراكشي: *الذيل والتكلمة*، مجلد ٥، س. ٨، ص ٣٤١.

(٢) ابن أبي زرع: *الأنيس المطرب*، ص ١١٠.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ولد في مدينة قرطبة عاصمة الحكم الأموي وقاعدة المالكية بالأندلس سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م في بيت ورث العلم والصلاح وخطة القضاء، في عهد كانت فيه الأندلس تعيش محنة قاسية، فأهلها تفرقوا فرقاً، وتغلب في كل جهة منهم متغلب، عمل كأستاذ للملكية وكرجل القضاء والمشورة، وكسياسي بارع يهتم بالأمور العامة للمسلمين وينتقل معها، وكمستشار أعلى لل بلاط المرابطي، وتوفي سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م. عبد الواحد المراكشي: *المعجب*، ص ٧٠؛ عبد الملك المراكشي: *الذيل والتكلمة* لكتابي الموصى والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة ويشار عواد معروف، ط١ ، دار الغرب الإسلامي، تونس، مجلد ١، س. ١، ٢٠١٢م، ص ٥٥٠.

(ت ١٢٦ هـ ١٥٢٠ م) الذي سُئل في نازلة عن "رجل دفن أربعة من الولد في مقبرة من مقابر المسلمين، فلما كان بعد عشرة أعوام من دفنه إِيَّاهُ غاب الرجل من البلد، فجاء الحفار، فحفر على قبور أولئك الأطفال قبْرًا لامرأة، ودفنتها فيه. ثم أَنَّ والد الأطفال جاء من سفره، بعد دفن المرأة بثلاثين يوماً، ولم يجد لقبر بنيه أثراً غير قبر المرأة، فأراد نبشها، وتحويلها إلى موضع آخر؛ ليقيم قبور بنيه على ما كان عليه، هل له ذلك أَمْ لا؟" فأجاب على ذلك بأن قال: لا يجوز أن ينشها، وينقلها عن موضعها، ولا يحل ذلك له؛ لأن حرمتها ميتة كحرمتها حية، فلا يحل له أن يكشفها ويطلع عليها، وينظر إليها ولو كان ذا محراً؛ حيث لا يسُوغ له ذلك فيها بعد هذه المدة؛ إذ لا شَكٌ في تغييرها فيها^(١).

وخلال فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، وفي محاولة للبحث في موقف القوى السياسية في المغرب والأندلس من بعضها البعض، وتجنبًا لسرد تاريخي ممل، وتقديماً لما تحفل به مصادر الفترة من حوادث العنف - يضيق المجال عن حصرها - سوف نعمل على تقديم إشارات ذات دلالة قصوى للحرب الدعائية بين المرابطين والموحدين. فقد كانت كل دولة منها ترى في الدولة القائمة وأتباعها، ليسوا خصوصاً ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفراً يجب جهادهم ومعاملتهم - وهم إخوان لهم في الدين - معاملة العدو الكافر. وهو ما ينسحب على المرابطين الذين عمّد زعيمهم عبد الله بن ياسين إلى تخميس المنهزمين أمامه^(٢)، وهو ما سيتكرر بعد ذلك مع الموحدين الذين نظروا إلى المرابطين باعتبارهم كفراً، يتبعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر جهادهم^(٣).

(١) أبي الوليد ابن رشد: مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط ٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣ م، مج ٢، ص ١٢٥٢-١٢٥٣؛ نفسه، فتاوى بن رشد، ج ٣، ص ١٤٠٦-١٤٠٧.

(٢) ابن أبي زرع الفاسي: الأنبياء المطروب، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، تحقيق وتقدير عمار الطالبي، الجزائر، ١٩٨٥ م، ص ٢٦٠؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط ١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ١١٦.

قد حمل المهدي بن تومرت عقيدته الأشعرية والتعصب المذهبى من المشرق إلى المغرب، ومن ثم تحامل الموحدون على المرابطين، وكان الفكر السياسى التومرتى مبنياً على تشريع العنف تجاههم، ومحاولة تسویغ ذلك بأدلة شرعية مزعومة؛ لأنهم من وجهة نظره "بغوا على الناس في أديانهم وأنفسهم وأموالهم"^(١)، فكانت حملة ابن تومرت على المرابطين من أعنف الحملات السياسية في التاريخ الإسلامى، فقد نعمتهم بالضلال والبغى والطغيان وابتاع الشيطان، وهي الصورة التي يريد أن يرسخها ابن تومرت عن المرابطين، يظهر ذلك واضحاً في رسالته إليهم والتي يقول فيها: "إلى القوم الذين استولهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرنمة الطاغية اللامتناوبة"^(٢)؛ رغبة منه في تشویه صورة المرابطين لدى الناس ونزع شرعیتهم؛ إذ كان الصراع الدعائی على أشدّه بين الطرفین.

كما كان موقفه من المجتمع المرابطى واضحأً تماماً، فقد اعتبر أهله مجسمين، وسوى بين قتال "أهل التجسيم الملثمين، والبرابر المفسدين"^(٣)، بل ذهب ابن تومرت إلى الحسم في مآل هؤلاء المرابطين قائلاً: " فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار" ، في حين يحث أتباعه من الموحدين ويحفزهم على جهاد المرابطين^(٤)، ويشيرهم بأن "من قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد"^(٥)؛ إذ لم يكن أمام المهدى بن تومرت - وهو يقود حرباً فعلية ودعائية لتشويه سمعة المرابطين - بد من إصياغ صفة الشرعية على حروبه ضدهم، عبر إباحة دمائهم، فقد "أباح لهم (الموحدين) جهادهم (المرابطين)"^(٦). وتحليلنا هذا الموقف لفهم الأسباب التي تجعل المسلمين يُبَشِّرون قبور بعضهم البعض في لحظات الخلاف في الرأى والتوجه السياسي والمذهبى، ويعتبرون من خالفهم كفراً مشركين.

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) مؤلف مجهول: الحل الموشية في نكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار عبد القادر زمامه، ط١، دار الرشاد الحيثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص ١١١.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص ٢٦٢.

(٤) ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب، ص ١٧٣، ١٧٥.

(٥) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص ٢٦٤.

(٦) ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب، ص ١٨١.

سبقت الإشارة إلى المسوغ الذي اعتمدته القوى السياسية، عندما اعتبرت أعداءها كفاراً، فأعطت بذلك لنفسها الحق في النظر في أمرهم، وبالتالي تقرر المصير الذي أعدته لهم، سواء بقتل الأحياء أم بنبش قبور من توفي منهم، ويقدم دخول الموحدين مدينة مراكش سنة ١٤٧هـ/١١٤١م صورة عما آل إليه أمر المرابطين وأتباعهم، فقد "باد أمر أمراء اللثام وأبيحت مراكش لقتل من وجد فيها من اللتوتينين ثلاثة أيام .."^(١)، وزيادة في الانقام والتشفى أمر عبد المؤمن "قطع رؤوس القتلى منهم .. مما يقصر عن شرحه اللسان، ولا يأتي على وصفه مبين البيان .. وأمر المدينة في كل يوم يزيد ضعفاً وأحوالها ترق".^(٢) ويبدو أن شناعة هذه الأفعال وهولها دفعت مؤرخي الدولة الموحدية إلى محاولة التخفيف من واقعها المأساوي.

وإذا كانت هذه الصورة تبدو قائمة، فإن مصير الإنسان وسطها سواء كان حياً أم ميتاً يبدو مأساوياً، ففي محاولة للبحث عن نموذج معبر من العصر الموحدي عن محاولة نبش قبور أمراء المرابطين، وعدم تورع الموحدين عن التعامل معهم بمنطق الكفار المارقين عن الدين، الذين يجوز نبش قبورهم، فإننا نصادف ما قام به عبد المؤمن بن علي^(٣) بعد دخوله مدينة مراكش من طلبه قبر أمير المسلمين علي بن يوسف، وبحثه عنه أشد البحث فأخافاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته؛ وتلك عادة الله الحُسْنَى مع الصالحين المصلحين^(٤)، مما يوحى أنه كان يرغب في نبش قبره والتمثيل بجثته، إذ كانت حملة تغفير الموحدين للمرابطين على أشدّها ولم تخمد نيرانها بعد.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨؛ البيدق: أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص ٦٦؛ مجهول: الحل الموشية، ص ٤٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨.

(٣) عبد المؤمن بن علي: خليفة ابن تومرت في إمامية الموحدون، ولد سنة ٩٥هـ/٤٨٧م، أصله من قبيلة كومية بنواحي تلمسان على ساحل البحر المتوسط، يرفع الموحدين نسبه إلى قيس عيلان، سافر في شبابه للحج وطلب العلم، فصادفه ابن تومرت وصحبه معه، فكان من أقرب الأشخاص إلى ابن تومرت، فضلاً عن كونه تلميذه النجيب، وقد يويع بالخلافة بعد وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٦هـ/١١٣٠م، وتلقب بأمير المؤمنين، وتوفى بمدينة رباط الفتح سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فحمل إلى تينمل ليدن بجوار شيخه المهدى بن تومرت. البيدق: أخبار المهدى، ص ٣٤، هامش ١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامية، تحقيق عبد الهادي التازي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٠١؛ الذهي: أعلام النساء، ج ٢٠، ص ٣٦٦.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٠٣.

ويبدو أن الأمير المراطي علي بن يوسف قد استشعر المصير المأساوي الذي يتعرض له بعد وفاته، ويحس بما تخبيه له الأيام ولدولته، حيث يرجع سبب عدم عثور "عبد المؤمن بن علي" على قبر علي بن يوسف إلى ما ذكره عباس بن إبراهيم المراكشي صاحب كتاب "الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام"، من أن علي بن يوسف قبل وفاته في رجب ١٤٣٧هـ / ١٩٥٣م، كان قد "أوصى أن يدفن بين قبور المسلمين، ولم يشهر موته إلا بعد ثلاثة أشهر من وفاته"^(١)، وفي رواية أخرى أوردها ابن عذاري يقول فيها "لما اشتد ألم علي بن يوسف بن ناسفين وزادت علتة عهد أن يدفن مع قبور عامة المسلمين، فدفن بها في جملتهم"^(٢).

ولم تكن مساجد المراطين هي الأخرى بمنأى عن مثل هذه الأفعال الشنيعة، فلم تسلم من عبث الموحدين عقب دخولهم العاصمة المراكشية، فقد عُرف عن عبد المؤمن بن علي عداوه الشديد للمراطين، ولهذا استهدف مساجدهم بالهدم والإزالة، وبنى مكانها مساجد أخرى تحمل اسمه^(٣)، ومنها مساجد مراكش التي "بقيت لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، ويأبى الموحدون دخولها؛ لأن المهدي كان يقول حتى تطهرواها فسئل الفقهاء عن ذلك، فقالوا لهم: تبنون مساجد أنتم وتتجدون أخرى ، ففعلوا ذلك"^(٤)؛ لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة، ويقول البيدق في هذا الصدد "امتنع الموحدون أن يسكنوها .. لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف .. فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وأمالتها إلى المشرق"^(٥) .

(١) العباس بن إبراهيم السعالي المراكشي: الإعلام بمن حل بمراكش وأعمالات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج٩، ص٤٧؛ مجهول: الحل الموشية، ص١٢٠.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص١٠١.

(٣) ابن المؤقت: السعادة الأنبية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفى البانى الحلى وأولاده بمصر، هـ١٣٤١، ص٧.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩ - ٣٠؛ للمزيد انظر ابن الخطيب: الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحیح السيد البشير الفوري، طبعة تونس، هـ١٣٢٩، ص١٠٨.

(٥) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص٦٦.

ومن هذه المساجد التي نالتها أيدي عبد المؤمن الموحدي بالهدم مسجد علي بن يوسف بمدينة مراكش "هدمه وأعاد بناءه لا شيء إلا لمجرد القضاء على اسم علي بن يوسف و يجعل اسمه مكانه، فذهب عمله سدى؛ لأنه لا يجري على السنة الناس إلى الآن إلا الاسم القديم جامع علي بن يوسف^(١). حاولاً بذلك طمس أي أثر يرمز إلى مجد المراطين.

وفي الأندلس وخلال عصر الموحدين، وانطلاقاً من المسوغ ذاته، تعرض بعض

القضاة الذين خاضوا في الصراعات السياسية علي عهد الموحدين لنبش قبورهم، منهم قاضي

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج ١، ص ١٢٧. يرى البيزنطي أن الموحدين لم يهدموا مسجد علي بن يوسف بالكامل، بل هدموا بعض أجزاء منه. (أخبار المهدى بن تومرت، ص ٦٦). وفي رواية أخرى ظل مغلفاً ومعطلاً لا تقام فيه أي شعائر دينية، واستعيض عنه ببناء جامع آخر يقيمون فيه شعائرهم. الإدريسي: صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة برييل، ١٨٦٦م، ص ٦٨؛ محمود مقديش: نزهة الأنوار في عجائب التواريχ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج ١، ص ٦١.

الجماعة بقرطبة أبو جعفر حمدين^(١) بن محمد بن علي بن حمدين التغلبي^(٢)، الذي نبش الموحدون قبره هو وأفراد أسرته بعد استيلائهم على مدينة مالقة سنة ٥٤٨ هـ / ١٥٣١ م^(٣). وكان ابن حمدين هذا قد تزعم ثورة أهل قرطبة على المرابطين في الأندلس سنة ٥٣٤ هـ / ١١٢١ م^(٤)، تلك الثورة التي كانت تقضي على ما بقي من الأندلس لولا تدارك الموحدين إياها، حيث ثار عامة قرطبة بسبب ضعف قضيتها ابن رشد^(٥)، فاضطر أبو جعفر بن حمدين للخروج للناس لتسكين ثائرتهم، بما له من حظوة لدى المرابطين وعامة أهل قرطبة، وانتهي الأمر باستفاء ابن رشد عن القضاء، وتعطيل الأحكام بها لمدة تزيد على العام تأديباً لأهل قرطبة، ثم ترك لهم بعد ذلك أمير قرطبة أبو عمر الل متونى حرية اختيار

(١) ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، ولد قبل سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م بقرطبة، التي تولى قضاء الجماعة بها في شعبان سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م علي أثر مقتل قضيها أبي عبد الله بن الحاج، ثم عزل ابن حمدين عن قضاء قرطبة سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م، ثم أعيد مرة أخرى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م، وسرعان ما تطورت الأمور سريعاً وثار أهل قرطبة على الحكم المرابطي، فصارت إليه رئاسة قرطبة، ولقب نفسه بأمير المسلمين المنصور بالله سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، ودعى له علي منبر قرطبة ومعظم منابر الأندلس. ابن القطان: نظم الجنان، ص ٧٨؛ ابن الأبار: التكميلة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥ م، ج ١، ص ٢٣٥؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميلة، مج ٣، س ٥، ص ٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٥.

(٢) بنو حمدين: ينتسبون إلى بني تغلب، وهي أسرة عربية عريقة عمل أغلب أفرادها بقضاء الجماعة بقرطبة، كان لكثيرهم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين - قاضي الجماعة بقرطبة علي عهد المرابطين ت سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م - ابنان أحدهما أبو القاسم أحمد، وكان قاضياً للجماعة بقرطبة مرتين، وتوفي سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، وله من الأبناء ابناً واحداً هو أبو عبد الله، تولى القضاء بعد وفاته أبيه أي بين سنة ٨٣٩ - ٥٢١ هـ / ١١٣٤ - ١١٢٧ م. (ابن بسام الشنترني: الذخيرة، ق ١، مج ١، ص ١٩٩٧؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المساك، ج ٨، تحقيق سعيد أحد أعراب، ص ١٩٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٥). والثاني هو أبو جعفر حمدين تولى قضاء قرطبة سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م، ثم صرف عن القضاء سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م، ثم أعيد وبقي حتى انهيار دولة المرابطين في الأندلس، وكانت وفاته سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م. ابن القطان: نظم الجنان، ص ٧٨؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميلة، مج ٣، س ٥، ص ٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٤).

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيما يستحق القضاء والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م، ص ١٣٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٥٧؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميلة، مج ١، س ١، ص ٢٨٦.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٢.

قاض لهم، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين ليتولى منصب قاضي الجماعة بقرطبة للمرة الثانية في سنة ٥٣٦هـ / ١٤١م، واستمر في منصبه حتى سنة ٥٣٩هـ / ١٤٤م^(١).

كانت أحوال المرابطين - آنذاك - قد تحولت من سيئ إلى أسوأ بسبب الهزائم التي تولالت عليهم على أيدي الموحدين على عهد الأمير المرابطي تاشفين بن علي، فاستغل أهل الأندلس هذه الفرصة وثاروا في مدنهم على المرابطين، وامتدت نار الثورة على المرابطين ووصل لهبها إلى قرطبة، فثار العامة ضد الوالي المرابطي أبي عمر الل متون وأعلنوا خلعه وترك دعوة المرابطين، واتفقوا على مبايعة القاضي ابن حمدين بالرياسة^(٢)، التي يسعى إليها منذ صغره، يؤكد هذا ما ذكره ابن الخطيب عندما قال "وكان شهماً، يجيش في صدره الأمر الذي بُرِزَ فيه"^(٣)، ويدعم ما ذهبنا إليه ما ذكره النباهي^(٤) نفلا عن تاريخ ابن عسكر من أنه كان يحدث الناس في صغره بما سيؤول إليه أمره في كبره.

وعلى أية حال، بدأت ثورة القاضي أبي جعفر بن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩هـ / ١٤٤م، وهي السنة التي سماها ابن الأبار بالقارضة، فيها "أخذت دولة الملثمين في الانقضاض والانقراض"^(٥)، واتسع على المرابطين فيها "خرق لم يرقعوه، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه"^(٦)، وأعلن ابن حمدين نفسه أميراً على المدينة، حيث بايعه الناس بالإمارة في المسجد الجامع بقرطبة في ٥ رمضان من نفس السنة، وتسمى بالقاضي الخليفة^(٧).

ويبدو أن أهل قرطبة لم يألفوا قط حياة الاستقرار؛ إذ إن بعضهم كان يؤيد ابن حمدين ويرغب في رئاسته، والبعض ما زال على ولائه للمرابطين، في حين كان هناك فريق آخر له

(١) ابن الأبار القضاعي: التملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٣؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتملة، مج ٤، س ١، ص ١٦٦ - ١٦٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٣.

(٢) ابن الأبار: التملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٣٥.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٦) نفسه، ج ٢، ص ١٩٩.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢١١ - ٢١٤، ٢١٢؛ ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب، ص ١٧١، ٢٦٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥١ - ٢٥٣؛ المقربي: نفح الطيب، ج ٤، ص ٧٦.

رغبة في دعوة ابن قسى وهم سكان الريض الشرقي لقرطبة^(١)، وهناك فريق رابع كان يرى استدعاء سيف الدولة بن هود^(٢)، إذ لم تكن كافة الأطراف بقرطبة راضية عن حكم ابن حمدين، فلم يك يمضى اثنا عشر يوماً على قيام ابن حمدين بثورته حتى قامت ثورة أخرى بقرطبة حمل لواءها أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود، الذي قدم إلى قرطبة في قوة من القشتاليين، حيث نودي به أميراً على قرطبة باسم المستنصر بالله، ورغم ذلك فلم ينعم بهذا المنصب كثيراً؛ إذ سرعان ما ضاق أهل قرطبة ذرعاً باستبداد وزيره، فانقلبوا عليه بعد ثمانية أيام فقط من توليه الإمارة^(٣).

أما ابن حمدين، فقد عاد إلى قرطبة في ١٠ ذي الحجة سنة ١٤٤ هـ / ٥٣٩ م ونودي به للمرة الثانية أميراً على البلاد "فاستقام له الأمر فيها، ودون الدواوين، وجند الأجناد، ورسم الخطط"^(٤). ولم يك يمضى أحد عشر شهراً على توليه الإمارة حتى تبرم منه أهل قرطبة، واتصلوا ببيحيى بن غانية^(٥) قائد المرابطين في إشبيلية وطلبو منه أن يعمل على تخلصهم من حكم ابن حمدين، فزحف ابن غانية على قرطبة في جمادي الآخرة سنة ١٤٥ هـ / ٥٤٠ م على رأس فرقة من النصارى، ونجح في إيقاع الهزيمة بجيش ابن حمدين الذي فر إلى بطليوس، ثم غادرها إلى حصن (أندوجر) الواقع شرق قرطبة وتحصن به، ولما كر عليه ابن

(١) ابن الأبار: *الحطة السيراء*، ج ٢، ص ٢٠٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سليمان بن هود، من بقایا حكام دول الطوائف في سرقسطة، عرفوا بموالاتهم للنصارى وتبعيتهم لهم، لعب سيف الدولة بن هود دوراً بارزاً في ثورة القضاة ضد المرابطين، وقتل سنة ١٤٥ هـ / ٥٤٠ م.

ابن الأبار: *الحطة السيراء*، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ق ٢، ص ١٧٢ - ١٧٦.

(٣) ابن الأبار: *الحطة السيراء*، ج ٢، ص ٢١٢؛ ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ق ٢، ص ٢٥٣؛ يوسف أشباخ: *تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين*، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١ م، ج ١، ص ٢٢٠.

(٤) ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ق ٢، ص ٢٥٣.

(٥) يحيى بن غانية: من أبرز ولاة وقادة المرابطين في الأندلس، كان أميراً نابهاً، وجندياً وأفر الجرأة والشجاعة، والخبرة والخبرة بأساليب الحروب، وحاكماً وأفر الكفاية والمقدرة، تمركز في أواخر الحكم المرابطي في الأندلس في مدينة غرناطة مع ما تبقى من قوات المرابطين، وتوفي بها سنة ١٤٩ هـ / ٥٤٣ م. ابن الخطيب: *الإحاطة*، ج ٤، ص ٣٠٣ - ٣٠٠.

غانية، لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة الذميمة التي كانت عmad ملوك الطوائف في محاربة بعضهم البعض، وهي الاستئصار بعاهل قشتالة القيصر ألفونسو ريمونديس؛ حيث أطمع ابن حمدين القيصر في قرطبة، فاستجاب لدعوه وتحرك لنصرته، فسار هؤلاء النصارى ومعهم حليفهم ابن حمدين، فدخلوا قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٤٥٥هـ/١١٤٠م^(١).

وعندئذ جاءت الأخبار بأن الموحدين قد جازوا البحر إلى الأندلس، وأن دعوتهم ظهرت بأشبيلية، فرأى القيصر أنه من الفطنة مهانة ابن غانية، وتركه بقرطبة سداً بينه وبين بلاده، وعلى هذا النحو، استقر ابن غانية بقرطبة، واستمر على تهادنه مع القشتاليين^(٢). أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى الأسبان، ثم عبر البحر إلى المغرب، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن بن علي أسوة بمن سار إلى لقائه من زعماء الثورة في الأندلس، فلقيه تحت أسوار مدينة مراكش - حاضرة المراطيين - وهو محاصر لها سنة ١٤٦٥هـ/١١٤١م، فأكرمه الخليفة عبد المؤمن وأحسن استقباله ونزله وووجه بمساعدته، لكن علي ما يبدو بقيت مجرد وعود، فاستعجل الرجوع إلى الأندلس فنزل بمالقة وحاول أن يسترد سلطانه بقرطبة مرة أخرى، إلا أنه أخفق في مسعاه فارتدى ثانية إلى مالقة، وكان من أسباب لجوئه إلى مالقة وجود حليفه السابق القاضى أبي الحكم بن حسون بها^(٣)، فاستقر بها حتى توفي^(٤).

(١) عاث القشتاليون في قرطبة عند دخولهم لها، واستباحوا مسجدها الجامع، ومزقوا ما به من مصاحف، وأحرقوا الأسواق، وظل ابن غانية صامداً يدفع النصارى الأسبان عن قرطبة بمنتهى الشدة والبسالة. ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ق٢، ص٢٥٣؛ نفسه: *الإحاطة*، ج٤، ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ق٢، ص٢٥٤.

(٣) هو القاضى أبو الحكم بن حسون، ولـى القضاء بمالقة بعد وفاة قاضيها أبو محمد الوحيدى سنة ١٤٣٨هـ/١١٤٣م، ثم سرعان ما دعا لنفسه في مالقة وقام بالثورة ضد الموحدين، ولما فشلت ثورته وثار الناس ضده أحرق كتبه ونذرته، ثم شرب سماً وعندما لم يقتلـه السم، طعن نفسه بالرمح ومات سنة ١٥٣٨هـ/١٤٥١م، وقد صلبت جثته هو الآخر بعد استيلاء الموحدين على مالقة، وحملـت رأسـه إلى مراكش. ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ص٢٣٠، ٢٥٥.

(٤) ما ذكره البيذق من أن مخلوف بن يلولـى وبيحـيا بن يومـور قـتـلاـه لم يـذـكـرـه أحدـ منـ المؤـرـخـينـ سـواـهـ، إـلاـ أنـ يـكـونـ المرـادـ بالـقلـلـ اخـراجـهـ منـ قـبـرـهـ وصـلـبـهـ. أـخـبارـ المـهـدـيـ بنـ توـمرـتـ ، صـ٨٦ـ.

واختلفت المصادر في تاريخ وفاته، فذكر النباهي^(١) وابن الخطيب^(٢) أنه توفي في ١٩ رجب سنة ٦٥٤٦هـ / ١١٥١م، بمقامه ودفن بمسجدها الجامع، وذكر ابن سعيد^(٣) أنه توفي سنة ١١٥٢هـ / ٥٤٨م، أما باقي المصادر فأجمعوا أنه توفي سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٣م^(٤). ولما استولى الموحدون على مدينة مالقة بعد ذلك بعشرين شهراً أي في أوائل سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، نبشو قبره، واستخرجوا جثمانه وصلبوه، وهو - وفقاً للرواية - علي حاله لم يتغير^(٥)، وحسب رواية أبي الحسن النباهي أخرج من قبره بعد وفاته "وصلب في اثنى عشر رجلاً من أصحابه"^(٦). وهناك من المؤرخين من يزعم أن المنجمين في زمانه حكموا عليه عند مولده بأنه بأنه سوف يصلب، وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه في قربطة، فصدقته الأيام ولكن بعد وفاته^(٧).

ولعل ما يفسر لنا سبب قيام الموحدين بعد استيلائهم على مالقة سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، بنبش قبر ابن حمدين وإخراج جثته وصلبها، ما ذكره ابن الخطيب من أن أبي جعفر بن حمدين قد حرض ابن حسون علي خلع دعوة الموحدين في مالقة، وبناء علي ذلك، دعا ابن حسون لنفسه واتخذ ألقاب الإمارة^(٨). وأغلب الظن أن الاثني عشر رجلاً الذين

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٢) أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٤.

(٣) رياض المبرزين وغاليات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط ١، دار طлас للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م، ص ١١٦.

(٤) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٣٥؛ الذهي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٤. ويبدو أن هذا التاريخ هو الأقرب إلى الصواب؛ إذ إن جثته صلبت في هذه السنة وكانت على حالها، ولم تتغير لقرب المدة بين وفاته وصلب جثته بعد إخراجها من القبر.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٥٤. نعت عبد الملك المراكشي ابن حمدين بالمتآمر، وأشار إلى أنه توفي بمقامه، وأنه تعرض للصلب بعد دخول الموحدين لها. النيل والتكميل، مج ١، س ١، ص ٦٣٣.

(٦) تاريخ قضاة الأندلس أو المرفقة العليا، ص ١٣٦.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣١.

الذين نبشت قبورهم وصلبوا مع أبي جعفر بن حمدين كانوا من أسرته؛ إذ إنه مات ولم يكن له عقب، وبقي عقب أخيه أبي القاسم أحمد بن حمدين^(١).

وفي تقديرني أن نبش الموحدين لقبر أبي جعفر بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة عند دخولهم مدينة مالقة لم يكن سببه الوحيد هو الخلاف السياسي والاستصار بالنصارى الأسبان، إذ يبدو أن للموضوع إرهادات مذهبية وفلسفية قديمة بين الموحدين وأسرة بنى حمدين القرطيبة، كان لها دورها في نبش قبر أبي جعفر بن حمدين وصلبه على أيدي الموحدين هو وأفراد أسرته، هذه الإرهادات تتمثل في أن أبو جعفر بن حمدين هذا هو ابن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين التغلبي^(٢) (١١١٤-٤٣٩ هـ / ١٠٤٧-٥٠٨ م) (١١١٤ م) قاضي الجماعة بقرطبة الذي أصدر فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى بعد إجماع الفقهاء على عهد الأمير المرايطي علي بن يوسف بن تاشفين، وهي القضية التي أثارت نفقة كبرى على المرايطيين من قبل خصومهم الأداء الموحدين، واتخذوها ذريعة للطعن في عقيدة المرايطيين واتهامهم بالمرور عن الدين، وكان أول مروج لها هو ابن تومرت تلميذ أبي حامد الغزالى^(٣)، الذي أشاع بين أنصاره أنه اتصل بالإمام الغزالى أثناء رحلته إلى المشرق، فأخبره بإحراق المرايطيين لكتابه "إحياء علوم الدين"، فغضب الغزالى ودعا عليهم بتفويض دولتهم، فاستغل ابن تومرت الفرصة وطلب منه أن يدعوه ليجعل ذلك على يديه، فدعا الغزالى، وأمن طلبه، وبذلك تم لابن تومرت - حسب زعمه - ما تم له من أمر

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأنبلس، ص ١٣٦.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة ١٠٤٧ هـ / ٤٣٩ م، وتولى قضاء قرطبة بعد وفاة والده سنة ٤٩٠ هـ، وكانت وفاته سنة ١١١٤ هـ / ٥٠٨ م، وكان ابنه أبو جعفر حمدين الذي تولى قضاء قرطبة سنة ١١٣٤ هـ / ٥٢٩ م، قد تسلم زمامها ودُعى له على منابرها سنة ١١٤٤ هـ / ٥٣٩ م. أبو الوليد بن رشد: مسائل أبي الوليد، مج ١، ص ٢٦٣؛ القاضي عياض: الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ٤٦؛ ابن بشكول: الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩ م، ترجمة ١٢٦٢، ص ٨٣١؛ الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأنبلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦ م، ص ١١٣؛ ابن القطن: نظم الجمان، ص ٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنليس المطرب، ص ١٧٢.

القضاء على المرابطين، وعد أنصار الغزالى انحرار المرابطين وهم في أوج عظمتهم من بركاته^(١).

كان من الطبيعي أن تلقى كتب أبي حامد الغزالى المعارضة في الغرب الإسلامي الذي لم يكن علي مذهب الغزالى، ولذلك عندما وصل كتابه "إحياء علوم الدين" إلى الأندلس اطلع عليه أبو عبد الله بن حمدين قاضي قضاة قرطبة، فرأى أنه مخالف للعقيدة الإسلامية؛ لاحتوائه علي كثير من المسائل الكلامية، وكراهة المالكية لهذه العلوم، ومن ثم جمع فقهاء قرطبة للتداول في شأن الكتاب واتفقوا علي رأيه وأصدروا فتوى بوجوب حرقه^(٢)، وطالبوه الأمر بمصادرة كتبه وإحراقها، فما كان من الأمير المرابطي علي بن يوسف إلا أن أصدر أوامره بتنفيذ ما أجمعوا عليه سنة ١١٠٣هـ / ٥٥٠م^(٣)، غير أنه بجانب هذا السبب الظاهر

(١) ابن القطن: نظم الجمان، ص ٧٢-٧٣؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والخصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط ٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م، ص ٤.

(٢) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميل، مجل ٣، س ٥، ص ٢٥٩.

لا ينبغي أن ينظر إلي قضية إحراق كتاب الإحياء للغزالى علي أساس أنها خطأ ارتكب في عهد المرابطين يتحمل مسؤوليته ابن حمدين، وإنما هي حادثة ليست فيها أي جريمة، ومن الظلم أن يحمل مسؤوليتها ابن حمدين وحده، ولا علاقة لها بتعصب الفقهاء ولا بسلطتهم القوية علي الأمير المرابطي؛ لأننا نعلم أن أمير المسلمين علي بن يوسف كان لا يخضع لفقهاء إلا إذا تيقن من مطابقة آرائهم للشريعة الإسلامية، وإلا فماذا نعمل رفضه قتل ابن تومرت أو حتى سجنه رغم أن الفقهاء نصوحو بذلك. كما أن الأمير المرابطي علي بن يوسف كان منتقها في علوم الدين، فلم يكن جاهلاً بما في الإحياء من خطورة علي العقيدة، ومما لا شك فيه أن علي بن يوسف وفقهاء دولته كانوا متيقنين من أنهم علي صواب عندما أمروا بحرق الكتاب، ولم يخالفوا تعاليم الشريعة، وإنما فعلوا ذلك عن اقتداء. وليس أدل علي ذلك من وصف ابن خاقان له بأنه "حامى حمى الدين، وعاضده، وقطع ضرر المعتدين، وحاصرده". قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خريوش، ط ١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩م، ج ٢، ٦١٠، ص ١٢١. للمزيد انظر المراكشي: المعجب، ص ١٨٥-١٨٦؛ ابن أبي زرع الفاسي: الأنبياء المطلب، ص ١٧٦. فقد كانت نية ابن حمدين سليمة وعقيدته صحيحة ولم يفت بحرقة إلا بدافع الغيرة علي الدين، وقد شهد بهذا ابن القطن نفسه داعية الموحدين الذي شنع علي المرابطين قضية الإحرق، حيث أشار إلي أن ابن حمدين "كان جميل الطريقة ساعيا في كل خير .. ورعاً بيناً حذرا من العوّاقب". (نظم الجمان، ص ٧٤).

(٣) يصف ابن القطن واقعة الإحرق فيقول "في أول عام ٥٥٣هـ عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائهما علي إحرق كتاب أبي حامد الغزالى رحمة الله تعالى المسمى

لإحرق كانت هناك أسباب أخرى خفية تتعلق بهؤلاء الفقهاء الذين طالبوا بإحرق كتب الغزالى، ومن ذلك ما وجده في كتاب الإحياء من هجوم على علماء الفروع الذين يتذدون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية^(١).

هذا، ولم يخل عهد عبد المؤمن بن علي من حوادث التسلط على قبور الثوار والمناوئين للحكم الموحدي بالنبش والتخييب، ففي سطيف قام عبد المؤمن بدرس قبر سطيف بخيله ثاراً من خيانته، وذلك حسب ما أورد البيدق مؤرخ البلاط الموحدي، الذي يقول: "سار الخليفة إلى سطيف وفيه قبر سطيف فوق الطريق في ربوة، وقرب منه الخليفة وقال للموحدين ادفعوا خيالكم فدفع الخليفة جواده ودفع الموحدون معه حتى وصل قبر سطيف وحث عليه جواده الذي ركب وكان جواداً أبلق، ودار عليه الموحدون وانضم الناس إليه، فقال لهم الخليفة رضي الله عنه أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر؟ قالوا له أنت العارف بذلك، فقال لهم الخليفة، قال: أزيلوني عن هذا القبر لئلا تدرسني خيل عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي، فكان كذلك بعون الله وتوفيقه"^(٢).

الإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشعاعه زيتاً، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفت كتبه إلى جميع بلاده أمراً بإحراقه حيثما وجد". نظمقطان، ص ٧٠ - ٧١؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٧٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤، ص ٥٩.

ويستفاد من خبر أورده عبد الواحد المراكشي أن الفتيا صدرت بإحرق كل كتب الغزالى وليس الإحياء فقط، إذ يقول "ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالى - رحمه الله - المغرب أمر أمير المسلمين (علي بن يوسف) بإحراقها = وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستصال المال إلى من وجد عنده شيء منها، واشتدا الأمر في ذلك". المعجب، ص ١٧٣. وسار خلفه ابنه تاشفين على سنته، فكان من جملة ما أصدره في بيان توليه الأمر بإحرق كتب الغزالى "... ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة - وفقكم الله - كتب أبي حامد الغزالى فليتبع أثرها وليقطع بالحرق المتابع خيرها ويبحث عليها، وتغليظ الإيمان على من يبتهم بكتمانها". حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ٢٠.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ع ٣، ق ١، ص ٧٩؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٥٢.

(٢) البيدق: أخبار المهدى، ص ٧٤.

ونتوفر على إشارة تخص علي بن غانية التائز علي الحكم الموحدي، والذي هلك في بعض حروبه مع أهل نفزاوة سنة ١٨٧هـ / ٥٨٤ م ببلاد الجريد، فدفن هناك، فكان العداء السياسي سبباً في أن عُيِّن على قبره، فحمل أتباعه أشلاءه إلى ميورقة دفن بها^(١). ونتوفر على إشارة أخرى تعود للفترة الموحدية أوردها التجاني^(٢) في حادث سنة ٦٨٢هـ / ٢٨٣ م يشير فيها إلى نقل نيف وستين رأساً من قبور مدينة قابس إلى مكان آخر بقصد البناء في موضع دفنهم.

نخلص مما سبق ذكره، أن الفترة الموحدية غنية أكثر من سابقتها فيما يتعلق بهذا الأسلوب من الانتقام، ويرجع ذلك إلى طول فترة الحكم الموحدي مقارنة مع نظيره المرابطي من جهة، وإلي المذهب الموحدي في صيغته التمرطية والذي حدث على تصفية غير المؤمنين بالعقيدة المهدوية من جهة أخرى، واعتبار الخصوم والثوار والمناوئين ومن ينحو منحاهم كفاراً يجب إزهاق أرواحهم، ولما حلت قبورهم والسلط عليهم بالنحس والتخريب إمعاناً في التشفي والانتقام.

وفي المغرب الأقصى، خلال عصر بنى مرين، الذين كانت لديهم رغبة أكيدة في الإطاحة بدولة الموحدين^(٣) بعد إخفاق سياستهم وضعف قبضتهم عن الإمساك بزمام الأمور في بلاد المغرب، ومن ثم ظهروا على مسرح الأحداث ببلاد المغرب الأقصى وتغلبوا في مناطقه الخصبة يشنون الغارات عليها، مما أثار شكوى السكان منهم^(٤)، وأصبح المد المريني

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٩٣.

(٢) رحلة التجاني، ص١٠٤.

(٣) تحالف بنى مرين في بداية أمرهم مع الموحدين الذين أسندوا إليهم حكم البلاد التي بحوزتهم، ولما بدأ الضعف يسري في جسد الدولة الموحدية انقلبوا عليها، وشنوا الغارات على أطرافها، إلى أن تمكناً من القضاء عليها. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٨٢؛ يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ج١، ص١٢٠-١٢١.

(٤) من خلال الإغارة على المدن والقرى وسلب أموال الناس وإشاعة الفوضى، مما دفع الخليفة الموحدي المستنصر إلى تجهيز جيشاً لقتالهم عند وادي نكور سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦ م، إلا أن النصر كان حليف المرينيين الذين انتصروا انتصاراً باهراً، ومزق الجيش الموحدي شر ممزق، حيث بالغ المرينيون في تجريدتهم من ملابسهم، وعند عودة من تبقى منهم إلى مراكش وهم عرباً كانوا يستترن بأوراق الشجر. ابن عذاري: البيان المغرب، قسم

يثير مخاوف الموحدين، الذين لم تنجح محاولاتهم لإنهاض هذا التوسيع^(١)، الذي كل بالنجاح عندما تمكّن المرinيون من دخول عاصمة الموحدين مراكش سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م^(٢). وبذلك انطوت آخر صفحات الموحدين من تاريخ المغرب، وحل محلهم بنو مرين.

وانطلاقاً من المسوغ ذاته، دفع العداء السياسي المرinيين إلى نبش أحقادهم المدفونة ضد الموحدين والسلط على قبورهم بالنبش والتخييب، وصلب وحرق ما تبقى من رفاتهم إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، وقد تمّ هذا على أيدي عمال بنى مرين، الذين نبشوّا قبور خلفاء الموحدين، وأخرجوا عبد المؤمن بن علي وابنه يعقوب المنصور من قبريهما. وقطعت رأسهما، وضررت أعناق كل من كان بجبل تينمل، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم^(٣).

وفي رواية أخرى "اعاثت عساكر بنى مرين في جبل تينمل واكتسحوا أمواله"، ونبشوّوا قبور خلفاء بنى عبد المؤمن واستخرجوا أسلائهما، وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم وتولى كسر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني^(٤).

وقد اشتهر أبو علي بن أحمد الملياني^(١) عامل المرinيين على مدينة أغمات بن بش قبور الخلفاء الموحدين انتقاماً وتشفيًّا منهم، فما كان منه إلا العبث بأسلاء الموحدين ونبش

الموحدين، ص ٢٦٦؛ ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب، ص ٢٨٤؛ نفسه، الذخيرة، ص ٢٨؛ ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقليم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١١١؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٦٩.

(١) كان الخليفة الموحدي المستنصر خلال المواجهات مع بنى مرين يرى ضرورة استئصال شأفهم وإفائهم، بأن يبعث إليهم بجنوده "فقتل رجالهم، وينهب أموالهم، ويسبى نساءهم، وينسف آثارهم ويشرد بهم من خلدهم، ويذير بهم من سواهم"، وفي موضع آخر "قتل الوالد والولد، ولا تبق منهم على أحد". ابن أبي زرع: الذخيرة، ص ٢٧.

(٢) استطاع السلطان المريني أبو يوسف يعقوب القضاء على الموحدين واحتثاث شجرتهم في المعركة التي شنتها ضدّهم عند وادي غفو، والتي انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل أبي دبوس واستيلاء بنى مرين على عاصمتهم مراكش وذلك في محرم سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م، ويمثل أبي دبوس وسقوط مراكش في أيدي المرinيين انتهي تلك عصر الدولة الموحدية، لتحل محلها نولة بنى مرين في ربع المغرب الأقصى. ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب، ص ٢٦١؛ نفس المؤلف، الذخيرة السنوية، ص ١١٧-١١٨؛ مؤلف مجاهد: الحل الموشية في تكر الأخبار المراكشية، ص ١٧١.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٣٦م، ج ١، ق ٢، ص ٦٢٠.

(٤) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ٤٣.



أجادتهم^(٢)، فسلط علي قبر أبي يعقوب المنصور بالنبش؛ حيث أخرجه من قبره وزعم أنه المهدى وذلك في سنة ٦٧٤هـ^(٣).

ومما يدعو للاستغراب ما ذكره ابن عذارى نقاً عن بعض المشارقة الذين أخبروه أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام. ولا ريب ولا اختلاف أن المنصور - رحمه الله - كان رجلاً صالحًا عالماً فاضلاً، وثبت عن قرابته وأهل بيته أن قبره بتينمل^(٤).

هذه الرواية تؤكد ما ذهبنا إليه من تعرض قبر أبي يعقوب المنصور^(٥) وغيره من مقابر خلفاء الموحدين للنبش والتخريب علي يد عمال بنى مرين، ومن الوارد أن يكون قبر أبي يعقوب المنصور قد تعرض للنبش من منطق حسن النية، بهدف حمايته من سلط المرينيين عليه، من خلال نقله إلى مكان آمن إذا سلمنا بصحة رواية المشارقة التي أوردها ابن عذارى^(٦).

وعلي أية حال، تتل وحشية المرينيين وعمالهم في التسلط علي قبور خصومهم الموحدين عن رغبة كامنة في التشفي والانتقام حتى بعد رحيل هؤلاء عن الحياة. فقد ذكر الناصرى أن والي المرينيين أبا علي بن أحمد الملياني كان يرى - بارتكاب هذا الفعل الشنيع - أنه قد شفى غليله "باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأسلائهم"^(٧). ويبدو أن

(١) أبو علي بن أحمد الملياني: من أعيان مدينة مليلة ثار علي الحفصيين بها سنة ٦٥٧هـ، فجهزوا إليه جيشاً كبيراً وأخذوا ثورته، ففر إلى المغرب الأقصى والتجأ إلى السلطان أبي يعقوب المرينى، الذي رحب به وآواه وعينه ووالياً على مدينة أغمات أكراماً له. ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٢٣١؛ المقرى: نفح الطيب، ج ١، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ الناصري: الاستقصا، ج ٣، ص ٤٣؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ص ٣١٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٢٣١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٣٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٣٥.

(٥) أبو يعقوب المنصور: يُعد عصره هو العصر الذهبي للموحدين، كان كريماً مع القراء والضعفاء، حريصاً علي رد المظالم، كما راعى الصلحاء وأهل العلم، وأكرم الفقهاء وأجزل عليهم الأموال الكثيرة، توفي سنة ٥٩٥هـ ١١٩٨م، دُفِنَ أول الأمر بمدينة مراكش، ثم نُقلَ بعد ذلك إلى تينمل، وحزن الناس لوفاته حزناً شديداً. ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٣٤؛ ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب، ص ٢١٧.

(٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٢٥؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ١٧.

(٧) الناصري: الاستقصا، ج ٣، ص ٤٣.

هذا الفعل المحرم شرعاً قد أثار غضب الناس؛ حيث أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها^(١).

وفي عهد السلطان أبي عنان المريني، يكشف لنا صاحب كتاب "بيوتات فاس الكبري" عن رغبة هذا السلطان في حرق قبر الفقيه أبي بكر محمد بن العربي الإشبيلي^(٢) الذي كان يلى قضاء إشبيلية على أيام الموحدين عن كره من أهلها^(٣). ولعل سبب أقدام أبي عنان المريني على حرق قبر هذا الفقيه ما رماه به بعض علماء عصره عندما وقفوا علي كلامه في كتابه "العواصم من القواسم" بحق الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففي هذا الكتاب استباح ابن العربي قتل الحسين وأحل دمه، فثارت العامة بإشبيلية ضده عندما بلغهم هذا الكلام وطالبوه بتلبيته، فقصدوا داره، لكنه لذا بالفرار عندما علم بما عزموا عليه، حيث جاز البحر إلى بلاد المغرب قاصداً مدينة فاس إلا أنه مرض وهو في الطريق إليها بسبب حقده على أهل إشبيلية عندما وصله خبر ما فعلوه بداره، فتوفي ودفن بخارج باب الشريعة في ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م^(٤).

(١) نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن العربي: هو الفقيه والقاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي المعافري، ويرجع ابن العربي في أصله إلى إشبيلية التى ولد بها سنة ٥٤٦ هـ / ١٠٧٦ م، ولكنه ما لبث أن غادرها إلى المشرق تخدو رغبة عارمة في استقاء العلم من مصادره في بلاد المشرق، ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز سبعة عشر عاماً، غادر إشبيلية سنة ٥٤٨ هـ / ١٠٩٢ م صحبة أبيه الذى كان يشغل منصبًا مرموقاً في دولة المعتمد بن عباد التى أزالها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وبعد عودته إلى وطنه سرعان ما ذاع صيته كقاض وفقىء من أكبر فقهاء المالكية فى الأندلس، وتوفي ابن العربي أثناء رحلته إلى مدينة فاس التى دفن بها في ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م. القاضى عياض: الغنية، ص ٦٦-٦٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٩٢-٩٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مجلد ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ النباھي: المرافقية العليا، ص ١٣٩-١٣٧؛ المقرى: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٦٢، ٦٣، ٨٦؛ نفسه، نفح الطيب، ج ٢، ص ٤٣-٤٢٥.

(٣) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبri، ص ٦٠.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٠-٦١.

أما أهل إشبيلية الناقمين عليه فلما وصلوا إلى داره، ووجدوه قد فر منها، استقروا على هدم داره عوضاً عن جلود ضحاياهم التي أغتصبها منهم كرهاً^(١)، ليس هذا فحسب، بل عدوا العزم على حرق كتبه ومؤلفاته؛ لأنها حسب رعمهم فاسدة، لئلا يضل المسلمين بها، فهدموا داره وأحرقوا كتبه^(٢). ولما وقف السلطان أبي عنان المريني على كلامه في الكتاب المذكور أراد حرق قبره، وكان ابن الخطيب حاضراً في بلاطه آنذاك رسولاً من طرف سلطان غرناطة إلى بلاط فاس^(٣)، فكلمه أبو عنان فيما عزم عليه، فأشار عليه ابن الخطيب بـألا يفعل ذلك؛ لأن ابن العربي كان قد مضى إلى ما قدمت يده، فتركه حينئذ ولم يحرق قبره^(٤). وإذا كان ابن العربي قد وجد من يشفع له لدى بلاط فاس كي لا يتم ملاحقة قبره بالحرق أو التخريب، فإن ابن الخطيب نفسه - الذي تشفع لابن العربي - لن يجد من يقف بجواره ويحشو عليه في المحننة التي تعرض لها - وهي المحننة التي سنعرض لها في الصفحات التالية - بل إن هناك من يزعم بأن ما أصاب ابن الخطيب من نبش قبره وحرق جسده، كان جزاء منعه لأبي عنان من حرق قبر ابن العربي^(٥).

(١) المقري: *نفح الطيب*، ج ٢، ص ٢٧. تصادف بعد تولي ابن العربي قضاء إشبيلية أن سقط جزء من سور مدينة إشبيلية المحاذى للبحر، وكان من عادة أهل الأندلس إذا سقط لهم سور إحدى المدن أن يكتب قاضيها إلى أميرها يعلمه بذلك، فيصرف له قيمة بنائه، ومن ثم يتولى القاضي بناء هذا الجزء من السور خشية قوم = النصارى الأسبان منه، وعلى غرار هذا، طلب أهل إشبيلية من ابن العربي أن يعلم الأمير بذلك، لكنه رفض أن يفعل ذلك، بل عمد إلىأخذ جلود ضحاياهم عن كره منهم، وابتاعها وبنى بثمنها الجزء المتهدّم من السور. ابن الأحمر: *بيوتات فاس*، ص ٦٠.

(٢) ابن الأحمر: *بيوتات فاس*، ص ٦٠-٦١.

(٣) عهد لابن الخطيب للقيام بسفارتين إلى بلاط فاس في عهد السلطان أبي عنان، الأولى كانت سنة ١٣٥١هـ/١٣٥٢م عندما ورد سفيراً نيابة عن السلطان أبي الحاج يوسف بن إسماعيل إلى السلطان أبي عنان. والثانية كانت سنة ١٣٥٤هـ/١٣٥٥م عندما أرسل سفيراً عن أبي عبد الله محمد بن أبي الحاج الملقب بالغنى باشة إلى السلطان أبي عنان للمرة الثانية، ومن المرجح أن هذه الواقعة قد حدثت في إحدى السفارتين. عبد الهادي التازري: *ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً*، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، ناطون، ع ١٩٨٧، ٢، ص ٤٧.

(٤) ابن الأحمر: *بيوتات فاس*، ص ٦١.

(٥) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

هذا ولم يخل عصر بنى الأحمر في غرناطة (٦٣٥-٦٩٧هـ / ١٢٣٨-١٤٩٢م) هو الآخر من حوادث ملاحقة القبور والسلطان عليها سواء بالنبيش أو الإحرق لأسباب سياسية ومذهبية. فقد تعرض مسلم بن سعيد التتملي^(١) - والذي كان متولياً لخطة الخفارة ومشrafًا على جمع وجبات الضرائب في عهد سلطان بنى الأحمر محمد الثاني الملقب بالفقير^(٢)، فنمت حالة، وعظم جاهه، ورعبت سطوطه^(٣) - لبطشولي عهد السلطان^(٤) به بعد وفاته سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م، وملاحقته لقبره والسلطان عليه بالنبيش والإحرق؛ لأن ولی العهد "كان قد أسف بأمور صانعه فيها من باب خدمة والده، فكان يتلمظ لنكبته، ولما تصير إليه الأمر، نبش قبره، وأخرج شلوه، فأحرق بالنار، إغراقاً في شهوة التشفي"^(٥).

وأما عن المحنـة التي تعرض لها كاتب الأندلس ومؤرخها وزيرها لسان الدين بن الخطيب - ذلك الرجل الذي ارتفع شأنه فملك زمام السيف والقلم - فهي اتهامـه بالزنـقة^(٦)

(١) نسبة إلى بلدة تتميل. ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، هامش (١)، ص ٣٣٠.

(٢) محمد الثاني الفقيه: هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ولد بغزناطة سنة ١٢٣٤هـ/٥٦٣٣ م، عُرف بالفقية لانتحاله طلب العلم ولاهتمامه بقراءة القرآن الكريم، تولى عرش سلطنة غزناطة وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، بعدها خبر الحكم طويلاً أيام أبيه. سار على نفس سياسة أبيه من مصانعة الأقواء ومدارسة الأعداء، واستطاع الوقوف في وجه الفتن بفضل ما بذل من ضروب الاحتيال والدهاء والصبر والحزم. توفي في الثاني من شعبان سنة ١٣٠٢هـ/٥٧٠١ م بعدها ملك تسعًا وعشرين سنة. ابن الخطيب: اللهمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٣٨-٣٧.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ٣٣٠.

(٤) يقصد بولي العهد هنا محمد الثالث المخلوع، ثالث ملوك بنى الأحمر، والذي تسلم زمام الحكم في غزانتة سنة ١٣٠٢هـ / ٧٠١م، إلا أنه لم يهأ بالملك طويلاً، إذ أصيب بمرض في عينيه، وعندئذ رأي كبار رجال الدولة أن ملتهم لم يعد يصلح لإدارة شؤون الحكم، بسبب مرض عينيه وحدة طباعه وقرروا خلعه، ففتكتوا به وخطدوه، ثم أُشيع بعد ذلك أنه أصيب بسكتة أماتته سنة ١٣٠٩هـ / ٧٠٨م، في حين يرى البعض أنه اغتيل تغريباً في بركة القصر بتبيير من أخيه نصر الذي بايده الناس على العرش. ابن الخطيب: *المحة البدريّة*، ص ٤٧، ٥٤.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ٣٣١.

(٦) كثيراً ما كان الاتهام بالزنقة يخفي وراءه أهدافاً سياسية وشخصية، فبعض من اتهموا بها كان يتم توجيه الاتهام إليهم بحجج وأسباب واهية. Maria Isable Firro: Accusation of Zandaq in Al- Andalus Venezia, Quaderni di Studi Arabi, 1986, P.251.

والإلحاد والخروج على شريعة الإسلام من جانب خصومه، الذين نسبوا إليه في ذلك أقوالاً ومقالات، مما جاء في بعض كتبه ورسائله، أولوها وفق مقاصدهم، وهي التهم التي أثيرت عند محاكمته بفاس، وأوقعت به في فخ النكبة والتصفية الجسدية، فُوْجِئَ وُتُّلِّى وعذب على الملاً وقتل على يد خصومه، بل لم يسلم قبره من تسلطهم عليه بالنبش والإحرق، بسبب ما رماه به خصومه لدى سلطانه الغنى بالله سلطان غرناطة^(١).

وتعد المحنـة التي تعرض لها ابن الخطيب لظروف الفتنة التي عصفت بمملكة غرناطة وبسلطانها محمد الخامس الغنى بالله^(٢)، الذي خـلـع وأقصـى من منصـبـه ليحل مكانـه أخـوه إسـمـاعـيلـ، وقد عـزلـ معـهـ وزـيرـهـ المـحـنـكـ ابنـ الخطـيـبـ، وـمـنـ هـنـاـ بدـأـتـ مـحـنـةـ الرـجـلـ وـمـعـانـاتـهـ، فقد صـوـدـرـتـ أـمـالـكـ عـقـبـ عـزـلـهـ وـاعـنـقلـ وـكـبـسـتـ دورـهـ وـانتـهـيـتـ، ولـمـ بـلـغـ خـبـرـ هـذـهـ الـحـادـثـ سـلـطـانـ الـمـغـرـبـ أـبـيـ سـالـمـ الـمـرـينـيـ غـضـبـ لـخـلـعـ السـلـطـانـ وـقـتـلـ حاجـبـهـ، وأـرـسـلـ فـيـ الـحـالـ يـطـلـبـ مـنـ إـسـمـاعـيلـ الـمـتـغـلـبـ عـلـيـ غـرـنـاطـةـ أـنـ يـسـمـحـ لـأـخـيـهـ الـمـخـلـوـعـ وـوزـيرـهـ ابنـ الخطـيـبـ إـلـيـ الـمـغـرـبـ، فـأـجـابـ السـلـطـانـ الـجـدـيدـ إـلـيـ مـطـلـبـهـ، وـجـازـ الغـنـىـ بالـلـهـ وـابـنـ الخطـيـبـ إـلـيـ الـمـغـرـبـ؛ حـيـثـ اـسـتـقـبـلـاـ بـالـتـرـحـيبـ، وـظـلـ الغـنـىـ بالـلـهـ خـلـالـ بـقـائـهـ بـالـمـغـرـبـ يـتـحـيـنـ الفـرـصـةـ لـاستـرـجـاعـ عـرـشـهـ الـمـسـلـوبـ^(٣).

وبالفعل تمكن السلطان المخلوع من استرداد عرشه من جديد بمساعدة المرinيين - بفضل دهاء وحكمة وزير المـحـنـكـ ابنـ الخطـيـبـ - مستغلـينـ فـيـ ذـلـكـ ثـورـةـ عـارـمـةـ وـقـعـتـ فـيـ حـاضـرـةـ غـرـنـاطـةـ، أـدـتـ إـلـيـ سـقـطـ الـمـغـصـبـ، وـعـودـةـ الغـنـىـ بالـلـهـ إـلـيـ الـحـكـمـ، الـذـيـ مـاـ إـنـ استـقـرـتـ لـهـ الـأـمـورـ، حـتـىـ بـعـثـ بـرـسـالـهـ إـلـيـ وزـيرـهـ ابنـ الخطـيـبـ سـنـةـ ١٣٦٢ـ هـ ٧٦٣ـ مـ يـخـبـرـهـ

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٤١-٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) هو الغنى بالله محمد بن يوسف الأول، سلطان بنى الأحمر في غرناطة، ولـيـ الـمـلـكـ مـرـتـنـ، الـأـولـيـ بـعـدـ وـفـاةـ أـبـيهـ سـنـةـ ١٣٥٤ـ هـ ٧٥٥ـ مـ، وـالـثـانـيـةـ سـنـةـ ١٣٦١ـ هـ ٧٦٢ـ مـ، اـخـتـصـ أـمـورـ الـحـجـاجـ بـيـدـ رـضـوانـ حاجـبـ أـبـيهـ، وـجـعـلـ الـوـزـارـةـ لـابـنـ الخطـيـبـ كـاتـبـ الـأـنـسـلـ وـمـؤـرـخـاـ المشـهـورـ. ابنـ الخطـيـبـ: اللـمـحةـ الـبـرـيـةـ، ص ١٠٠؛ الإـحـاطـةـ، ج ٢، ص ١٥.

(٣) ابنـ الخطـيـبـ: اللـمـحةـ الـبـرـيـةـ، ص ١٠٨-١٠٩؛ ابنـ خـلـدونـ: العـبـرـ، ج ٧، ص ٣٠٦؛ المـقـريـ: نـفـحـ الطـيـبـ، ج ٥، ص ٨٤-٨٥؛ المـقـريـ: أـرـهـارـ الـرـيـاضـ، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ يـوسـفـ شـكـريـ فـرـحـاتـ: غـرـنـاطـةـ فـيـ ظـلـ بـنـيـ الـأـحـمـرـ، ص ٣٨.

فيها بنجاحه في استرجاع عرشه، ويطلب منه العودة ليتقلد منصبه الوزاري؛ ونزولاً عند رغبة السلطان الغناطي، جاز ابن الخطيب بلاد المغرب إلى غرناطة^(١).

وفي تلك الآونة كثُر خصوم ابن الخطيب حتى وقع ضحية التامر داخل البلاط الغناطي، بسبب استئثاره بالسلطة، وانفراده بالحل والربط، مما جمع حوله الحсад والبغضين، الذين أثمرت سعياتهم لدى سلطان غرناطة، ويأتي على رأس هؤلاء تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك^(٢)، الذي انقلب ضده، فبدأ مركزه يضعف يوماً بعد يوم، فقرر ترك السياسة ومشاكلها، بسبب توالي السعيات ضده، وشعوره بالإحباط وعدم قدرته على مواجهة دسائس خصومه، فقرر الاتجاه نحو حياة الزهد والاعتكاف^(٣)، وزيارة بيت الله الحرام، وإثارة الآخرة على الدنيا^(٤). ولما شعر ابن الخطيب بتغيير سلطانه عليه، ورفضه السماح له بأداء فريضة الحج، أو حتى اعتزال العمل السياسي، فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال على سلطانه، بحجة تفقد التغور الغربية، ومنها عقد العزم على الفرار إلى المغرب، بعدما يئس من السياسة ومتاعبها، فكتب رسالة إلى سلطانه الغنى بالله يوْدَعه فيها، ويشرح له دواعي استقالته، وبعدها جاز المضيق متوجهاً إلى سبتة في غرة جمادي الآخرة من سنة ١٣٧٣هـ / ١٧٧٣م، تاركاً أعباء الوزارة بالأندلس، فاراً إلى ما يرجوه من حياة هادئة في كنف السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز ، الذي استقبله أحسن استقبال^(٥).

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٣١٤، ٣١٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤؛ المقرى: نفح الطيب، ج٥، ص١٠٠.

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد، يعرف بابن زمرك، أحد أدباء وكتاب الأندلس الكبار، ولد ونشأ بغرناطة، ترقى في الأعمال الكتبية إلى أن جعله صاحب غرناطة الغنى بالله كاتم سره سنة ١٣٧٢هـ / ١٧٧٣م، ثم وزيراً له، توفي في عهد سلطان بنى نصر محمد السادس مقتولاً شر قتلة، مع بعض أبنائه. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٣٤؛ المقرى: نفح الطيب، ج٥، ص١٣٤؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس ترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٧، ص١٥٤؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٠٧.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٤، ص١٣.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٣١٧.

(٥) نفسه، ق٢، ص٣١٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٥؛ المقرى: نفح الطيب، ج٥، ص٩٩ - ١٠٠.

وعلى الجانب الآخر، استمر خصوم ابن الخطيب في إشعال نيران الاتهام ضده، فرموه بالإلحاد والخروج عن الشرع في بعض ما كتب في مؤلفاته^(١). وكان أبرز مروج لهذه الدعاية المسمومة كما هو معلوم، تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك، فضلاً عن قاضي الجماعة أبو الحسن النباهي أحد كبار خصومه والمفتين بقتله، والذي كان من قبل من أوفي أصدقاء ابن الخطيب قبل أن تتغير العلاقة بينهما، والذي بعث برسالة إلى ابن الخطيب يتهمه فيها بالكفر والإلحاد^(٢).

ولا يتسع لنا المجال هنا للبحث عن حقيقة الأسباب التي نشأ عنها هذا الخلاف، إلا أن هذا الأخير - النباهي - لم يكن قطعاً بريئاً من المشاركة في الحملة التي شُنت على ابن الخطيب، فجعلته هدفاً للمكائد والوشایات والتهم، فقد تغيرت النفوس عليه، وجرت له أتعس التقلبات، وكثرت السعایات ضده، وتذكر له من كان هو سبباً في رفع مكانتهم، ولم يكن ابن الخطيب غافلاً عما يجري من حوله، فهو يقول في وصف تلك الطاولة التي ألمت به "وصرت أنظر إلى الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات فأتبين الحسائف (الأحقاد) في لغاتها، والضغينة في كل يوم تستحكم والشر يتضاعف"^(٣). وبذلك يكون قد خصوم ابن الخطيب قد اشتراك فيه تياران: إحدهما سياسي بزعامة خلفه في الوزارة ابن زمرك، وتيار آخر عقدي بزعامة النباهي، استهدف تصفيته من خلال الهجوم على رئيس ماله التقافي، متذمرين من المكائد والوشایات والدسائسآلية لاكتساب الحظوة، واقصاء الآخرين.

ونتيجة لكل هذه التهم التي نجحت إلى حد بعيد، أفتى عدو ابن الخطيب الأد قاضي الجماعة أبو الحسن النباهي بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق، فجمعت طائفة من كتب ابن الخطيب وأحرقت بحضور غرناطة في منتصف سنة ١٣٧٢ هـ / ١٧٧٣ م "بحضر من العلماء والفقهاء والمدرسين" لما تضمنته الكتب المذكورة من المقالات التي

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٥؛ محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٨ م، ص ١٥٦.

(٢) المقربي: نفح الطيب، ج ٥، ص ١١٨ - ١١٩، ١٢٢، المقربي: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢١٣ - ٢١٢، محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص ١٥٦، ١٥٧.

(٣) ابن الخطيب: الكتبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٨.

أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم^(١)، بعد صدور فتوى فقهية بذلك، علي أساس أنها تععن في العقيدة والدين، وتتطوّي على إلحاد وكفر^(٢). وهكذا، نجح خصومه في طمس تراثه والعبث به وإحرقه، عندما لم تُجد محاولاتهم للتخلص منه.

وفي سياق متصل، أرسل الغني بالله إلى نظيره المريني السلطان عبد العزيز كتاباً يطلب منه فيه تنفيذ حُكم الشّرع في الوزير المُلحد، وهو الإعدام، أو تسليمه إلينا، فما كان من سلطان بنى مرين إلا أن رفض طلبه، متعللاً بقوله: "هلا انقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما هنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري"^(٣)، بل زاد العاهل المغربي من تقرّيب ابن الخطيب وإكرامه، وأغدق عليه حمايته من كيد أعدائه الذين يتربصون به.

وكانت وفاة السلطان المريني عبد العزيز سنة ١٣٧٤ هـ / ١٧٧٤ م مفاجأة مؤلمة للبلاد المريني ولابن الخطيب؛ إذ نودي في الحال بولاية ولده القاصر السعيد، مما فتح باباً للصراع بين الوزراء والأوصياء على العرش، فغادر السعيد بلاط أبيه بتلمسان في اتجاه فاس ومعه ابن الخطيب الذي تقوى مرکزه في بلاط السلطان الجديد^(٤). ورغم ذلك، لم تهدأ محاولات الغنى بالله في الإيقاع بابن الخطيب، إلا أنه فشل في مسعاه؛ لسمو مكانة ومنزلة ابن الخطيب لدى السعيد، ومن ثم ساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى تدبّر مؤامرة من لدن تفكير حكام غرناطة للإطاحة بالملك السعيد، عندما حرض سلطان غرناطة بعض الثوار والخواج من بنى مرين على الإنقلاب والثورة على السلطان المريني الذي أبى أن يلبّي رغبة السلطان الغرناطي في القضاء على وزيره السابق، وأمدّهم بما يحتاجون إليه، حتى تمكّنوا من الإطاحة بالسلطان السعيد، وتنصيب الأمير أبي العباس بن أبي سالم مكانه سنة ١٣٧٦ هـ / ١٧٧٦ م^(٥).

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٤٤.

(٢) كانت الكتب الفلسفية والكلامية من الكتب المذمومة بالأندلس. المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٣٢٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٦؛ المقري: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٢٥.

وسرعان ما بادر العاهل المريني الجديد بمجرد نجاح المؤامرة بإلقاء القبض على ابن الخطيب، فحُوكم بعدها نسبت إليه طائفة من التهم التي وجهت إليه في غرناطة، وكانت النية منصرفة إلى تصفيته، وكان للنباхи وابن زمرك اليد الطولى في إعداد وصياغة هذه التهم، التي قذفت به نحو مربع النكبة والهلاك، ولم يكن الбаृث على هذا البغض الشديد من جانب الغنى بالله لوزيره السابق ابن الخطيب، هو فراره من الأندلس أو ما نسب إليه من تهم الزندقة والإلحاد والكفر؛ لأن الباृث الحقيقي كان أشد من ذلك وأخطر، وهو أن ابن الخطيب كان رداً منه على مساعي خصومه، قد أخذ يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس وافتتاحها، والجهاز علىبني الأحمر في غرناطة، وقد نجح بالفعل ابن الخطيب في هذا الإغراء، ووضعت لذلك خطة تقرر تنفيذها عند رجوع العاهل المغربي إلى فاس^(١)، وقد أبانت الواقع فيما بعد صحة ذلك.

وعلي كل حال، فقد ترك ابن الخطيب لمصيره المحتم الذي سيؤول إليه، بعدها كالوا له التهم جرافاً، فقبض عليه وعذب أمام الملأ، ورج به في زنزانة مظلمة، وأفتقى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتلته، فدس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقو سجنه ليلاً، ومعهم بعض الخدم الأندلسيين الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في سجنه، وأخرجوا جثته في الغد، فدفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحرق^(٢)، أحد أبواب فاس القديمة، ثم أخرجت جثته في اليوم التالي، وطُرحت فوق القبر لينظره الناس، ثم جمعت لها أعواضاً وأضرمت حولها النيران، فاحتراق شعره واسودت بشرته، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحرق كليّة، وتركت هنالك لتتلوى الثوء الأخير، وكان في ذلك انتهاء محنة

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج١، ص٢٢٥؛ عبد الهادي التازري: ابن الخطيب سفيراً ولاجناً سياسياً، ص٩٤.

(٢) هو باب الشريعة القائم من ناحية فاس الجديد، سمي بباب المحرق منذ العهد الموحدي عندما أحرق به أحد الثوار بعد صلبه لمدة خمسة عشر يوماً، فسمى بباب المحرق. الجنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م، ص٤٣؛ ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السننية، ص٣٨؛ ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحاتة الأكياس بمن أقرب من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص٢٠٢.

ابن الخطيب. وقد وقعت هذه المأساة المؤلمة في ربيع الأول أو ربيع الآخر سنة ١٣٧٤ هـ / ١٧٧٦ م^(١).

وعادة ما كان يتم اللجوء إلى القتل والإحرق بالنار متلماً حتى لا ينال الخطيب إغراقاً في شهوة التشفى والانتقام من الخصوم^(٢)، وقد لخص ابن خلدون هذا المآل المسؤول الذي طال صديقه ابن الخطيب بقوله إنه: "الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه"^(٣)، أو كما قال محمد عبد الله عنان أنه ذهب "ضحية الجهالة والتعصب، والأحقاد السياسية الوضيعة"^(٤). كل هذه القرائن وغيرها تنهض دليلاً على أن نبش القبور وتدنيسها والعبث بمحنتياتها لم يكن غريباً على مجتمع الغرب الإسلامي، وأن هذا النهج من جانب السلطة ضد خصومها كان بمثابة الداء القاتل الذي أدى إلى تراجع الغرب الإسلامي في هذه الحقبة الخطيرة من تاريخه، ومن الغريب أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والاقتراء أكثر من مرة؛ إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخين الرسميين بالطمس والتهبيش والسكوت عن مثل هذه الأفعال الشنيعة.

ظاهرة طمس وإخفاء القبور خشية نبضها: (٢)

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات قلس، ص ٦٢-٦٣؛ المقرى: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ٣٣١. لم يكن ابن الخطيب وحيد عصره الذي تعرض للتكبيل والقتل والإحرق، فإن الآثار تعرض هو الآخر لشر موتة، وكان من الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة، إذ اتهم بالتروص بالولمة الحفصية، فضرب بالسياط ونكل به، وقتل فعضاً بالرماح في حرم سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، ثم أحرق شلوه، وأكلت النار جسده، تلك النار التي لم ينطفئ نورها بما كانوا يلقون فيها من كتبه ومؤلفاته، حتى تحول جسده إلى رماد داكن اللون، كل ذلك على مرأى من الناس الذين أخرست بعضهم رهبة الموت، وكانت قد شفت غل بعضهم الآخر. ابن الآثار: الحلة السيراء، ج ١، ص ٤٥، ٤٦ (من مقدمة المحقق)؛ المقتنص من كتاب تحفة القائم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٥، ٢٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢٥؛ ابن الأحمر: كتاب مستودع العالمة ومستند العالمة، تحقيق محمد التركى التونسي، مراجعة محمد بن تاويت النطاوينى، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤ م، ص ٨٧؛ المقرى: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٤٩٦.

(٤) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ص ١٦٩-١٧٠.

وبقي أن نشير أخيراً إلى ظاهرة طمس وإخفاء قبور المسلمين في الأندرس خوفاً من تعرضها للنبش والتخريب من جانب الأسبان خلال المواجهات والصادمات المسلحة الدائرة بين القوى السياسية في المغرب والأندلس، وبين ممالك إسبانيا المسيحية في الشمال، ورغم افتقارنا إلى إشارات واضحة تفيد بقيام النصارى الأسبان بنبش قبور المسلمين، فأنتا متوفراً على إشارات في غاية الأهمية عن طمس وإخفاء قبور المسلمين خشية تسلط النصارى عليها بالتخريب والنبش.

وأول هذه الإشارات يعود إلى انتصار المسلمين في عهد أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب المريني المعروف بالمنصور على قوات مملكة قشتالة بقيادة القائد "تونيو دي لارا" الذي تقدر بعض الروايات جيشه بثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل^(١)، وتسميه المصادر العربية باسم "ذنه أو ذونونه"، في ١٥ ربیع الأول سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م؛ حيث تمكّن المسلمين من تبديد جيشه بين قتيل وأسير وفار، ومرققاً قوات قشتالة شرّ ممزق^(٢).

وذكرت بعض الروايات أن عدد رؤوس القتلى من النصارى في هذه المعركة بلغ ثمانية عشر ألف قتيل^(٣)، وفي رواية أخرى ستة آلاف من النصارى^(٤)، حتى بدت كالجبل العظيم. وكانت جملة من استشهد من المسلمين أربعة وعشرين رجلاً؛ حيث يقول ابن أبي زرع: "ثم تقدّم أمير المسلمين جيشه ونظر من استشهد منهم في تلك الغزارة .. فكانت جملتهم أربعة وعشرين رجلاً، فأمر المسلمين بدفهم ومواراثهم وتعفيف آثار قبورهم"^(٥)؛ خوفاً من تسلط النصارى عليها بالنبش والتخريب.

ونتوفر على إشارة أخرى في غاية الأهمية تكشف عن رغبة فقيه أندلسي في طمس قبره بعد وفاته، خشية نبشه وتنميره على يد الأسبان، وهذه الإشارة التي أوردها التجاني تخصّ شخصاً يدعى أبو يعقوب الخشاب، الذي كان يقيم في مدينة طرابلس متزهداً، قبل أن

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٥٦٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب، ص ٣١٨؛ نفسه، الذخيرة السنوية، ص ١٥٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٩٣.

(٥) ابن أبي زرع: الذخيرة، ص ١٥٠.

يتركها وينقل إلى مدينة تونس، ومنها جاز البحر إلى جزيرة جربة^(١) التي توفى بها، وكان هذا الفقيه قد أوصي قبل وفاته "بتعمية قبره؛ فلا يوقف له بها الآن على قبر"^(٢). وحسب رواية التجاني والتي يقول فيها "ويظهر لي أن ذلك والله أعلم لأنه اطلع على النصاري ستملك تلك الجزيرة بعد، فكره إشهار قبره بين قوم كفار، أو لأنه مال على أحد القولين عندنا في تكبير أهلها بما شرحناه من مذهبهم الفاسد"^(٣)، فإن هذا الفقيه كان يخشى على نفسه - بسبب اختلال أمر الأندلس منذ نهاية القرن ٤٠١ هـ / ١١٥٢ م وببداية القرن ٥٥٥ هـ / ١١٥٢ م - من تعرض الأسبان لقبره بالنبش والتخييب إذا تمكنا من الجزيرة، وفي الوقت نفسه خوفه من أهل الجزيرة نفسها، بسبب تعرضه لهم ولمذهبهم الفاسد من أن ينكروا به ويقتربوا منه بعد وفاته. وننمور علي إشارة أخرى تفيد ب تعرض الأسبان لقبور المسلمين في الأندلس بالطمس والتخييب، هذه الإشارة تخص فقيه أندلسي من مدينة بلنسية^(٤) يدعى محمد بن جعفر بن خيرة القرطبي البلنسي^(٥)، الذي توفي سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وقد قارب على المئة، فدفن خارج باب بيطلة، فأصبح قبره مزاراً للناس يتبركون به، إلى أن استولى الأسبان على

(١) جزيرة جربة: من أعظم الجزر خطراً، طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها عشرون ميلاً، أكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين والنفاث الذي لا يوجد له نظير، أهلها ينقسمون إلى فرقين، فرقة تعرف بالوهبية، والأخرى تعرف بالنكارة، وكلا الفرقين خواج غلة في مذهبهم مكثرون، لا يلامسون بثيابهم ثياب = أحد من ليس على مذهبهم، ولا يؤكلونه في آيتهم، وإن استنقى عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجا ماء البئر كله. للمزيد انظر الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، مج ١، ص ٣٠٥؛ رحلة التجاني، ص ١٢١-١٢٦.

(٢) رحلة التجاني، ص ٢٦١.

(٣) نفسه والصفحة.

(٤) مدينة بلنسية: من أهم قواعد الأندلس، تقع في إقليم شرق الأندلس، على مسافة ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط، يحدها من الشمال مدينة طروشة، ومن الجنوب مدينة دانيا ومرسيية، ومن الغرب طليطلة. الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر، ص ١٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٩٧٧م، مج ١، ص ٤٩٠؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتعليق إيليفي بروفنسال، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٤٧.

(٥) كان هذا الفقيه من بناء مدينة بلنسية، معروفاً بالنزاهة والفضل، ومتولياً للخطبة بجامع المدينة. ابن الآilar: التكميلة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٣؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميلة، مج ٤، س ٦، ص ١٦٦-١٦٧.



بلنسية^(١) في أواخر صفر سنة ١٢٣٦ هـ / ١٢٣٨ م "قطمسوه وسائل قبور المسلمين"^(٢). ولعل في هذه الإشارات، ما يؤكد إقدام النصارى الأسبان على نبش قبور مسلمي الأندلس، رغم إغفال المصادر التاريخية لتلك الواقعة.

(١) بعد هزيمة العقباب القاسية سنة ١٢١٢ هـ / ٦٠٩ م، ضعفت قوة الموحدين وخارت قواهم، وعادت الأندلس إلى سابق عهدها من التشتت والفرق، فقويت شوكة حركة الاسترداد الإسبانية، وبدأ مشروع ملك آرغون للاستيلاء على مدينة بلنسية بفرض الحصار عليها ورميها بالمجانيق، وبلغ أهلها مبلغًا من شدة الجوع، ونفاد الأقوات، حتى اضطروا إلى تسليمها صلحًا سنة ١٢٣٦ هـ / ١٢٣٨ م، فاستباح الأسبان منازلها وأراضيها، وقسموها بين رجالهم، مما أدي إلى تشريد أهلها. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٧٣؛ الحميري: الروض المعطار، = ص٩٧؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط٢، ١٩٩٠ م، القسم الثاني، ص٤٥٠-٤٥١.

(٢) ابن الآبار القضاوي: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص١٣؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتكميلة، مج٤، س٦، ص١٦٦-١٦٧.



الخاتمة

لا شك أن معالجة موضوع "ظاهرة نبش القبور وتخريبها في الغرب الإسلامي" هو في حد ذاته إشكالية، لاسيما في ظل غياب حجج وأدلة قاطعة تبرهن على تقدم وازدهار تلك الظاهرة خلال الفترة المعنية بالدراسة، فالحديث عن نبش القبور أو تدنيس شواهدها وتخريبها، وحتى العبث بمحفوبياتها، لا يزال محاطاً بالكثير من الغموض والكتمان، لكن المؤكد أن تلك الظاهرة كانت أساساً مهماً من الأسس التي انبني عليها قهر السلطة للخصوم والمناوئين والمعارضين خلال العصر الوسيط، وبعد استعراضنا للموضوع من كافة جوانبه، خلصنا إلى بعض النتائج من هذه الدراسة، نذكر منها:

- (١) بيّنت الدراسة أن المسلمين عبر تاريخهم الطويل منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى نهاية فترة البحث قد مارسوا نبش القبور في فترات مختلفة من تاريخهم، وقد بدأ ارتکابهم لهذا الفعل الشنيع مع بداية الصراع السياسي بينهم على الخلافة، رغم أن الإسلام في نصوصه وتعاليمه لم يدعُ إلى تخريب القبور أو المساس بها، كما نهى أيضاً عن التمثيل بالجثث والعبث بها.
- (٢) اقتصر الدوافع والأسباب الكامنة وراء نبش القبور في الغرب الإسلامي خلال فترة البحث على الصراعات السياسية والخلافات المذهبية والفلسفية والكلامية.
- (٣) سيطرة بعد السياسي على أغلب ظواهر نبش القبور المرصودة، ممثلاً في الرغبة في الانتقام من المخالفين والخصوم والثوار والمناوئين وإذلالهم بانتهاء حرمته قبورهم بعد رحيلهم عن الحياة، ولا غرو في ذلك، فالكيانات السياسية آنذاك اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحاهم، ليسوا أعداء وخصوماً سياسيين فحسب، بل كفاراً - وهم إخوان لهم في الدين - يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، ونبش قبورهم إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، معتمدين في ذلك على مبررات دينية وسياسية.
- (٤) توصلت الدراسة إلى أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والافتراء أكثر من مرة: إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخ بالطمس والتهميش والسكوت عن وقائع وأحداث

مثل هذه الأفعال الشنيعة، التي لم تذكر في المصادر إلا بنصف الكلمات، ولم تظهر في المصادر إلا بشكل باهت، بل نكاد نجهل كل تفاصيلها، بعدها أُسْدِل ستاراً من الصمت على وقائعها.

- (٥) لم تصل ظواهر نبش القبور التي تم رصدها خلال فترة البحث إلى حد الظاهرة الإجرامية الفجة؛ نتيجة لعوامل كثيرة تتعلق بالواقع التاريخي الذي يؤكد أن تلك الانحرافات والممارسات لم تكن طابعاً غالباً، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.
- (٦) لم تقتصر ظواهر نبش القبور في الغرب الإسلامي على فئة اجتماعية معينة، حيث شملت السياسيين من المخالفين والخصوم والمناوئين، وكذا الوزراء والفقهاء والقضاة.
- (٧) حاولت الدراسة قدر الإمكان أن تميط اللثام عن الغموض الذي يكتنف أحداث ووقائع نبش القبور وتدنيس شواهدها وتخييب محتوياتها، والدافع والظروف الكامنة وراء ذلك.

قائمة المصادر والمراجع العربية والمعربة

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) ابن أبي زرع(أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، ت ١٣٢٥/٥٧٢٦ م)، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرinية، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢ م.
- (٣) ، الأنبياء المطروب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المنصور للطباعة والوراقه، الرباط، ١٩٧٣ م.
- (٤) ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضايعي، ت ١٢٦٠/٥٦٥٨ م): الحلة السيراء، جزءان، تحقيق حسين مؤنس، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- (٥) ، التكميلة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥ م، ج ١.

- (٦) _____، المقضب من كتاب تحفة القاسم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩ م.
- (٧) ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م): الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م، مج. ٥.
- (٨) ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ت ٤٠٧ هـ / ١٠٨١ م): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط، ١٩٧٢ م.
- (٩) _____، كتاب مستودع العالمة ومستبدع العالمة، تحقيق محمد التركى التونسي، مراجعة محمد بن تاويت الطواني، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤ م.
- (١٠) ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت ٥٩٧ هـ): المنظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج. ٥.
- (١١) ابن الخطاب المالكي المغربي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المالكي المغربي، ت ٩٥٤ هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط ، ٢٠١٠ م، مج. ٢.
- (١٢) ابن الخطيب (سان الدين بن الخطيب، ت ١٣٧٦ هـ / ١٧٦٦ م): أعمال الأعلام فيمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق إليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦ م، القسم الثاني.
- (١٣) _____، أعمال الأعلام ...، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤ م، القسم الثالث.
- (١٤) _____، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٤ هـ / ١٣٩٤ م، ٤ أجزاء.
- (١٥) _____، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح السيد البشير الفورتي، طبعة تونس، ١٣٢٩ هـ.

- ١٦ _____، الكتبية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ١٧ _____، اللمحه البدرية في الوله النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.
- ١٨ ابن القطن المراكشي (أبو الحسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكتامي، ت ١٢٣١ هـ / ١٢٢٨ م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود على مكي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠ م.
- ١٩ ابن المبارك (عبد الله بن المبارك، ت ١٨١ هـ): كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (د.ت)، ج١.
- ٢٠ ابن المؤقت (محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك المراكشي): السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفى البانى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤١ هـ.
- ٢١ ابن الهمام الحنفي (كمال الدين محمد بن عبد الواحد، ت ١٩٦١ هـ): شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرزاق غالب المهدى، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، مج٢.
- ٢٢ ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩ هـ): تاريخ ابن الوردي، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩ م، ج١.
- ٢٣ ابن بسام (أبو الحسن على، ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م): الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م، ٨ أجزاء.
- ٢٤ ابن بشكوال (أبي القاسم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ / ١٠٨٣ م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩ م.
- ٢٥ ابن بطل (أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م): شرح صحيح البخاري، تعليق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣ م، ج٢.

- (٢٦) **ابن بلکین** (الأمير عبدالله بن بلکین بن بادیس بن حبوس): مذکرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنی زیری بغرنطة المسماة بكتاب التبیان، نشر وتحقيق إ. لیفی بروفسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥.
- (٢٧) **ابن تغیری بردی** (جمال الدين أبي المحسن يوسف بن تغیری بردی، ت ٨٧٤ھ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج ٢.
- (٢٨) **ابن تومرت**: كتاب أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار الطالبی، الجزائر، ١٩٨٥م.
- (٢٩) **ابن حجر العسقلاني** (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ھ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار السalam، الرياض، ٢٠٠٠م، ج ١.
- (٣٠) **ابن حزم الأندلسي** (أبو عبد الله علي بن أحمد بن سعيد، ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م): المحطي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ج ٥.
- (٣١) _____، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٣.
- (٣٢) **ابن حماد** (أبو عبدالله محمد بن على، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م): أخبار ملوك بنی عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامی نقرة و عبد الحليم عویس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١هـ.
- (٣٣) **ابن حیان القرطبی** (أبو مروان بن حیان، ت ٤٦٩هـ): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.
- (٣٤) **ابن خاقان** (أبي نصر الفتح بن محمد بن عبید الله القیسی، ت ٥٢٩هـ): قلائد العقیان ومحاسن الأعیان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خربوش، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩م، ج ٢.
- (٣٥) **ابن خدون** (عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٠٨هـ / ١٤٠٨م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م، الأجزاء ٤، ٦، ٧.

- (٣٦) ابن خكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأئماء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج. ٥.
- (٣٧) ابن رشد القرطبي (أبو الوليد محمد بن أحمد، ت ٥٢٠هـ/١١٢٦): المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ج. ١.
- (٣٨) _____، مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب، ط٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، مج. ٢.
- (٣٩) ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت ٢٣٠هـ): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ج. ٣.
- (٤٠) ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى، ت ٦٨٥هـ/١٢٨٤م): المغرب في حل المغارب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، جزءان.
- (٤١) _____، رياض المبرزين وغایات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط١، دار طлас للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
- (٤٢) ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة، ت ٥٩٤هـ/١١٩٨): المن بالإمامية، تحقيق عبد الهادي التازي، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.
- (٤٣) ابن صاعد الأندلسي (أبي القاسم أحمد بن صاعد، ت ٦٣٥هـ/١٠٦٩م): طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م.
- (٤٤) ابن عاصم (أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، ت ٨٥٧هـ): جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، مج. ١.
- (٤٥) ابن عبد البر القرطبي (أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت ٤٦٣هـ): الاستدكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معانٍ الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد

المعطى أمين قلعي، دار قتبة للطباعة والنشر، دمشق - بيروت، دار الوعي، حلب
_ القاهرة، ١٩٩٣ م، مج. ٨.

٤٦) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله، ت ٥٢٥٧ هـ / ١٧٧١ م): فتوح إفريقيا
والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤ م.

٤٧) ابن عبد الكريم الرافعى القزوينى (أبي القاسم عبد الكريم بن محمد، ت ٦٢٣ هـ):
العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض
وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م، ج. ٢.

٤٨) ابن عبد الملك المراكشى (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك، ت ٧٠٣ هـ):
الذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، ط١،
دار الثقافة، بيروت، (د.ت.)، القسم الأول والثاني؛ الأسفار الرابع والخامس والسادس،
تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت.)؛ السفر الثامن، تحقيق محمد بن
شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤ م، القسم الأول.

٤٩) ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى، ت حوالي ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م): البيان
المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣،
دار الثقافة، بيروت، الأجزاء ١، ٢، ٣؛ الجزء الرابع، تحقيق ومراجعة إحسان عباس،
ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م؛ قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتани
وآخرون، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥ م.

٥٠) ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله المعروف بابن
عساكر، ت ٥٧١ هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضليها، دراسة وتحقيق محب الدين
أبي سعيد عمر بن غرامه العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦ م،
ج. ٣١.

٥١) ابن غازى (محمد بن غازي العثماني): الروض الهتون في أخبار مكاسبة الزيتون،
تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨ م.

- (٥٢) ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٠هـ): الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج١.
- (٥٣) ابن قدامة (موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ت ٦٢٠هـ): المغني، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي عبد الفتاح محمد الحلو، ط٣، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ج١٢.
- (٥٤) ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين بن كثير، ت ٦٧٧٤هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، الأجزاء ٧، ١٠.
- (٥٥) ابن مزوق (محمد بن مزوق التلمساني، ت ١٣٧٩هـ/١٣٧٩م): المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بغييرا، تقديم محمود بن عياد، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- (٥٦) ابن مفلح المقدسى (شمس الدين محمد بن مفلح المقدسى، ت ٦٦٣هـ): كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ج٣، ٢٠٠٣م.
- (٥٧) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت ١٣١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار المعرف، القاهرة، (د.ت)، الأجزاء ٤٦، ٤٨.
- (٥٨) أبي الحسن الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨): الحاوی الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعی رضى الله عنه، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم محمد بكير إسماعيل وعبد الفتاح أبو سنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج١٣.
- (٥٩) _____، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- (٦٠) أبي زكريا بن شرف النووي (أبي زكريا محي الدين بن شرف، ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م): كتاب المجموع، شرح المهذب للشيرازى، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعى، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، (د.ت)، ج٥.

- ٦١ الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي، ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م): صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بربيل، ١٨٦٦ م.
- ٦٢ —، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢ هـ، مجل ١.
- ٦٣ الإمام مالك (أبو عبد الله مالك بن أنس، ت ١٧٩ هـ / ٧٩٦ م): موطاً مالك، روایة يحيى بن يحيى الليبي الأندلسی، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧ م، مجل ١.
- ٦٤ البكري (أبو عبيد الله عبد العزيز بن محمد، ت ٩٤ هـ / ٤٨٧ م): المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- ٦٥ —، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط ٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكم، تونس، ١٩٩٢ م، جزءان.
- ٦٦ البيدق (أبو بكر بن على الصنهاجي، ت ١١٦٠ هـ / ٥٥٥٥ م): أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١ م
- ٦٧ البيهقي (أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت ٥٨٥ هـ): السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، ج ٨.
- ٦٨ التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد التجاني، ت ٧١٧ هـ): رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٨١ م.
- ٦٩ الجنائي (علي الجنائي): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١ م.
- ٧٠ الجوني (أبو علي منصور العزيزى): سيرة الأستاذ جونز به توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق محمد كامل حسين و محمد عبد الهادى شعيرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٤ م.

- ٧١ **الحسن البصري** (أبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن البصري، ت ٣٧٨هـ):
القریع فی فقه الإمام مالک بن أنس، تحقيق سید کسری حسن، دار الكتب العلمیة،
بیروت، ٢٠٠٧م، مج ٢.
- ٧٢ **الحمیری** (محمد بن عبد المنعم، ت فی أواخر القرن ١٥/٥٩هـ): الروض المعطار فی
خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بیروت، ١٩٨٤م.
- ٧٣ _____، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فی خبر الأقطار،
نشر وتعليق إلیفی بروفنسال، ط ٢، دار الجیل، بیروت، ١٩٨٨م.
- ٧٤ **خلیفة بن خیاط** (ت ٢٤٠هـ): تاريخ خلیفة ابن خیاط، تحقيق أکرم ضیاء العمri،
ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزیع، الریاض، ١٩٨٥م.
- ٧٥ **خیر الدین الزركلی** (ت ١٣٩٦هـ): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من
العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ١٥، دار العلم للملايين، بیروت، ٢٠٠٢م، ج ٧.
- ٧٦ **الذهبی** (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ١٣٤٧هـ):
سیر أعلام النبلاء، ج ٦، تحقيق شعیب الأرنؤوط وحسین الأسد، ط ١١، مؤسسة
الرسالة، بیروت، ١٩٩٦م.
- ٧٧ **الزرکشی** (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، توفي فی نهاية القرن التاسع الهجري):
تاریخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط ٢، المکتبة
العنیقة، تونس، ١٩٦٦م.
- ٧٨ **السيوطی** (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطی، ت
٩١١هـ): حسن المحاضرة فی تاریخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ١.
- ٧٩ _____، بغية الوعاة فی طبقات اللغويین والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،
ط ١، مطبعة عیسی البابی الحلبی وشركاه، ج ١.
- ٨٠ _____، تاریخ الخلفاء، ط ١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بیروت، ٢٠٠٣م.

- (٨١) **الصفدي** (صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، ت ٧٦٤هـ): الوفي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، مجل ١٠.
- (٨٢) **الضبي** (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦م.
- (٨٣) **الطبرى** (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، ت ٣١٠هـ): تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ج٤.
- (٨٤) **العباس بن إبراهيم السملانى المراكشى**: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج٩.
- (٨٥) **عبد الواحد المراكشى** (محبى الدين عبد الواحد بن علي المراكشى، ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م.
- (٨٦) _____، وثائق المرابطين والموردين، تحقيق حسين مؤنس، ط١، الثقافة الدينية، ١٩٩٧م.
- (٨٧) **القاضى عياض** (عياض بن موسى السبتي، ت ٤٥٤هـ/١٤٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج١، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، الرباط، ١٩٦٥م؛ ج٤-٣-٢، تحقيق عبد القادر الصحراءوى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٣م؛ ج٥، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، (د.ت)؛ ج٦-٧-٨، تحقيق سعيد احمد أعراب، مطبع الشويخ، نظوان، ١٩٨٦م.
- (٨٨) _____، الغنية، فهرست شيوخ القاضى عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.
- (٨٩) **الكتانى** (أبى عبد الله محمد بن جعفر بن إبريس، ت ١٣٤٥هـ): سلوة الأنفاس ومحنته الأكيلس بمن أقرب من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتانى وحمزة بن محمد الطيب الكتانى وآخرون، دار الثقافة للنشر ، الدار البيضاء، المغرب، (د.ت)، ج٣.

- ٩٠) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٤٢٠٠٤.
- ٩١) مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦م.
- ٩٢) مجهول(من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي): الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامنة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٣٩٩/٥١٩٧٩م.
- ٩٣) محمد بن إدريس الشافعى (ت ٤٢٠ھ): الأم، تحقيق وتحريج رفعت فوزى عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ٢٠٠١م، ج٢.
- ٩٤) محمود مقديش: نزهة الأنوار في عجائب التواريχ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج١.
- ٩٥) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن المسعودي، ت ٦٤٦/٥٥٧م): مروج الذهب ومعانى الجوهر، اعنى به كمال حسن مرعى، ط١، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣.
- ٩٦) المقسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بال بشاري، ت ٣٨٠/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.
- ٩٧) المقري (أحمد محمد التلمساني، ت ٤١٥١/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأنبلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، المجلدات ١-٥-٤-٣-٢.
- ٩٨) _____، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وأخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ٣ أجزاء.

- ٩٩) المقرizi (نقى الدين أحمد بن علي، ت ٤٣٠ هـ / ١٤٣٤ م): السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زياده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٣٦ م، ج ١، ق ٢.
- ١٠٠) الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ٢٠٠١ م، ج ٤٠.
- ١٠١) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد، ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٥٤ م، الإجزاء ١، ٢.
- ١٠٢) النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ت بعد سنة ٧٩٢ هـ): تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاة والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م.
- ١٠٣) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣ هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة إبراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م.
- ١٠٤) الواقدي (محمد بن عمر بن واقد، ت ٢٠٧ هـ): كتاب المغاربي، تحقيق مارسدن جونسن، طبعة عالم الكتب، (د.م)، ج ١.
- ١٠٥) الوزان (الحسن بن محمد الزياتي، ت ٩٦٠ م / ٥٥٢ م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣ م، ج ١.
- ١٠٦) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م): المعيار المعربي والجامع المغربي عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٨١ هـ / ١٤٠١ م، ١٣ جزءاً.
- ١٠٧) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، ج ١.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- (١) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م.
- (٢) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت.).
- (٣) ، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.
- (٤) آنخل باليثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- (٥) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م.
- (٦) بسيم عبد العظيم: شعر الأسر والسجن في الأندلس، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- (٧) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموردين، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- (٨) خضر محمد عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- (٩) رينهارت دوزي: ملوك الطوائف ونظارات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- (١٠) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعرف، لبنان، ١٩٦٣م.
- (١١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعرف، القاهرة، ١٩٨٩م.
- (١٢) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- (١٣) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت، ج١، (د.ت.).

- (١٤) عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧ م، ٧ أجزاء.
- (١٥) عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولائحاً سياسياً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ع، ٢، ١٩٨٧ م.
- (١٦) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣ م.
- (١٧) محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- (١٨) محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المريدة الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المغاربة عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١ م.
- (١٩) الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقي في عهد بنى زيري من ق. ١١ إلى ق. ١٢ م، ترجمة حماد الساطي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢ م، ج. ١.
- (٢٠) يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية، الجزائر، (د.ت)، ج. ١.
- (٢١) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المغاربة والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١ م، ج. ١.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- 1) **Ashtor, Eliyhu:** The Jews of Moslem Spain, Vol 1-2, 1979.
- 2) **Dubnov, Semon, Markovic, :** History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973.
- 3) **Gonzalo Maeso, David,:** Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963.
- 4) **Maria Isable Firro,:** Accusation of Zandaq in Al- Andalus, Venezia, Quaderni di Studi Arabi, 1986.
- 5) **Vincent Lagardére:** Histoire et Société en Occident Musulman Au Moyen Âge, Madrid, 1995.